رواية

حكايتي الأخيرة للتنين

محمد عبد اللّه سامي

عنوان الكتاب: حكايتي الأخيرة للتنين
المؤلف: محمد عبد الله سامي
مراجعة لغوية: محمود شرف
تصميم الغلاف: دعاء العدل
إخراج داخلي: رشا عبدالله

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 – المقطم – القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٦٢٦٤/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-894-080-0
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2024

رواية

حكايتي الأخيرة للتنين

محمد عبد الله سامي

الطبعة الأولى 2024

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سامي، محمد عبدالله
حكايتي الأخيرة للتنين: رواية/ محمد عبدالله سامي.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023
363ص؛ 13.5×19.5 سم
تدمك 978-977-894-080-0
1 - القصص العربية
أ- العنوان
813

رقم الإيداع 2023/26264

إهداء

إلى الامتياز الأعظم.. الشاي
إلى عطيَّة الله للإنسان.. النوم
إلى أقرب البشر للحقيقة.. ولي
... إلى رضوى

مهما ساء الأمر يمكنني دومًا أن أنام..

مهما ساء الأمر يمكنني دومًا أن أستيقظ

الفصل الأول

كيف بدأ النهر؟

1

طالَعتُ الكلمات المكتوبة على ظهر ورقة النتيجة...

"من البداية.. لم يكن الإنسان أبدًا..

بالغباء الكافي ليتقبَّل الحياة كما هي..

لكنه أيضًا لم يكن.. في أي وقت من الأوقات..

بالذكاء الكافي لينهيها"

تفحَّصتُ خطِّي الواثق، وانحناءات الحروف الغائرة في الورق. انحنى طرف شفتي استتفاهًا، وزفرت هازئًا. ما هذا البله! اللهم عليك بأفكاري. حكمة زائفة لا أعرف مصدرها. كلمات كتبتها بيدي، ورأيت فيها حكمة الأقدار التي امتثلت لعقلي، لا تمرُّ عليها سوى أيام حتى أراها بتلك السذاجة.

تكررت سذاجاتي.

لا أحتاج إلى الكثير من الإقناع كي أرى ضحالة أفكاري. مجرد ساعات قليلة أقضيها منفردًا فأرى مدى حمق الأفكار، كل الأفكار.

طويت الورقة الساذجة، وأعدتها إلى حيث كانت على الجزَّامة العالية بالقرب من الباب، ثم خرجت قاصدًا المزلقان؛ لعلِّي أجد تسجيلًا من كاميرات افتراضية، لا وجود لها؛ فأعرف ما جرى يوم الحادث.

آمل أن أصل إلى تسجيل إلهي، من منظور الطائر، في مكانٍ ما بالمزلقان، أو على الأقل من منظور الدكتور "ثابت"، الأمر كله عائد إلى المنظور، هو أهم من الحقيقة في معظم الأحيان.

الجو بارد. ركبت ميكروباص من شارع النادي، وأسندت رأسي إلى زجاج النافذة مستسلمًا لاهتزازه المريح. أخرجت موبايلي، وأخذت أقلِّب بين منشوراتٍ هنا وهناك، أسحب من أسفل لأعلى بسرعة كبيرة بين أخبار وخواطر ومزاح. أصدقاء وعداوات. معارف سابقين وأحباب كانوا في أحد الأيام مُحتَمَلين. أخبار منهم وعنهم. كلها على الأرجح ليست صحيحة. لا أهتم لأيٍّ منها، لكني لا أحب الاحتمالات. أريد فقط أن أعرف الحقيقة كاملة، ودون شكوك، وهذا ضَربٌ آخر من السذاجة.

تذكرةً للنفس؛ لا يمكنني أن أعرف كل شيء، لا يمكنني أن أعرف بقدر ما أريد أن أعرف، ولا حتى بقدر ما أحتاج أن أعرف. يجب أن أتوقَّف عن القلق بهذا الشأن. ليس هناك ما يمكن أن يفعله الإنسان تجاه عجزه عن المعرفة بشكل عام. ألم يؤمن البشر لهذا السبب؟ ليملؤوا فراغ المعرفة، ويتقبَّلوا لا نهائيَّةَ المجهول؟

حتى تلك التذكرة يساورني شكٌّ مجهول تجاهها، الجملة لها وَقعٌ غير مريح. تبدو كلماتها برَّاقة أكثر من المعتاد، منمَّقة ومُرتَّبة وطنانة. مزيَّفة. لا تبدو كأفكاري. أفكاري لا أصيغها بعبارات قوية كتلك. لعلَّها جملة قرأتها في كتاب

قديم، لكاتب أحمق، وانبهرت بها كالعادة، لن أذكِّر نفسي بها مجدَّدًا، سأنساها.

تلك العادة السخيفة يجب أن أتخلَّص منها بطريقة أو بأخرى. سأتحلَّى يومًا ما بالهدوء اللازم والوقت الكافي لأقتل بداخلي ذلك الكائن الذي يميل للانبهار ببارق الأفكار وقشورها، والعبارات التي تبدو في ظاهرها حكيمة، لكنها تحمل الحمق في باطنها، كتلك الفكرة الساذجة التي كتبتها على ورقة النتيجة، التي لولاها لما وقع حادث القطار قبل أيام.

***

2

ثمة مفترق طرق، به "مزلقان"، ويمرُّ منه قطار الصوامع بمحطة "أول قنطرة"، بمنطقة "أرض الحداد"، بالقرب من "الورَّاق". المنطقة التي لم أرَ بها، منذ كنت طفلًا، أيَّ أنهار أو ترع أو حتى مجاري مائية. فلا أعرف أنَّى لها بقنطرة أولى، وإن كانت القنطرة الأولى وُجِدَت في ذلك التقاطع في أحد الأيام، فبالتأكيد هناك قناطر أخرى، أو قنطرة ثانية على الأقل، وإلا لما وُصفت الأولى بالأولى. ألم تُخلَق الأرقام من البداية لهذا السبب؟ سمَّوا الأول بالأول ليميِّزوه عن الثاني! أين هي القنطرة الثانية إذًا؟ بالتأكيد هُدمت هي الأخرى، ورُدم مجرى الماء من تحتها

حـين امتـلأ بأكيـاس القمامـة، وتشرَّبَـت النفايـات مياهـه، وشُـقَّ طريـق أسـفلتيٌّ بـدلًا منـه.

لـديَّ ثقـة كبـيرة في عشـق الحـي، والبلديـة، والحكومـة كلهـا، للهـدم والـردم والطمـس والتزفيـت ومـدِّ الطـرق عـلى أنقـاض الممـرات المائيـة، لعلهـم كانـوا يظنـون أنهـم سـيمدُّون بـذاك الطريـق الجديـد ممـرًّا عالميًّـا للتجـارة الدوليـة مـن وإلى "الـوراق" ومـا خلفهـا، فيعـبر الممـر بأهلهـا إلى المسـتقبل، ويضعهـم بـين مصـاف المناطـق الراقيـة، ويتبـدل الحـال.

لكـن مـا كان مـن هـذا الطريـق المشـؤوم، ومـن تحتـه النهـر المـردوم، سـوى درب مهـترئ معـدوم، يتقاطـع مـع قضيـب القطـار الـذي هبـط الأسـفلت مـن عـلى جانبيـه بتكـرار المـرور. يصلـح الطريـق الممـدود بالـكاد لمـرور السـائرين وعربـات الخضـار التـي يجرُّهـا بائعوهـا، أمَّـا وإن كان يجرُّهـا حصـان، فمـن الصعـب مرورهـا.

منطقـة نائيـة، ونأيهـا ليـس نـأيَ مسـافة، إنمـا هـو نـأي انفصـال. انفصـال عـن كل مـا هـو ذي صِلـة بالعـالم. إلا أن هـذا لا يعنـي أنهـا ليسـت ذات أهميـة، فـ "أرض الحـداد" وحدهـا، و"الـوراق" العملاقـة مـن خلفهـا، بهـا مـن البـشر مـا يعطيهـا أهميـة كـبرى فـوق مناطـق لا أعدُّهـا مهمَّـة عـلى الإطـلاق، هـذا إن كانـت لكـثرة البـشر في بقعـة مـا، عـلى أي مقيـاس غـير مقيـاسي، أو وفقًـا لأي مـازورة سـوى مـازورتي، أيـة أهميـة.

أتخيَّـل مسـقط رأسي عـلى المزلقـان مـن عـين طائـر. مسـقط ثابـت منـذ أن دُقَّـت فلنـكات القطـار في هـذه الناحيـة، وحتـى اليـوم التـي وقعـت فيـه الحادثـة. تسـجيل رأسي تخيُّـليٌّ مـن عـين ذاك الطائـر، بكامـيرا فـوق المزلقـان لا وجـود لهـا. يظهـر المـارُّون مـن هـذا المسـقط عـلى هيئـة رؤوس وأكتـاف فقـط. كذلـك يبـدو أهـل الأرض لأهـل السـماء عـلى الأرجـح. لـو أن لهـذا التسـجيل، أو لـذاك الطائـر، وجـودًا، لوجـدت مـا أبحـث عنـه، ولملمـت شـتات القطـع المبهمـة. لكـن بالطبـع ليـس كل مـا يتمنـاه المـرء...، ولا أدري فيـم كنـت أفكـر بالعـودة إلى هـذا المـكان مـن الأسـاس.

أقـصى طمـوح أراه مـن العـودة، أن أتمكـن مـن إعـادة ترتيـب الأحـداث زمنيًّـا قبـل الحـادث. حـين كنـت أظـن أني عـلى معرفـة كاملـة بتفاصيـل مـا يدور في هـذا المزلقـان، واحتمالاته، واسـتثناءاته، وبالرغـم مـن سـاذج ظنـي، فاتتنـي بعـض الزوايـا، وحدثـت أبعـد الاحتـمالات عـن تقديـري.

يـا لي مـن خبـير عتيـد في التخطيـط. حيلـة أمـي، وأذكى إخـوتي، إن كان لي إخـوة لم تخـبرني أمـي بهـم. ليتنـي أتخلَّى عـن ذاك النزق، وتلـك الثقـة السـخيفة بـأن لـديَّ أي سـيطرة عـلى أي شيء. عـلى أي حـال، لـن يغـيِّر هـذا الحديـث مـن الأمـر في شيء؛ فـما حـدث قـد حـدث، لكـن وجـب التوبيـخ؛ فالحـدث لم يكـن هيِّنًـا.

***

3

بدأ الأمر منذ ما يزيد عن الشهر.

على قدر خبرتي التي بالَغتُ في تقديرها، فمن المفترض أن الشهر مُدَّة كافية لدراسة المزلقان. شهر بأكمله أقف أمام ذراع بوابة المزلقان عديمة الفائدة، التي ليس بمقدورها أن تمنع أحدًا من تخطِّيها أثناء مرور القطار. أعني إنْ عزم أحدهم على التَّخطِّي. بل كم من أناس رأيتهم يتخطَّونها قبل مرور القطار بثوان.

لكنهم لم يكونوا أبدًا يتخطَّونها مدفوعين بالسبب الذي كان يدور في خلدي، لكن كانوا دومًا مدفوعين بالتَّعجُّل البائس لمسابقة الزمن. أرى في أعينهم كل الأسباب التي قد تدفعهم نحو الحافَّة التي أقف عليها، لكن لم يكن لدى أيٍّ منهم العزم الكافي للقيام بالأمر.

لا أملك أن أقاوم ذلك التعاطف الكبير الذي يعتريني مع كل مَن أراهم بشكل معتاد. تعاطف خاص بعابري المزلقان، بل تعاطف فطري مع المظلومين، أو بالأحرى تعاطُف عام مع البشر أجمعين. شركائي في المظلومية، أصدقائي الموعودين، الذين التقموا معي، بكل اندفاع، ودون تردُّدٍ، طعمًا مُتقَن الصنع، إغواء المغزى، والوصول، والجائزة. أتممنا سويًّا أركان المهزلة. لم ينبِّهنا أسلافنا أن السراب سرابٌ، ولن يتحلَّى أحدنا بجرأة الاعتراف لأخلافنا أننا وقعنا في الفخ.

وقفت بالمزلقان، يتطوَّر التعاطف في داخلي. راقبتهم جميعًا عن كثب. أجريت مسحًا دقيقًا لكل مَن مرَّ بالمزلقان، حتى حصرت منهم الرواد المتكرِّرين، وصنعت لكل فرد منهم ملفًّا وافيًا، حتى العابرون الذين لم أرهم سوى مرة واحدة، كانت لهم في رأسي ملفَّات، لكنها ملفَّات باهتة اللون، صغيرة الحجم، لا يوجد بها ما يميِّزها، هم أشبه بكومبارسات يملؤون الساحة حول أبطال المزلقان. أما الأبطال، فكنت أُجري لهم مسحًا يوميًّا سريعًا لأرى مَن منهم قد تمكَّن من الحضور في الفترة الصباحية، ومن تَسنَّت له العودة في الفترة المسائية، حتى إنني كنت أختلق بعض الأعذار الخاصة لمن يتغيَّب منهم.

حين يغلق عاملُ المزلقان، عم "عشري"، كما ارتأيت تسميته، ذراعَ البوابة، نصطفُّ في صفَّين متقابلين، لا ينظر أحد من الأبطال للآخر، وحتى الكومبارسات، كانوا غاية في الاحترافية. حيث التزم كلٌّ منهم بعدم النظر لزميله الواقف إلى جواره. لَكَم يكون الإنسان احترافيًّا حين لا يعلم أن عليه أن يكون احترافيًّا. كل فرد مشغول بشاغِلةٍ ما، إمَّا في موبايله، أو في رأسه، أو في أفق لا يراه أحد غيره.

ولا يلاحظ أحد ذلك إلا أنا.

أبدأ المسح. أتمعَّن في التسجيل. أملأ الدفاتر. من أقصى اليسار؛ عم "عشري"، رجل قصير بشكل ملحوظ، كرشه ممتلئة ضخمة، يرتدي زيًّا بُنِّيًّا كالحًا، مشيته خمسينية وئيدة، لا تتناسب مع شخص يتعامل مع قطارات من المفترض أن تكون

سريعة. يجلس في كشك متهالك له نافذة لا زجاج لها. في داخل ذلك الكشك البائد، وعلى الطاولة أمامه، كوب شاي بحليب، وبجانبه بضع بقسماطات، يأكلها ببطء مُبلَّلة ببعضٍ ممَّا في الكوب.

على الصف المقابل لي، وقفت بضعة موظفات متكررات، وعمَّال مألوفون، انشغلت بهم في أيام الشهر الأولى، حتى أعطيت كلَّ فرد منهم اسمًا مميَّزًا بحسب ما تمليه ملامح وجهه، ثم خصَّصتُ لكلٍّ منهم وظيفة افتراضية تليق بمظهره وسِنِّه وملابسه.

كانت هناك فتاتان ثلاثينيتان هما الأكثر حضورًا، أولاهما ترتدي خمارًا ضخمًا، والأخرى محجَّبة، أسميتهما "صفية" و"سمية"، وعيَّنتُهما بدار الكتب، تعبران المزلقان يوميًّا لتركبا ميكروباص من أمام محلِّ "التوحيد والنور"، ليصل بهما إلى محطة مترو الإسعاف، لتستقلَّا المترو من هناك إلى محطة باب الخلق حيث مقر دار الكتب.

بجانب الفتاتين، يقف أبٌ أربعيني طويل، وسيمٌ إلى حدٍّ كبير، يرتدي نظارة سميكة، يتشبَّث بيمناه طفل لم يتجاوز السابعة، هو ابنه على الأرجح، يوصله الأب يوميًّا إلى المدرسة؛ خوفًا عليه من عبور المزلقان بمفرده؛ فالطفل يرتدي نظارة يتجاوز سُمكها سُمكَ نظارة الأب؛ ولذلك فإن الدافع لتلك الرحلة اليومية -على الأرجح- لم يكن خوفَ الأب على ابنه فقط، أو حتى ضغط الأم لتطمئنَّ على ابنها؛ بل كان نابعًا

من إحساس دفين بالذنب لدى الأب أنه هو صاحب چينات النظر الضعيف التي استقرَّت في ابنه؛ لذلك كان للأب في اسمه الافتراضي حظٌّ من صبره؛ فصار "أيوبًا"، وللابن في اسمه حظ من ضَعف نظره؛ فبات "يعقوبًا".

حتى الباعة الجائلون المحيطون بالمزلقان، أَلِفتُهم. منهم مَن كان مستقرًّا على ضفَّتَيْ القضبان، ومنهم مَن كان مرتاحًا فوقه، يزيح عربته أو نصبته من فوق المضمار حين يمرُّ القطار، ثم يعيدها بعد المرور؛ "مريم"، بائعة الخضرة، ومشنَّتها الضخمة التي تحرِّكها بصعوبة ودأب كالنمل؛ و"أشرف نصر"، بائع الأطباق الصينية من الفَرْز الثالث. لم يكن لديَّ سبب واضح لتسمية بائع الأطباق بهذا الاسم سوى أني لم أكن أراه إلَّا ويقفز اسم "أشرف نصر" لذهني. تذكرة أخرى للنفس؛ يجب أن أجد مُقتَطَعًا من الوقت في أحد الأيام لأصفِّي ذهني وأتذكَّر المصدر الذي يقفز منه هذا الاسم لعقلي، فأعرف مَن هو "أشرف نصر" الأصلي.

كلما قَلَّت زيارات الماريين للمزلقان؛ قلَّت التفاصيل التي وضعتها لهم، وقلَّت صبغة اللون الذي تصطبغ به ملفاتهم. حتى إن بعضهم لم يكن مَلفُّه يحمل سوى اسم وهيئة فقط، كالأستاذ "ثابت"، الستيني القصير، الذي يبدو عليه كامل الهندام واليقظة بين موجة البشر الممسوخة الحاضرة في المزلقان. والحاج "نعمان" الذي تبدو عليه التخمة ويفضحه وجهه بالحموضة التي ترهق معدته في السابعة صباحًا.

استسغت التمرين والتسجيل، والافتراض والتحليل، حتى أنهيت المهمة التي بدأت بسببها المراقبة، واستقرأت التوقيت المثالي للتنفيذ، وأي اتجاه من اتجاهات القطار يُعدُّ مناسبًا لما أنوي القيام به. وكان القرار في النهاية بأن قطار الوجه البحري هو القطار المنشود، والتوقيت هو أقلُّ التوقيتات ازدحامًا على بوابة المزلقان، حيث لا يوجد أطفال بتاتًا، حتى الزاوية التي كنت سأواجه بها القطار صارت واضحة، زاوية مثالية يقذفني بها القطار في اتجاه الساحة الخالية وينتهي الأمر هناك.

عشوائية محسوبة. خطَّة تشبهني تمامًا؛ لذلك أحببتها، وقرَّرت الشروع في تنفيذها على الفور.

***

4

في يوم التنفيذ...

استيقظت فجرًا في منزل أبي وأمي بشارع الجامع. فتحت باب البلكونة المطِلَّة من الطابق الثاني على الشارع الضيق الذي أقمت فيه كل سنوات نشأتي، والذي أقيم فيه منذ أن عُدتُ إلى القاهرة. كان الشارع نائمًا بكل ما فيه. لم تطأه قدم لتُوقظه بعد. المحال والحوانيت والفرشات والنَّصبات كلها في ثبات، تخيِّم فوق الشارع قُبَّةٌ رَثَّة من قطع أثواب مهترئة،

مُعلَّقة بين صفِّ بيتنا والصف المقابل. قُبَّة ممتدة تحوي تحتها كل شيء.

لا أصوات في المحيط المسموع إلا صوت تلاوة الشيخ "محمد رفعت" المكتوم القادم من غرفة جارنا عم "رجب هوجان"، المقيم بالدور الأرضي بالبيت المجاور لبيتنا. لم أكن أعلم أنه ما زال حيًّا إلَّا حين سمعت صوت التلاوة المكتومة بعد عودتي بأيام، وتذكَّرتُ أبي حين كان يقول إن الشيخ "رفعت" لم يَمُت، وأن عم "هوجان"، نظرًا لما يتمتَّع به من وافر الصحة وشديد الشبه بالمصارع العملاق؛ قد تمكَّن من حبس الشيخ "رفعت" في بيته، كي يقرأ له هو فقط، ولا أحد غيره.

أمر مذهل، تلك القدرة المهولة على استدعاء الذكرى الكاملة بمجرد سماع الصوت أو النغمة الدَّالَّة عليها. لن يتذكر أحد عم "هوجان" حين يسمع صوت الشيخ "محمد رفعت"، إلا بعض من أهل الشارع القدامى، ولن يتذكَّر أحد أبي ونكتته المخيفة بعض الشيء، إلَّا أنا. وبالطبع شعرت بإحباطٍ وتعاطُفٍ مزعج مع عم "هوجان"؛ كونه ما زال يقوم بذلك الطقس طوال تلك السنوات دون أن يَملَّ.

وقفت أنعم بالسكون، وأراقب شقوقًا في أركان سقف البلكونة. وأتعجَّب. كيف، وبعد كل هذه المدة، لم يكن في تلك الأركان أي آثار لخيوط عنكبوت؟ طُفتُ بنظري أقارن كل شيء حولي، بما كان عليه في السابق، حتى تسلَّلَت جدائل نور الفجر الأول من ثقوب القُبَّة الرَّثَّة، واستقرَّت على الأرض الرطبة، فبعَثَت ظلًّا مترامِيًا في الأركان. وأضفَت طابعًا حالمًا على الشارع.

فدخلت وأغلقت البلكونة. تأكَّدتُ أن اليوم هادئ.. غير مُميَّز.. مناسب.

ارتديت أكثر زيٍّ أكرهه؛ سُترة قطنية رمادية ثقيلة لها سوستة من الأمام، ومن تحتها تي-شيرت أسود خفيف. وركبت حذائي الـ "سكيتشرز"، أكثر أحذيتي راحةً على الإطلاق. آثرتُ ألَّا آكل شيئًا؛ فلا حاجة لي بالأكل في يوم كهذا.

وعلى الجدار الملاصق للباب، رأيت نتيجة المطبعة الأميرية معلَّقة، تحمل ورقتها تاريخ خروج أمي من البيت إلى المستشفى، قبل شهور. فقطعت الورقة، وتناوَلتُ قلمًا من على الجزَّامة العالية بجانب الباب، وكتبت على ظهرها فكرتي الساذجة بكل ثقة وتبجُّح...

"من البداية.. لم يكن الإنسان أبدًا بالغباء الكافي
ليتقبَّل الحياة كما هي..."

هراءٌ مَحضٌ. كل الناس يتقبَّلون حياتهم على قدر ما رأيت، وتلك هي الأزمة.

طويت الورقة ووضعتها على الجزَّامة، ثم نزلت. انسللت من بين الدكاكين والنصبات، وتخلَّيتُ عن ظل القُبَّة الرَّثَّة، واستقبلت الشارع الرئيسي. لم تنتبني أيَّةُ مشاعر، لا سلبية ولا إيجابية. كأني كنت في طريقي إلى شراء بعض الطلبات اليومية الاعتيادية. بدأت أتصوَّر الحضور في تلك الساعة عند المزلقان. تخيَّلتُ الأبطال الحاضرين.

أشعر بالأسى تجاه عم "عشري"؛ أن تقع الحادثة في ورديته. الباعة؛ "أشرف نصر" و"مريم"، موجودان بالطبع، لا مفرَّ لهما من رؤية ما سيحدث. "سمية" و"صفية" ما زال على موعد ذهابهما لدار الكتب زمنٌ، لا أظنهما سيكونان هناك. "أيوب" وابنه "يعقوب" بالتأكيد ليسا هناك، كان "يعقوب" هو أكبر هَمِّي، وهو أهمُّ مَن اخترت توقيتي بناءً عليه؛ لا يجب أن يشاهد شيئًا ممَّا سيحدث، لا أريد أن أكون سببًا في خلق صدمة في خيال طفل بأي شكل، فبحسب التوقيت، هو بالتأكيد ما زال نائمًا في انتظار وقت استيقاظه ليذهب ويجلس في فصل مزدحم، بمدرسة حقيرة، تُحاك له فيها صدمة أخرى تلائمه، لكن على الأقل ليس لي يد فيها.

سِرتُ. لم أركب يومها. وعلى الرغم من ذلك، وصلت إلى المزلقان أسرع ممَّا اعتدتُ، كنت أمشي هادئًا دون همٍّ لوقت يؤرِّقني، أو شخص ينتظرني. لم يكن هناك سوى موعد القطار. بدأت أقيِّم المكان في بداية النهار، وملاءمته ليكون نهاية المسار. وبمقارنته بالنهاية التي كنت أتخيَّلها طوال حياتي، فالمكان لا بأس به.

بعد مدة، اتَّجه عم "عشري" ليسحب الحبل المربوط بطرف ذراع البوابة. بدأت أتأمَّل وجوه الحاضرين الذين ازدادوا قليلًا. أخذت أعاينهم واحدًا تلو الآخر، أستحضر ملفَّه، وأزِنُ كمَّ المعلومات فيه، وأحاول التنبؤ بالمستقبل القريب، لا أحد منهم سيبالي بما سيحدث.

بوَقْعٍ كنائسي، بدأت أجراس البوابة ترنُّ عالية. دقَّ قلبي دقَّةً كادت تقنعني بالتراجع، لكني تجاهلتها وتابعت المهمة. أخذ ذراع البوابة يتحرَّك نزولًا كالمقصلة. هل لو كنت اخترت المقصلة لكان الأمر أسهل؟ هل هناك مقاصل متاحة في العالم في يومنا هذا؟ أراهن أني لو بحثت لوجدت إحداها. اصطفَّ الناس على ضفَّتي القضبان. بقوة النملة سحبت "مريم" مشنَّة الخضرة الضخمة، وجرَّ "أشرف نصر" عربته برتابة البغال ليفسح المجال.

دوَّت صافرة القطار عن بُعدٍ قبل أن يظهر في الأفق، تسارَعَت الضربات في صدري، وأنا أقلِّب النظر بين الحضور، لا أبطالَ حاضرون اليوم، كلُّنا كومبارسات. أعرف بعضهم، لكن ليس بقدر ما أعرف أبطالي. أظن أن ذلك كان كافيًا كي لا تتملَّكني الوحشة في أية لحظة. ظهر القطار في الأفق البعيد بعد لحظات، فنظرت نظرة خاطفة في اتجاهه لأحسب بُعده، والوقت المتبقي لوصوله.

انقشعت الأصوات المحيطة كلها من حولي، على كثرتها، ولم يتبقَّ سوى صوت قرع عجلات القطار على شريطيه، بدأ صوته يعلو شيئًا فشيئًا، وأخذ ارتجاج الأرض دوره في زعزعة ثباتي. نظرت إلى موقع قدميَّ، وبدأت أمارس بعض تمارين التَّنفُّس لأتحكَّم في نبضات قلبي. تمارين كنت قد تعلَّمتُها من جلسات اليوجا التي حضرتها قبل سنوات في أمريكا تحت ضغط "فيونا". لكن التمارين لم تؤتِ فَلاحًا، لا خير عاد من "فيونا" وقتها، ولا من تمريناتها في لحظة كهذه.

كان أقرب الحاضرين لي مسافةً هو عم "عشري". صارت دقَّات قلبي تدوِّي كدفوف في استقبال القطار، وخِفتُ أن يسمعها عم "عشري" فيكشف أمري ويفسد خطتي. نظرت في اتجاه الكشك، فرأيته يغمس بقساطة في كوب الشاي بالحليب ولا ينظر ناحيتي من الأساس. توتَّرتُ زيادةً، يبدو أن الخطة على وشك النجاح، كل ما كان ينقصني هو خطوة واحدة للأمام.

العملية مُعقَّدة.

كان عقلي، على مدار سنوات رُشدي، هو أعتى خصومي؛ كيف يمكن لشخص خداع عقله ليفعل ما يؤمن به؟ لا أدري. لكني تعلَّمتُ بالتجربة، أن الإجابة لكل التساؤلات، بلا استثناء، مختبئة بين طيَّات المنطق. المنطق هو أصل كل شيء، ونقطة البداية، والقانون الوحيد الذي يحكم العقل. كنت قد اعتدت، كلَّما تغبَّشَت الرؤية، وتعقَّدَت الأمور، أن أعود إلى أقرب نقطة واضحة، وبتراكم استنتاجات بسيطة، أصلها المنطق، أرسم من تلك النقطة طريقًا أكثر ترتيبًا وأقربَ لما يُرتَجَى حدوثه. وارتضيت أنا وعقلي في كل جدال يقع بيننا أن نحتكم إلى تلك الطريقة... أن نحتكم إلى المنطق.

ويومها، خضنا الجدال مرة أخرى...

***

5

عقـلي كائـن حـي بطبيعتـه، يـرى في الوجـود، مجـرَّد الوجـود، فكـرةً لهـا وجاهتهـا. أمَّـا أنـا، فـأرى في عبثيـة الأشـياء حُجَّـةً أقـوى، أمـا أمـر الوجـود في ذاتـه فقـد فـاق عقـاب "سـيزيف" عقابًـا. فـ "سـيزيف" عـلى أقـل التقديـرات، يحـاول، ويعـرف إخفاقـه القـادم، ولا يتوقـع نجاحـه في أي لحظـة، معادلتـه موزونـة بإحـكام، لا تتغيَّر مدخلاتهـا، ولا تُرتجَـى منهـا مُخرَجـات مختلفـة. أمَّـا أنـا، فـلا أحـاول مثلـه، ومـع ذلـك يفاجئنـي الأمـر في كل مـرة بمعانـاةٍ جديـدةٍ لا داعـي لهـا. "سـيزيف" خطيئتـه المحاولـة، لكـن مـا هـي خطيئـة مَـن لا يحـاول منَّـا؟

ردَّ عـليَّ عقـلي الحُجَّـة بحجـة الوصـول لـ "سـيزيف" السـعيد. أي أننـا بعـد عـدَّة إخفاقـات وآلام ومعانيـات، قـد تصبـح قدرتنـا عـلى التَّحمُّـل أقـوى، ويصـير وقـع المصائـب علينـا أخـفَّ، كـما هـو الأمـر بالنسـبة لـ "سـيزيف"، فبعـد آلاف الرحـلات إلى قمـة الجبـل، سـيصير جسـمه أقـوى، وعضلاتـه الإغريقيـة أكـثر فتـولًا، أقـوى حتى مـمَّا نـراه في تمثالـه، وسـتصبح الصخـرة أخـفَّ، وسـيتحوَّل الأمـر مـن السـخف إلى السـخرية؛ فقـوة الإنسـان الحقيقيـة تكمـن في مرونتـه، وقدرتـه عـلى التأقلـم مـع مـا هـو حولـه؛ ومـن ثـم الترقـي.

وهنـا تدخَّلـتُ لأقاطـع عقـلي، وأحاجيـه بحجَّـةٍ جديـدة؛ فمهـما زادت قـوة تحمُّلنـا سـيظل الأمـر سـخيفًا، ولـن تكـون الأيـام سـوى رحـلات صغـيرة بـين معانـاة لا داعـي لهـا ومحاولـة لا رجـاء

منهـا، فـما الجـدوى مـن تلـك الرحـلات؟ ومـن الاحتـمال والتأقلـم والترقـي؟ مـا الجـدوى مـن أي شيء؟

سكن عقلي بعدها، وانتابني شعور بأني انتصرت.

هل يجعلني انتصاري على عقلي أكثر ذكاءً؟ أم أكثر غباءً؟

جـدال مُجهِـد، دار آلاف المـرات، وبـكل طريقـة ممكنـة، خسرتـه أكـثر مـمَّا ربحتـه. وفي كل مـرة أربحـه، كنـت أمـضي قُدُمًـا في محاولة لإنهـاء السـخف، وأسـير الطريـق إلى أن أصـل إلى المرحلـة الأخـيرة، الخطـوة الملعونـة، التـي، لسـبب خفـيٍّ، لم أتمكـن مـن القيـام بهـا أبـدًا. أظـن أن عـدم تمكُّنـي مـن السـيطرة عـلى قـراري في اللحظـة الأخـيرة، هـو خـطُّ دفـاع أخـير يقـوم عقـلي باسـتخدامه للحفـاظ عـلى حقِّـه في الوجـود في مواجهـة قـوة حُجَجـي، حـين يفشـل في إقناعـي بالمنطـق. وكأنـه يقـدِّم حجَّـةً خفيَّـة لا يَـودُّ إطلاعـي عليهـا، لكنـه واثـق منهـا بشـدة. فينتهـي الأمـر بإخفـاقٍ لا أدري لـه سـببًا. أمـر أقـوى وأعمـق حتـى مـن غريـزة البقـاء.

لكـن هـذه المـرة كان الأمـر أقـربَ مـن كل المـرات. لم يَعُـد هناك شيء ملمـوس للمواصلـة، ولا حتـى طريـق واضـح للوصـول للإخفـاق القـادم، لـن يتحـول أي شيء إلا للأسـوأ. منـذ أن ماتـت أمـي وأنـا أعـرف ذلـك، وعقـلي كذلـك يعـرف؛ ولذلـك لم أخـسر الجـدال تلـك المـرة، كانـت الأيـام السـابقة لتلـك اللحظـة أشـبه بنزهـة للإعـداد للأمـر، نزهـة سـلَّمتني لتلـك اللحظـة.

خطوة أخيرة على قضيب القطار وتنتهي المأساة.

صار القطار على مسافة أمتار، صوته يصمُّ الآذان، ولا ينافسه سوى قرع الطبول في صدري. نظرت مرة أخرى في اتجاهه، وحسبت الزاوية التي تخيَّلتها، فانطلقت الرياح تسبق القطار وتثير غبارًا هائجًا، دخلت إحدى ذَرَّات الغبار في عيني، إلا أني لم أتوانَ، فسحبتُ نَفَسًا عميقًا وانحنيت حتى تخطَّيت ذراع البوابة، ثم اعتدلت وأغلقت عينيَّ، وتقدَّمتُ خطوة، فشعرت بالقضيب يرتجُّ من تحت حذائي المريح، وهنا تملَّكتني نوبة فزع شديدة الوطأة، لكني لم أترك لها قمرة القيادة هذه المرة، عَلَت أنفاسي حتى صارت صريرًا مخيفًا.

وصل الخوف مداه، درجات لم أختبرها من قبل، وكأن كل المرات السابقة كانت اختبارًا، لأعرف إلى أي درجة يمكنني أن أتمادى. خوفي الذي لا يُحتمَل في تلك اللحظة كان لأني أيقنت أني لن أتراجع، حتى عقلي لن يوقفني، وأخذت كل الأشياء تعتمل في قلبي حتى انفجر كل شيء. وصرخت صرخة قوية، دوَّت رغمًا عني، حادَّة، عالية، مستمرة، لا أظنها مسموعة لأحد مقارنةً بصوت صافرة القطار.

لم يبقَ سوى أن يقوم القطار بما يقوم به في العادة...

***

6

لا أدري كم ثانية أغمضت، لكني انتظرت طويلًا، وفي النهاية، صدمني الشيء. غير أنها لم تكن صدمة جسم معدني، بل أقرب إلى دَفعَة، أو أقوى، أشبه بركلة، أطاحت بي، وسحبت القضبان من تحت حذائي المريح. طِرتُ بعيدًا، وصرختي ما زالت تدوِّي دون أمرٍ منِّي، لا أجرؤ حتى على فتح عيني.

انبسطت مُستَقبِلات الألم في جسمي بعد انقباضها؛ فلا ألم. انقشعت نوبة الفزع ببطء. وانتهت الصرخة، فسحبت شهيقًا عاليًا طويلًا أعادني للحياة. ثم فتحت عيني قبل أن أعتدل، وبدأت أعي محيطاتي، النور يظهر ببطء. الأصوات تعود من بعيد. رجال تُوحِّد وتُحَوقِل. نساء تصرخ. كوب شاي بلبن مكسور على الأرض. عم "عشري" يجري ويطلب الستر من الله، الفوضى عارمة على ضفَّتَيْ المزلقان.

اعتدلت وجلست. تسارَعَت الأفكار، ألم أمُت؟ لا يراني أحدٌ من المذعورين. لعلِّي متُّ، وتنتظر روحي شاحنةً إلهية، أو قاطرة سماوية، لتصحبها إلى مثواها التالي. يركض الجميع في الاتجاه الذي برق إليه القطار، حيث طارت جُثَّتي على الأرجح.

نجحت الخطة دون ألمٍ يُذكَر، يا لي من مُخطِّط مُحنَّك!

وقفتُ، وبدأت أتحرَّك ببطء في اتجاه القطار. بدأ القلق يتزايد كلَّما اقتربت من مصدر الأصوات، بدأت أهرول بجانب القضبان، حتى وصلت إلى تجمُّع الناس حول جسدٍ مُلقًى

أرضًا. جسد غير واضح من غابة السيقان. لم أتمكَّن حتى من استبيان ملابسه لأعرف إن كان يخصُّني أم لا.

وقبل أن أتبيَّن هوية الجسد الملقى، أو أفترض النجاح فأفرح. جاءني من بعيدٍ أحد أسخف الرجال الذين قابَلتُ في حياتي. وقف بجانبي، وربَّت على كتفي، وسألني وهو ينظر بفضول في اتجاه الجمع:

- إيه اللي حصل؟!

نظرت له، ثم لنفسي. رآني الرجل السخيف. لمسني الرجل السخيف. فشلت مرة أخرى. نظرت له بإحباط واحتقار ولم أُجِب، فتركني ومشى في اتجاه شخص آخر ليسأله. فزاحَمتُ الواقفين، وخلقت زاوية رؤية من بينهم، حتى رأيت الجثة...

كانت جُثَّة الأستاذ "ثابت".

***

7

تجمهرت الناس حوله. كلٌّ بتحليلٍ عبقري، واقتراح ألمعي. منهم مَن قال إنه تَعثَّر فوقع أمام القطار، وآخر أفتى أنه قفز عامِدًا، هادِفًا التَّخلُّص من حياته، وبأنه يعرفه من المنطقة التي يسكن فيها، وبأن حياته البائسة وزوجته الشمطاء هي التي دفعته لفعل ذلك. وادَّعت امرأة أنها رأت قطَّةً تعبر

المزلقان ورأته يقفز في اتجاهها لينقذها فصدمه القطار بدلًا من القطة، وبأنه بذلك ضمن موقعًا مُميَّزًا في الجنة.

بادر من بين الحشود شيخٌ كبير -سنًّا وحجمًا- بالبحث في جيوب الأستاذ "ثابت" عن هوية، أو أي شيء قد يساعدهم في أي شيء. ورغم اعتراض الحضور على مسِّ الجُثَّة قبل أن تحضر الشرطة أو الإسعاف، وجد الشيخ محفظة الأستاذ "ثابت" الجلدية الأنيقة، وأخرج منها البطاقة. وقال اسمه وعنوانه بصوت جهوري كي يسمعه المتجمهرون؛ لعلَّ بينهم مَن يعرفه:

- "زكي محمد البيلي"... المهنة طبيب... ساكن في 12 شارع الغيث.. العجوزة.

اسمه ليس "ثابت" إذًا كما اقترحتُ. اسمه الحقيقي "زكي". وهو ليس أستاذًا، بل طبيب. يمكنني أن أدعوه بالطبيب، لكني لن أدعوه "زكي". فـ "ثابت" أكثر توصيفًا لهيئته من "زكي".

لم يَردَّ أحد.

دُرتُ أُمعِن النظر بين الوقوف، لم يجفل أحدهم. لم ينظر لي أحد. لم يذكر أحد في تحليله العبقري أني كنت أقف على نفس القضيب، في الجهة المقابلة لطبيب الغَبْرة. إذن فلم يرَ أحد منهم حقيقة ما حدث، كذلك تتَّضح أهمية المنظور، المنظور أهم من الحقيقة. أمَّا أنا فقد أوشكت أن أجمع قطع الحقيقة، لم أكن متأكِّدًا، لكن لا تفسير آخر. أنقذني الطبيب سريع البديهة. قدَّم روحه فداءً لروحي.

لكن كيف؟ هل كان يراقبني دون أن أعلم؟ هل ظهر عليَّ شيء؟ هل كان متبصِّرًا؟ على أي حال لا يهم، فهو لم ينقذني، بل خرَّب خطتي، وأفسد مسعاي.

كيف جرؤ أن يسرق موتي؟!

***

8

لديَّ امتنان خاص لنظام القيادة التلقائية المدموغ في عقلي. يُعيدني إلى المنزل حين أهجر قمرة القيادة في بعض الأحيان. لم تكن المسافة من المزلقان إلى البيت كافيةً لاستيعاب أي شيء. لا أذكر أي شيء. لا أتكبَّد حتى عناء السؤال عن أي شيء. كل ما صَبوتُ إليه هو الوصول لمكان أتمكَّن فيه من الانفراد بنفسي، وغرفتي هي الملاذ الأوحد. أردت أن أغلق المنافذ إلى رأسي، قبل أن تنسلَّ أيٌّ من الأفكار التي بها إلى الخارج، أو تندسَّ أيُّ فكرة دخيلة إليها؛ فبها ما بها. أحمل رأسي فوق كتفي، كصينية من الكؤوس الكريستال، تنقر بعضها بعضًا من أقل حركة.

وصلت إلى الغرفة. خلعت سترتي الرمادية، وحذائي المريح، وهجعت إلى السرير، ثم تلحَّفتُ بلحاف أمي الثقيل، فنمت قبل أن تتسرَّب حرارة جسدي إلى السرير البارد، وقبل أن أطمئنَّ حتى على الكؤوس في رأسي، وما بها.

في اليوم الأول، أيقظتني ثلاثة كوابيس، استفقت منها جميعًا إلى نوبة فزع نموذجية طويلة. أشعر بحَجَرٍ ثقيل عملاق يسحق ضلوعي من تحته، وضيق موجِع بالنَّفَس، وضربات قلب متسارعة. أحاول مرة أخرى مواجهة النوبات بتمارين "فيونا" للتنفس وأنا تحت اللحاف الثقيل، فلا أفلح. فأجاريها حتى تنقشع، وتدبَّ فيَّ الروح مرة أخرى. لا أتذكر "فيونا" الآن إلا حين أحتاج إلى تمارينها، ولا أحتاج إلى تمارينها سوى في الأزمات والمصائب. لن يمرَّ وقت طويل حتى يتحقَّق الارتباط الشرطي، ويسيل لعاب الكلب حين يسمع الجرس، وتصير "فيونا" هي نذير الشؤم والمصائب.

كلما تغلَّبتُ على نوبة من الفزع، كوَّرت اللحاف واحتضنته وكافأت نفسي بالغوص في النوم مرة أخرى؛ فالنوم، على رعبي من كوابيسه، أهوَنُ على عقلي من الانفراد بأفكاره.

وحش ضخم. كرة متشابكة هائلة من الأفكار تجوب السماء فوق سريري. تراكم سنوات وسنوات من تجنُّب المواجهة. لن يخلِّصني منها أحد إلا أنا. وهنا تكمن الأزمة، فالأفكار ديون، لا يمكن تجاهلها، أو نسيانها، أو أن يُسدِّدها أحدٌ نيابة عن أحد. أنا مَن اختلقها، وأنا مَن أعاني منها، وأنا مَن يتوجَّب عليَّ التخلص منها.

حسنًا! قطعتُ وَعدًا أن أتوقف في لحظة الوعي التالية، وأكسر الحلقة المفرغة. لا مكافآت بالنوم مرة أخرى. وحين استيقظت تفرَّستُ في كومة الأفكار المتشابكة فوق سريري،

واخـترت أولى الأفـكار التـي بـرَزَت مـن عـلى أطرافهـا. وأخـيرًا، توصَّلـتُ لإحسـاس أوَّليٍّ بـدائي مفهـوم. بعـد يومـين مـن النـوم واعتـداءات نوبـات الفـزع عـليَّ، لـديَّ إحسـاس يمكـن وصفـه بالكلـمات...

أنا غاضب!

غاضـب أني مـا زلـت هنـا. غاضب أني مـا زلت أعـاني. غاضب لأني مضطـرٌّ أن أتنفـس، وأفكـر، وأواجـه، وأتفاعـل مـرة أخـرى. مضطـر أن أعيـد تكـرار كل المهـام البشريـة اليوميـة. مضطـر أن أشـعر بالألم، وأن أتحملـه. غاضـب لأني سـأجوع؛ وعليـه، سـيتوجب عـليَّ أن آكل، ولـن يتسـنى لي فعـل ذلـك إلا بـأن أقابـل بـشرًا، وحينهـا سـتدور العجلـة مـرة أخـرى؛ سأشـعر بـالأسى لحالهـم، ولحـالي. لا أريـد أن أشـعر بـأي شيء. لا أريـد أن أكـون طرفًـا في هـذا العبـث مـن جديد. تلـك الحلقـة المفرغـة التـي كنـت عـلى وشـك الخـروج منهـا.

لا أريـد أن أكـون ملعونًـا إغريقيًّـا جديـدًا؛ أنـا أذكى مـن كل الملعونـين. أنـا لم أتحـدَّ الآلهـة، لسـت بـذاك الغبـاء. مـاذا فعلـت لأكـون مثلهـم. كنـت عـلى وشـك الخـروج، أدرت العجلـة بنفـسي تلـك المـرة، وكانـت قـوة الطـرد كافيـة لتلفظنـي خارجهـا، لم يكـن ليفتقـدني أحـد، غـير أن الدكتـور "ثابـت" هـو مَـن حظـي بهـذا المخـرج بـدلًا منـي. ركلنـي، حرفيًّـا، ليرحـل هـو وأبقـى أنـا.

أراهـن أنـه لم يخطِّـط مثلـما خطَّطـتُ. لم يعكـف شـهرًا أمـام بوابـة المزلقـان يمـلأ بيانـات الـرواد. أتحـداه أن يبارينـي. كلٌّ بمـا لديـه. فليُشـهِر سـلاحه، وأُشـهِر سـلاحي. يعـرض معاناتـه، وأعـرض

معانـاتي. كتلـك المباريـات الوهميـة التـي يخوضهـا الذكـور في أذهانهـم عـن حجـم أعضائهـم مقارنـةً بأعضـاء أندادهـم، ليُثبـت للعـالم أنـه أكـثر فحولـةً، أو قـوةً، أو اسـتحقاقًا لـكل شيء. أنـا أتحـدَّى الدكتـور "ثابـت" أن يـبرز حجـم مأسـاته، وأُبـرز أنـا حجـم مأسـاتي، ونقيسـهما عـلى مـازورة "سـيزيف" الأزليـة. لا فرصـةَ لديـه للفـوز أمامـي.

أراهـن أنـه لم يكـن يسـعى للأمـر مـن الأسـاس. أهكـذا تسـير الأمـور؟ أتسـعى الأشـياء لمـن لا يسـعى لهـا؟ حتـى المـوت! لا يجـب أن تسـير الأمـور بهـذا الشـكل، وإلا سـأكون أنـا آخـر مَـن يسـعى إليـه المـوت. آه... الدكتـور "ثابـت". يقـرر لي متـى أعيـش ومتـى أمـوت. مَـن يظـن نفسـه؟ يـا لوقاحتـه.

قطَّبتُ جبيني ونمت.

***

9

قمـت بعدهـا بسـاعات عـلى صـدًى أجـوف في معـدتي، وحَلـقٍ يابـس، وصـداع خـارق. هـا هـي متطلبـاتي البشريـة تـبرز مـن جديـد، وتسـوقني إلى الحلقـة مـرة أخـرى. لا مـلاذ.

هـدأ الغضـب قليـلًا. وضعـت قدمـي عـلى الأرض للمـرة الأولى منـذ أيـام، وقفـت فتهاويـت وكـدت أهـوى، فاسـتندت إلى حـرف

السرير حتى تماسكت. ثم بدأت رحلة في أرجاء البيت بحثًا عن قرص أسبرين، لم أجد في صيدلية الحمام، ولا في مكتبة التليفزيون، ولا في أيٍّ من أدراج الجزَّامة. كنت أعرف أين سأجد ما أبحث عنه، لكني كنت أتجنَّب الدخول إلى غرفة أمي قدر المستطاع. يبدو أنه لا مفرَّ مهما حاولت.

دخلت الغرفة دون النظر لأيٍّ من المحيطات، رؤية موضع خطواتي فقط كافية للوصول لكومودينو أمي. وصلت وفتحته، فلطمتني رائحة الكولونيا المعتَّقة، والعود الهندي، و"أبو فاس"، أكوام وأكوام من العقاقير والدهانات. ميَّزتُ بعضًا منها، على قدر ما أذكر كانت براشيمَ لعلاج السكر الذي كان يعاني منه أبي قبل أن يرحل. لا بُدَّ أن يكون معظمها قد أتمَّ عامه العشرين في عتمة ذاك الكومودينو. وبين تلك العقاقير اختبأت علبة سجائر "سوبر"، خبَّأها أبي من أمي، أو خبَّأتها أمي من أبي، لا أدري؛ لذلك السبب تحديدًا لم أرجِّح الدخول إلى مرتع الذكريات. وقبل أن تعتمل بوادر نوبة الحنين في صدري، أو تزيد عدد الدمعات عمَّا يمكن لعيني احتواءه، ظهرت من بين العقاقير ورقة خضراء فيروزية مألوفة، فغالَبتُ الحنين وسحبت الورقة وعلبة السجائر وانطلقت خارج الغرفة بسرعة.

لم أتحقَّق من تاريخ صلاحية الأسبرين، وتناوَلتُ قرصين، ثم انكببت على حوض الحمام وفتحت صنبوره، وأخذت أشرب في كفي حتى ارتويت وامتلأت، وصِرتُ لا أقوى على التَّنفُّس، وبرزت كرشي الصغيرة التي باتت تظهر بشكل متكرر وملحوظ في السنوات الأخيرة رغم نحول جسدي.

وفي طريق العودة إلى غرفتي، وجدت فائض عبوة بسكويت نواعم على طاولة السفرة، فتناولت واحدة وألقيت بها في فمي، وعدت على السرير وأنا ألوكها لَوْكَ الجِمال. وضعت علبة السجائر والأسبرين بجانب الموبايل الكامن على الكومودينو، ثم نظرت إلى الموبايل طويلًا، لفظ آخر شحنة من بطاريته في ساعة مبكِّرة من ليلي الطويل. فكَّرتُ أن أعيد شحنه، لكني تذكرت أنه خيط الاتصال الوحيد الذي سيُمكِّن العالم الخارجي من الوصول لي، سيتصل بي أحدهم من الجامعة أو من أي جهة أخرى. فارتحت لكونه مُغلَقًا دون قرار مني، ولكوني غير مرئي. ثم انطرحت على السرير، أحملق في السقف، أنظر إلى كرة الأفكار المخيفة التي ما زالت تحلِّق فوقي. راقبتها طويلًا حتى انكشف منها طرف هائم لفكرة جديدة، زاوية مختلفة لإحساس جديد...

إنه الذنب!

وخز عميق في صدري لا يمكن تفاديه، كائن يحدِّق في عيني لائمًا، ولا أقوى على النظر له بدوري. نصل يقترب من قلبي، ويخترق ببطء، ولا أملك إلا أن أقبل طعناته؛ فأنا أستحقُّها. طغى الذنب حتى على الغضب.

لم تكن تلك هي النتيجة المرجوَّة ممَّا فعلت، لم يستحقَّ أيٌّ من الحضور في المزلقان مشاهدة ما حدث، أظن أن الذنب مرتبط بفشل الخطة. فلو كانت الخطة قد نجحت لَما اضطررت للتفكير فيما عاناه روَّاد المزلقان؛ فالموتى لا يشعرون

بالذنب. لكني ما زلت حيًّا، لا أملك إلا أن أحزن من أجلهم، ويملأ قلبي الذنب حيالهم. وبعد تفكير عميق، أيقنت أني أشعر بالذنب تجاه الدكتور "ثابت" ذاته. أعلم أنه اختار أن ينقذني بكامل إرادته، لكني كنت سببًا رئيسيًّا في هذا الاختيار. لم يكن ليموت لولا خطتي. بالطبع لم يكن يستحق تلك النهاية.

ماذا فعلت! وجدتني أبكي، وأسِحُّ، وأنوح بلا توقُّفٍ على الدكتور "ثابت"، وما فعلته به. ثم غصت في النوم كمدًا.

***

10

استيقظت هذه المرة مفزوعًا، يخالجني فتات حلم بأن الخطة قد نجحت، أو لعلِّي لم أكن قد استيقظت بشكل كامل، ما زال الحلم في نهايته. لا أدري لماذا يخاف عقلي الباطن من نجاح الخطة لهذه الدرجة، تَبدَّد القلق حين وافى الإدراك عقلي بأنني أحلم، فهدأت.

سمعت نَقرًا خفيفًا بباب الشقة، لكني لم أتحرَّك من مكاني، لم أكن أنتظر أحدًا، فيمكن للعالم أن ينتظر، أو لا ينتظر، لا يهم. لكن النقر عاد بعدها بثوانٍ، فاعتدلت في تأفُّفٍ ولم أقُم على الفور. ألا يجود العالم بتجاهُلي ولو لمرة واحدة؟ الأمر ليس صعبًا، لكن لا تبدو احتمالية حدوث ذلك كبيرة.

قمت أخيرًا. طفوت حتى وصلت للباب، ونظرت من العين السحرية، فرأيت صبيَّ محلِّ الفحم القابع تحت بيتنا، يقف بالباب في أدب شديد، ويحمل في يده صحنًا أبيض مُغطًّى. الأمر ليس هامًّا على الإطلاق كما توقَّعتُ. وقبل أن أقرر أن أتجاهله، شعر هو بالملل من تلقاء نفسه وغادر عتبة بابي. فارتحت وعدت إلى الغرفة في إنهاك شديد من رحلة الباب، ذهابًا إيابًا، وتسلَّمتُ السرير مرة أخرى.

نظرت مُنهَكًا إلى كومة المشاعر المتشابكة فوق رأسي، حدَّقتُ طويلًا، لساعات على الأرجح، حتى رأيت إحساسًا جديدًا يبرز منها متطوِّعًا بثقة ليمسك بتلابيبي، وبالفعل سنحت له الفرصة وتملَّك مني تمامًا. فكرة واحدة، وشعور أوحد صار يجوب أركان المسرح بمفرده هذه المرة...

إنه الفزع!

الفزع أني صِرتُ مُحاصَرًا في هذا العالم السخيف، ولا سبيل للخروج. لطالما كنت مطمئنًّا لفكرة الملاذ الأخير، المهرب الحقيقي، الباب الخلفي الذي سألجأ إليه حين تتعقَّد الأمور وتستعصي على الحل. لكن يبدو أن الأمر ليس بتلك السهولة. بل يبدو أن المخرج لم يَعُد اختيارًا متاحًا بالنسبة لي أنا بالخصوص.

لقد حاولت. حاولت جاهدًا هذه المرة. لم أتراجع. خطوت الخطوة الأخيرة، لكني لم أتمكن من العبور. شعرت بنوبة فزع ضخمة تلوح في الأفق. ضباب كثيف لا أعرف ماذا يخبِّئ في

طيَّاتـه. يتحـرك في اتجاهـي ببـطء وثقـة. لا ملجـأ ولا منجـى مـن الانتظـار. انتظـار الضبـاب أسـوأ مـن حلولـه. تسـمَّرتُ في سريـري، مغلـولًا في أركانـه، قيـودي هـي أفـكاري. كـرة الأفـكار تراقبنـي مـن فـوق السريـر، تتأكـد أننـي لـن أهـرب مـن هـذا القيـد.

ثم غمرني الضباب...

لم يكـن مثـل مـا شـهدت مـن ضبـاب سـابق. لم تنقبـض عضـلاتي أو تتيبَّـس، بـل كانـت مُنهَكـة، مُسـتنفَدة، ضعيفـة. مدفونـة في عمـق رمـال ناعمـة. تـزداد ثِقـلًا في كل لحظـة. أرسـل عقـلي آلاف الرسـائل إلى أطـرافي يأمرهـا بالتحـرك، لكنـه لم يتلـقَّ أيَّ ردٍّ منهـا. شـلل تـام وثبـات مُفجِـع. ثـم اشـتعلت مـن فوقـي كـرة الأفـكار وتضخَّمَـت. تئـزُّ، وترعـد، وتطلـق شررًا يصيـب منـي صائبـة في كل رعـدة.

مـاذا لـو كانـت تلـك هـي الحقيقـة؟ لـو كان قـدري البقـاء في هـذه الحيـاة إلى أبـد الآبديـن؟ هـل سـأتمكن مـن احتـمال هـذا الوضـع مـرة أخـرى؟ مـاذا لـو سـاء الوضـع عـمَّا هـو عليـه؟ هـل يمكـن أن يسـوء؟ علَّمَتنـي التجربـة أن الوضـع دائمًـا مـا يجـد طريقـة مـا ليصـير أسـوأ مـمَّا كان عليـه. مـاذا لـو بقيـت إلى الأبـد في هـذه العـالم؟ في هـذا البيـت؟ في هـذا السريـر؟ مـاذا لـو غصـت أكـثر وأكـثر في هـذه الحالـة؟ وظلـت أطـرافي تتجاهـل أوامـر عقـلي بالتَّحـرُّك، وظللـت قابعًـا هنـا في مضجعـي؟ إلى متى سيسـتمر الأمر؟ بـدأت دفقـات غزيـرة مـن الدمـوع تتجمـع في عينـي، وتنسـاب مـن

جانبيهـا إلى فـودَيَّ فتتخلَّلهـما عـبر طريـق متعـرِّجٍ لتسـقي الوسـادة مـن تحتـي، حتـى ابتلَّـت الوسـادة، فأعلنـت استسـلامي التـام.

بكيـت مُخلِصًـا دون صـوت. وتمنَّيـتُ المـوت. أكاد أقسـم أن النوبـة قـد اسـتمرَّت لسـاعات، وفي عتمـة الألم، وعـبر أضـواء خافتـة تتـلألأ بـين دموعـي، رأيـت هيئـة جسـدين يسـيران عـن بُعـد، حاولـت أن أصرخ مسـتجيرًا بهـما، فلـم يخـرج صـوتي، كـدت أختنـق. إلا أن أحدهـما التفـت لي، وبـدا أنـه عرفنـي. وعرفتـه. إنـه الدكتـور "ثابـت". ومـا أن رآني الطبيـب الواثـق، حتـى ربَّـت عـلى كتـف رفيقـه الآخـر وأشـار ناحيتـي، فالتفـت الرفيـق... وكان أبي.

وقـف أبي بكامـل هيبتـه، في زيِّـه الرسـمي الـذي كان يرتديـه في المطبعـة، ثـم هـشَّ فـور أن رآني وبـشَّ. لكنـه نظـر لكـرة الرعـد والـشرز الجاثمـة فـوق رأسي ثـم عبـس قَلِقًـا، وحـاول أن يقـترب منـي كأنـه سـيحاول أن يسـحبني مـن تحتهـا، فأمسـك الدكتـور "ثابـت" بيـده ليمنعـه مـن الاقـتراب. فاسـتجاب أبي ولم يقـترب.

أيقنـت وقتهـا أنـه الهـلاك، وفي أعمـق نقطـة مـن المحيـط المظلـم الـذي ابتلعنـي، سـمعت صـوت الشـيخ "محمـد رفعـت"، يُبعَـث مـن الصمـت، بحشرجـة ضبـط البَـثِّ النابـع مـن الراديـو، فأغمضـت عينـي لأحـاول أن آنـس إلى الصـوت وأبقيـه في ذهنـي قـدر الاسـتطاعة، وأحبسـه معـي في الحلقـة التـي لا أرى لهـا مَخرجًـا. ومـا كانـت سـوى ثـوانٍ حتـى ارتفـع صـوت الشـيخ "محمـد رفعـت"، ليعلـو فـوق أزيـز الكـرة، وصـوت الأفـكار، اخـترق

صوت الشيخ "رفعت" كلَّ الأجواء، وبدَّد الوحشة، ورأيت الكرة تنقشع وتتحلَّل شيئًا فشيئًا، وشعرت بالألم يغادر أطرافي ببطء.

ألقيت نظرة خاطفة في اتجاه أبي فرأيته ينظر لي بابتسامة مُطَمئِنَة، ثم أومأ والتفت وتأبَّط ذراع الدكتور "ثابت"، وتابَعَا سيرهما.

***

11

فتحت عينيَّ. وجدتني غارقًا في بِركة من العرق والدموع. سكنت قليلًا، أمهلت الألم كلَّ الوقت ليفارق أطرافي ببطء، حاولت تحريك يديَّ، فقرأت فيهما الاستجابة، ثم رِجليَّ، فلمحتُ فيهما الحركة. اعتدلت وجلست على طرف السرير، ثم وقفت وأخذت أبتعد عن السرير قدر المستطاع، أتخبَّط، أستند لكل جدار، أتعكَّز على كل قطعة أثاث. وصلت إلى الصالة، ودون تفكير توجَّهتُ للبلكونة المطِلَّة على الشارع، وفتحتها وخرجت لأتنفَّس.

برد منعش. ظلام مُحبَّب. نسمات هواء باردة كأنها سحاب يتخلَّلني، ويملأ صدري راحةً. وقفت أنظر إلى الشارع الخالي، متعلِّقًا بشباك عم "رجب هوجان" المغلق بالدور الأرضي، ثم أغمضت عيني واستسلمت لصوت الشيخ المنقذ الصادر من

فتحات الشيش. يمكنني أن أستمع إليه حتى تقوم الساعة دون أن أملَّ.

فتحت عيني مرة أخرى، ورفعت رأسي، فرأيت بُرصًا ضخمًا متشبِّثًا بسقف البلكونة، يتحدَّى الجاذبية دون مجهود. كان غاية في الثبات والسكون. لم أقتل حشرةً منذ ما يزيد عن العشر سنوات، لم أكن أبدًا مرتاحًا لتَواجُد الحشرات من حولي، لكني لم أجد الحاجة لقتلها أبدًا. ولسبب غير معلوم، يتوحَّد الإنسان في لحظات الأزمة مع أقرب الكائنات من حوله، شعرت برابط وطيد بيني وبين البُرص، الكائن الوحيد في محيطي، يتنفس نفس الهواء، وتتخلَّل رئتيه نفس السحابة الطيبة. ومَن يدري؟ فقد يكون مستمتعًا بصوت الشيخ "محمد رفعت" هو الآخر. لعله خرج هو أيضًا في هذا الجو البارد هرَبًا من أزمة طاحنة كانت لتودي به لو لم يخرج.

يبدو أنه لن يتحرك إلا تحت تأثير خارجي، لن يقترب مني، ولن أقترب منه، ستبقى المسافة بيننا كما هي، لن يقتحم أحدنا عالَمَ الآخر بغير إذن، أمَّا الصُّحبة، والأُنس، والمعيَّة، فهي مكفولة ومحفوظة، دون إلزام مثقل بأي شروط سوى الاحترام المتبادل، كل ما يجب على أحدنا القيام به هو أن يكون في البلكونة. كيف تَمكَّن بُرصٌ أبكم من تحقيق شروط الصحبة المثالية في ظرف ثوانٍ؟

يمكنني أن أخبر طبيبي الأخير أني نفَّذتُ اقتراحه بتربية حيوان أليف، صار لي بُرصٌ صديق، أسميته "أشرف"، "أشرف نصر"، لا

يشبه البرص بائع الأطباق الصينية بالمزلقان البتة، لكن لنفس السبب الخفي، يذكّرني كلاهما بشخص اسمه "أشرف نصر". صار واجبًا عليَّ، بشكل طارئ الآن، أن أصفّي ذهني وأتذكر مَن هو صاحب اسم "أشرف نصر" الحقيقي.

عدت أنظر للشارع، وأجوب عربات قطار الأفكار في رأسي. لم أعُد خائفًا منها. فكَّرتُ أن أجد الرابط بين الدكتور "ثابت" وأبي. لكني كنت مُنهَكًا؛ فلم أجهد عقلي. تأمَّلتُ طويلًا، حاولت أن أرسم ملامح مشاعري تجاه الدكتور "ثابت"، فلم يكن الغضب حاضرًا فيها كما كان في السابق. وكان الذنب ما زال موجودًا، لكنه لم يكن مسيطرًا عليَّ هو الآخر. وجدتني ممتَنًّا بعض الشيء، وحزينًا بشدة لما آلت إليه الأمور. لكنني، وفوق كل شيء، كنت مملوءًا بفضول قاتل تجاه طبيبي المنقذ. مَن يكون؟ وماذا رأى فيَّ؟ هل أفشت ملامحي له ما يدور في ذهني؟

أمر عجيب! انخرطت كثيرًا في تحليل كل مَن هم حولي، وقراءة انطباعات وجوههم ونظراتهم، وأظن أني صِرتُ خبيرًا في ذلك، وصارت وجوه الناس صفحات مفتوحة بالنسبة لي. كنتُ أتعجب من عجز البشر عن رؤية أمور واضحة في التعامل فيما بينهم، كفُلان المفضوح بكذبه من مجرد نظرة في عينيه، وعِلّان المتيَّم بحب إحداهن من مجرد ابتسامة تغلب على وجهه في حضرتها. غُصت تمامًا في تحليل مَن أعرف ومَن لا أعرف. حتى إنني نسيت أن لي وجهًا، وله انطباعات، ويمكن لأحدهم، كالدكتور "ثابت"، إن امتلك ما يكفي من الفراسة، أن يقرأ فيها شيئًا ممَّا يدور في عقلي.

لا أظن أن لديَّ ما يكفي من المشاعر التي قد تشي بأيٍّ ممَّا في خوالجي. لكن مَن يدري، لعلها موجودة. أو لعل مشاعري فاضت بشكل ما في الشهر الأخير، أو حتى في يوم تنفيذ الخطة فقط. بالتأكيد ظهر على وجهي شيء ما. لا أنكر أن الحدث كان جَلَلًا، حتى بالنسبة لشخص مثلي.

الآن، وقد انقشع غضبي من الدكتور "ثابت" بشكل جزئي، أظن أني أتفهَّم دوافعه. لكني يجب أن أرى الأمر بعينه، ومن منظوره...

يجب أن أعود للمزلقان.

***

12

وفي المزلقان، وقفت في الموضع الذي كان يقف فيه الدكتور "ثابت". بدا كل شيء على حال غير الذي تركته. عُلِّقَت كاميرات جديدة في أركان المزلقان، لكنها ليست الكاميرات التي كنت أبحث عنها. ولن تحوي التسجيل الذي كنت أودُّ أن أراه.

أمَّا في الكشك، فاختفى عم "عشري"، وحلَّ محله موظف آخر، أصغر سِنًّا. وعند البوابة، ازداد عدد الحراس. تجدَّدَت البوابة ذاتها وتَبدَّل ذراعها المتهالك، وصار بإمكانها منع الرُّوَّاد من تجاوزها، التجاوز ليس مستحيلًا بعدُ، لكن بوجود

هـذا العـدد مـن الحـرس، كان التجـاوز صعبًـا، صـار هـذا المنفـذ للعبـور مـن بوابـة الحيـاة معروفًـا، ولـه حُـرَّاس يمنعـون النـاس مـن اسـتخدامه.

وقفـت أتأمَّـل المزلقـان، المارِّيـن والواقفـين والباعـة، تابعتهـم عـسى أن أرى مَـن رأى الحـادث، أو أن يـراني هـو، فنتحـادث، وأفهـم منـه شـيئًا لم أفهمـه مـن قبـل. بعـد سـاعة، كنـت مُنهَـكًا تمامًـا. ظهـر بعـض مـن الـرواد القدامـى. "صفيـة" وصديقتهـا "سـمية"، أثنـاء ذهابهـما إلى دار الكتـب عـلى الأرجـح. لا أظـن أنهـما ميَّزتـاني عـن أي فـرد مـن الوقـوف. أقـصى مـا حظيـت بـه مـن وقـوفي هـو نظـرة قصـيرة مـن الحـاج "نعـمان" الـذي لم تفـارق علامـات الإحسـاس بالحموضـة وجهـه بعـدُ. نظـر لي حتـى بـدا أنـه ميَّـزني، فأومـأ لي، وأومـأت لـه، ثـم نظـر لأفقـه، وكأنـه يبحـث في ذهنـه عـن حـلٍّ ناجـع للحموضـة. وددت لـو أن أخـبره أن الحموضـة المزمنـة التـي تكسـو ملامحـه ليسـت بالـضرورة نتـاج اختيـارات صبيانيـة هوجـاء مـن عشـاء الليلـة الماضيـة، لكنهـا قـد تنبـئ بضعـف في القلـب، إلا أننـي لا أملـك هـذا القـدر مـن الطاقـة.

شـعرت بيـأس شـديد. لم يَبـدُ المزلقـان كمـكان شـهد جريمـة مُفجِعـة منـذ أيـام، أيـن الغربـان؟ والرايـات السـود؟ أيـن الوجـوه المتَّشِـحة بالحـزن؟ وأيـن النـواح؟ وإن كان قـد بـدأ، فلـماذا توقَّـف؟ أيـن المحقِّقـون وقسـم الأدِلَّـة الجنائيـة؟ لمْ يَشـكَّ أحـدٌ منهـم بضلوعـي في الأمـر، لم تسـتدعِني الشرطـة للتحقيـق، لم تأخـذ أقـوال أيٍّ مِنَّـا؛ نحـن مَـن شـهدنا الحادثـة، نحـن روَّاد المزلقـان.

أظـن أن تحديـث البوابـة، واختفـاء عـم "عـشري" وكـوب الشـاي بالحليـب الخـاص بـه، هـو أقـصى إجـراء تـمَّ اتخـاذه عـلى إثـر الحادثـة، لا أدري مـا هـي الحكمـة ومـا هـو الخـير العائـد مـن إجـراء كهـذا. وللحظـة شـعرت بذنـب زائـد تجـاه عـم "عـشري"، فعـلى الأقـل الدكتـور "ثابـت" كان يعـرف مـا يجـري، وانخـرط في الأمـر طواعيـةً، لكـن عـم "عـشري" لم يعلـم بمـا حـدث إلا بعـد أن انكـسر كـوب الشـاي بالحليـب.

آه.. الدكتـور "ثابـت". كل الطـرق تـؤول إليـه. لم أتمكـن مـن احتـواء الفضـول بداخـلي. وتأكَّـدتُ أنـه لا مجـال للتحـرك مـن هذه النقطـة إلا إذا تابعـت خيـط الدكتـور "ثابـت". مَـن هـو؟ ومـن أيـن أتى؟ يجـب أن أعـرف المزيـد عمَّـن أنقـذني فأشـقاني. وتذكـرت الشـيخ الضخـم الـذي أخـرج البطاقـة مـن جيبـه...

"زكي محمد البيلي"، طبيب، 12 شارع الغيث بالعجوزة.

ألقيـت نظـرة أخـيرة عـلى المزلقـان. ليـس هـذا هـو المـكان الـذي يمكننـي أن أبـدأ منـه. ودَّعـتُ الـرواد وأنـا عـلى يقـين أني لـن أعـود لهـذا المـكان مـرة أخـرى في حيـاتي. لا أريـد أن أنـسى أيًّـا مـمَّا حـدث، لكنـي إن عزمـت عـلى معـاودة المحاولـة، لـن تكـون هنـا، لـن يكـون القطـار هـو الوسـيلة لمـا أسـعى إليـه، كنـتُ مخطئًـا في اختيـاره مـن البدايـة.

خطـأ سـاذج، تكـرَّرَت سـذاجاتي... حتـمًا سـأتخلص منهـا بطريقة أو بأخـرى. لا أكـترث لمـا قـد يصيـب العـالم مـن بعـدي. لكنـي أظـنُّ أن العـالم بـه مـا يكفـي مـن العطـب والبـؤس، ولا أريـد أن أتحمَّـل

مسؤولية ولو قدر بسيط من البؤس لأي كائن حي، فنفسي تحمل ما يكفي من الثقل.

غادرت المزلقان بالقرب من منتصف النهار، وأنا عازم على الذهاب للعجوزة بحثًا عن بعض الإجابات. لكن في طريقي إلى موقف الميكروباص، توقَّفتُ أمام محل التوحيد والنور للحظات، تغبَّشَت عيناي، وزمجرت أمعائي عاليًا، وبدأ رأسي في الدوران، أعلن الجسد اعتراضه على رحلة العجوزة، فاستسلمت لقرار العودة إلى البيت كي آكل وأستريح.

يمكن للدكتور "ثابت" أن ينتظر.

***

13

اشتريت عبوة بسكويت "نواعم"، وركبت الميكروباص عائدًا إلى البيت في شارع الجامع. أخذت أتناول البسكويت ببطء، أضع واحدة في فمي ولا أمضغها، أتركها تذبل وتذوب من تلقاء نفسها. هواية كانت لي في صغري. لم أترك فرصة منذ أن عدت للقاهرة إلا وابتعت فيها عبوة "نواعم"، وتتبَّعتُ بها كل ما تسنَّى لي أن أتذكره من سنواتي الأولى هنا.

وأعجبتني اللعبة فقرَّرت الإقامة في بيت أمي وأبي في شارع الجامع؛ لأزيد من فرص التذكر، وأغوص فيها، وأعيش معها

أيامي الأخيرة. ذكريات كثيرة، وجروح قديمة، تلذَّذتُ بتحسُّسها، وأحببت وخز الألم، أضفى الألم عليَّ إحساسًا غريبًا بالأمان، بأن الماضي لم يكن كائنًا خرافيًّا من صُنع خيالي، وتلك الجروح هي الدليل الوحيد أن ما حدث قد حدث.

بعد رحيل أمي كنت عازمًا على بيع البيت، والبقاء في مكان لا يعرفني فيه أحد، حتى تنتهي الحكاية. إلا أني حين عدت إلى البيت كي أجلب بعض الأوراق اللازمة لإتمام إجراءات الدفن، وجدتني لا أريد أن أغادر. كنت أظن أني لن أطيق البقاء فيه للحظة واحدة من دونها، لكني شعرت بشيء ما لم أشعر به منذ زمن بعيد؛ أن هذا البيت هو المكان الوحيد الذي لن يلفظني خارجه، أن البيت ذاته لديه رغبة كي أبقى، ذرَّات الهواء، وانبعاثات الجدران، وطاقة الأشياء، سكنت كلها بمجرد عودتي، اتصلت جميعها بشكل ما مع حواسي، ووجدتني أخلع حذائي وجوربي، وأخطو حافيًا على بلاط الأروقة، أستمد يقينًا ما من الزغب الراقد على الأرض، الزغب الذي قد يكون في أحد الأيام انتثر من جسد أمي.

كان القرار واضحًا وقتها: البقاء في البيت حتى ألحق بأمي، أيًّا ما كان توقيت حدوث هذا.

اقترب الميكروباص من ناصية شارع الجامع، وأنا أمتصُّ البسكويتة الأخيرة. نزلت وقد تحسَّنَت حالتي نسبيًّا، لم أعد أشعر بالدوار على الأقل.

موقـف الميكروبـاص يتوسَّـط شـارع النـادي. شـارع عمومـي واسـع، يُعـدُّ هـو آخـر الشـوارع التـي يمكـن للسـيارات المـرور منهـا. الرصيـف الأيـسر لـه هـو الخـط الفاصـل بـين عالَمَـيْن: العـالم الأول عـن يمينـه، وهـو العـالم ذو الصِّلـة، حيـث الأحيـاء الأرقـى نسـبيًّا وبدايـة التخطيـط العمـراني المقبـول، والعـالم الثـاني عـن يسـاره، وهـو عـالم المنـيرة المنفضـل، حيـث السـوق والشـوارع المتفرعـة الضيقـة التـي تسـع بالـكاد للـمارة، مثـل شـارع الجامـع.

كنـت أظـن منـذ طفولتـي أن المنـيرة الشرقيـة، ليسـت مجـرد اسـم، بـل إنهـا تحمـل في قلبهـا سـحر الـشرق الحقيقـي، وبـأن شـيوخ المنطقـة وكبـار المعلِّمـين والبائعـين وأصحـاب الدكاكـين فيهـا، قـد توصَّلـوا لاتفـاق فيـما بينهـم، أن يتعمَّـدوا فـرش النصبـات الضخمـة، المغطَّـاة بالملابـس والعبـاءات والمفروشـات ومـا شـابهها، بطـول رصيـف الشـاطئ الأيـسر لشـارع النـادي؛ بهـدف إخفـاء مداخـل شـوارع المنـيرة الضيقـة، والدفـاع عنهـا، وإضفـاء جانـب مـن الغمـوض عليهـا، وإبقـاء سـحر الـشرق فيهـا.

ومـع مـرور الزمـن، ازداد البائعـون، وتضخَّمَـت نصبـات الملابـس عـلى واجهـة المنـيرة، وضاقـت مداخـل المنطقـة أكـثر وأكـثر حتـى اختفـت تمامًـا. فحـين عُـدتُ للمـرة الأولى بعـد غيـاب سـنوات، توقَّفـتُ أتأمَّـل جـدارًا ضخـمًا مـن الملابـس والمفروشـات، بارتفـاع ثلاثـة أو أربعـة طوابـق، يغطـي وجـه المنـيرة بأكملهـا، اسـتغرقني الأمـر بضـع دقائـق كي أتبـيَّن مـكان المدخـل المـؤدي لشـارع الجامـع. حتـى وجدتـه بـين نصبتـين ضخمتـين مملوءتـين بالعبـاءات السـوداء اللامعـة التـي تتـدلَّى مـن كل سـنتيمتر، وتُشـكِّل كيانًـا واحـدًا في

هيئـة سـتارة حريريـة ناعمـة يجـب أن أزيـح شِـقَّيها كي أدخـل إلى عـالم السـحر.

أَمَـا وقـد صِرتُ مُقيـمًا في بيـت أمـي بشـارع الجامـع منذ شـهور؛ بِـتُّ أعـرف مدخـل شـارع الجامـع غيبًـا، وصـارت فقـرة إزاحـة العبـاءات التـي تقـوم بعمـل السـتائر، فقـرةً مُحبَّبـة، وتحضـيرًا نفسـيًّا مطلوبًـا لدخـول عـالم المنـيرة الشرقيـة.

***

14

أَولَيـتُ ظهـري لموقـف الميكروبـاص، وعـبرت شـارع النـادي. رميـت ورقـة النواعـم في الشـارع. تغـيُّر آخـر طـرأ عـليَّ منـذ أن سـكنت المنـيرة، صِرتُ لا أعبـأ بالبحـث عـن سِـلال المهمـلات كي أرمـي زبـالاتي الصغـيرة. أعنـي أني بحثـت في البدايـة لكنـي لم أجـد، فلـم أشـغل بـالي بالأمـر كثـيرًا.

فرَقـتُ شِـقَّي السـتارة ومـررتُ مـن بوابـة العبـاءات، وخرجـت مـن الجهـة الأخـرى، اسـتقبلتني رائحـة الطعميـة مـن مقـلاة محـل الدمياطـي في التقاطُـع الأول مـن شـارع الجامـع مـع شـارع سـوق الفاكهـة. واصلـت السـير في شـارع الجامـع متخطِّيًـا سـوق الفاكهـة قاصِـدًا بيتنـا.

بعد التقاطع، وعلى الجهة اليسرى من الشارع، أي الجهة المقابلة لبيتنا، كانت هناك مدرسة صغيرة. لكنها اختفت بشكل مفاجئ، وبدلًا منها نُصِبَت ثلاث نصبات كانت كفيلة بتقليص عرض الشارع من خمسة أمتار إلى مترين، يكفيان بالكاد لمرور المشترين والعابرين.

على الناصية تقع أولى النصبات الثلاث. نصبة ضخمة لبيع الملابس الداخلية النسائية، للسيدات صاحبات النهود العارمة، والمؤخِّرات الهائمة. يقف عليها شابٌّ عشريني، ينادي طوال النهار بعبارات وقحة ومُحبَّبة لدى المارة؛ مثل: "كلوتات وسنتيالات إكس إكس لارش.. وسيبي الراجل اللي مابيقدَّرش".

وبحكم مداولة المرور من الشارع، عرفت أن بضاعته لا تقتصر على تلك المقاسات الكبيرة فقط، فلديه مقاسات أصغر، لكن لسببٍ ما، أظن أني أعرفه، فتلك هي المقاسات الرائجة في هذا التقاطع، أو في المنيرة بأكملها إن صحَّ التعبير.

أمَّا النصبة الثانية، والمجاورة للشاب الوقح، هي لامرأة ضخمة البنيان، تجلس على كرسي حمَّام، وحولها مجموعة لا بأس بها من طشوت الجبن القريش ناصع البياض، الذي أنوي أن أشتري منه يومًا ما فور أن أتخلَّى عن تحفُّظي على نظافة الأشياء بشكل عام في المنيرة، والذي أظن أني على وشك أن أفقده، من منطلق عدم جدواه، فليست النظافة هي التي ستنقذني ممَّا يمكن أن يحدث للعالم.

النصبة الثالثة هي عربة كوسة كبيرة لفتى صغير، يجلس أمام أكوام الكوسة التي ترصُّها له أمُّه في الصباح الباكر وتتركه ليبيعها هناك، وتذهب هي لتبيع بعربة أخرى في مكان آخر، ثم تأتي لتُقِلَّه في نهاية النهار ويرحلا سويًّا. في أوائل أيامي في الشارع بعد العودة، لاحظت بجانب العربة درجات قديمة تؤدِّي لمستوى أدنى من مستوى الشارع، وحين دقَّقتُ النظر رأيت خلف الفتى بوابة حديدية وفوقها لافتة بعنوان "مدرسة نجيب محفوظ". وفهمت أن المدرسة لم تختفِ، بل توارت خلف النصبات الثلاث. ثلاث نصبات فقط كانت كفيلة بإخفاء مدرسة بأكملها. لا أذكر أن المدرسة كانت صغيرةً لهذا الحد. هي -دون شكٍّ- أصغر مدرسة رأيتها في حياتي. حتى مدخلها وبوابتها كانت بثلاث درجات للأسفل. وكأن الشارع والعالم من حولها قد اعتلاها بطبقات، وسنوات.

أمَّا الصف الأيمن من الشارع، فبيتنا هو الثالث فيه، يسبقنا في هذا الصف بيتان، بهما محلان. أولهما، على الناصية، محل عصير قصب. وثانيهما محل لبيع الذهب الصيني. أما بيتنا، ففيه محل لبيع الفحم ومستلزمات الشيشة. كانت تملكه زوجة صديق أبي وشريكه السابق، عم "فرج"، وكانت تملك معه بيتنا، باستثناء شقتنا. وحين مات عم "فرج"، تولَّت الزوجة إدارة المحل وكل أعمالها بنفسها. إلى أن تزوَّجَت بنتاها، وتفرَّغَت هي تمامًا لإدارة المحل وما بقي من أعمال عائلتها.

اسمها "هانم"، وكان الناس يدعونها الست "هانم".

في ليلة عودتي إلى البيت لجلب الأوراق اللازمة للدفن، قابلتها. كانت تجلس أمام المحل، بجانب أشولة الفحم، بعباءة سوداء فضفاضة، ومنديل رأس أخضر مشدود على استدارة رأسها العملاق. ولما رأتني قامت من مجلسها بصعوبة، وترَكَت لَيَّ الشيشة واحتضنتني، واعتذرت عن التقصير في زيارة أمي بالمستشفى. ثم عزَّتني وسألتني عن موعد ومكان الدفن والعزاء، فأجبتها. وحين ظننت أن ذاك الودَّ لم يكن سوى بروتوكول يستوجبه فضُّ المجالس، فاجأتني الست "هانم" بحضور مراسم الدفن، والوقوف بجانبي في وقت الدعاء لها. وأذهلتني مرة أخرى حين رأيتها تقف طوال مدَّة أرباع العزاء ليلًا، فهي امرأة عجوز على كل هذا المجهود.

غاية الأمر أني صِرتُ مضطرًّا لإلقاء السلام وتبادُل بعض الكلمات معها مع كل دخول أو خروج.

***

15

مررت من أمام محل الفحم. كنت في حالةٍ يُرثى لها، أنقذني بسكويت "نواعم" حقًّا، لكني بالكاد أستطيع الوقوف، ألقيت السلام على الست "هانم"، ولم أسمع حتى إن كانت قد ردَّت

أم لا، ثم صعدت إلى شقتنا بالدور الثاني مستندًا إلى الدرابزين المتهالك، عبر السُّلَّم الضيق الذي عزَّز الدُّوار في رأسي.

دخلت الشقة، ومنها إلى المطبخ مباشرة أبحث عن أي طعام، لا يوجد بالثلاجة ما يمكن اعتباره طعامًا؛ بعض عبوات الطحينة والبابا غنوج من فائض المشويات التي طلبتها في الأسابيع الماضية من حاتي "الحرم الحسيني"، عبوة لبن، كيس مخلل، وقرصا طعمية يابسان، وطبق فول تَشقَّق قوامه، أتذكَّر أني ابتعته منذ شهر على أقرب تقدير.

سحبت عبوة اللبن وخرجت إلى الصالة. جلست أمام التليفزيون المغلق، أشرب من العبوة مباشرةً، وأشاهد انعكاسي في مرآة الجهاز السوداء. تحدَّاني انعكاسي أن أضع عبوة اللبن وأتوقَّف عن الأكل فينتهي الأمر بفعل الجوع، أعرف أنه ليس بإمكاني أن أموت جوعًا، ستمنعني غريزة البقاء. غريزة سخيفة. دمغ في عقلي يتحكَّم في عضلاتي بدلًا مني في أوقات الخطر، يتحكَّم فيَّ بهدف إبقائي على قيد الحياة، حتى وإن كنت لا أودُّ أن أبقى.

لا يمكنني أن أحبس أنفاسي حتى أموت. لا يمكنني أن أتوقف عن الأكل أو الشرب حتى أموت. وكل ذلك لكي أبقى، فقط أبقى، كي أظل جزءًا من ذاك العالم الممسوخ. لا لأن أحيا نسخة أخرى، بجودة أعلى، فلا غريزة لذلك. عليَّ أن أعمل بنفسي، وبشكل إرادي، لأحصل على تلك الجودة، والتي لن تتحقَّق على الأرجح.

تجرَّعتُ دفقة أخرى من عبوة اللبن ثم وضعته أمامي. فسمعت جرس الباب. قمت بصعوبة، وفتحت الباب فرأيت الست "هانم" تقف متعكِّزةً على عكَّاز ذي رأس فضِّيٍّ على هيئة رأس أسد، وفي يدها الأخرى برج من الأطباق الميلامين؛ طبقان يغطيهما طبقان، مرصوصةً جميعًا بشكل أفقي فوق بعضها البعض، تحملها الست بمهارة شديدة، لا أدري كيف ارتقت بهم الدَّرَج إلى الدور الثاني.

نظرت لي في أسًى وهي تتفحَّصني:

- ماكلتش من إمتى يا "عيسى"؟

تلجلجْتُ، فتابعَت كلامها:

- بَعتّ لك أكل من يومين مع الواد بس شكلك كنت نايم...
- ... آه!
- بايـن عليك هفتان.. خد كل ونام شوية وابقى عدِّي عليَّا لما تصحى!

ناولتني الأطباق والتفتت تتعكَّز دون انتظار الرد، وعكَفَت على النزول حتى ابتلعتها السلالم في هدوء. انتظرت حتى غابت عن المشهد تمامًا، وأغلقت الباب. عدت إلى موقعي أمام التليفزيون، ووضعت الأطباق على طاولة الصالون أمامي. ثم رفعت الطبقين اللَّذين يغطِّيان الطبقين، فارتفعت منهما سحابة بخار، ولما انقشعت، رأيت طبقًا من اللوبيا ذات العين السوداء، وطبقًا آخر به أرز بالشعرية وربع فرخة. ابتسمت

وارتحت لفكرة الطبيخ الساخن، ولاستكمال شريط الحنين الذي لا ينتهي، والذي انضمَّت له اللوبيا ذات العين السوداء وبجدارة. جاءت الذكرى تحمل ومضات من هيئة أمي وهي أصغر سنًّا، قبل أن يصاحبها المرض، قبل أن أسافر، وقبل أن يفارق أبي الحياة.

ذهبت إلى المطبخ لأحضر ملعقة، ثم عُدت لأجلس مرة أخرى أمام انعكاسي في المرآة السوداء. ما الذي أوحى لها أن تهديني تلك الوجبة؟ وأن تستشعر حاجتي للنوم؟

في الانعكاس، وللمرة الأولى منذ ما يقرب من عام، لاحظت وجهي. لم أستمع إلى أي تعليق بخصوص هيئتي أو ما يوحي باختلافها منذ ما يقرب من العام. الآن رأيتني، صِرتُ أكبرَ، أبدو في منتصف الأربعينيات، وأنا لم تنتصف ثلاثينياتي بعد. نَمَت لحيتي شعثاء للدرجة التي توحي بإهمال صاحبها، لا بمسعاه للأناقة كالعُرف السائد في العالم هذه الأيام. طال شَعري وتلبَّد، ولولا نعومته وسواده المعتم، لاتَّهَمني الناس بالتسول. أهكذا كنت أبدو في الشهور الأخيرة حين كنت أذهب إلى الجامعة؟ أهكذا كان يراني طلابي وأساتذتي وزملائي؟ يا له من أمر رائع. لعله كان صادِمًا لهم بما يكفي. لعله سبَّب لهم بعض الارتباك.

لَكَم كانت هيئتي أليقَ من هذه الهيئة في بنسلڤانيا!

***

16

في بنسلڤانيا قضيت ما قارب العشر سنوات. في البداية أقمت كحاصل على منحة بالجامعة، هذا بالطبع وفقًا لخطة وخطوات محسوبة، رسمتها مع الأستاذ "سليمان" تفصيلًا. وبفضل علاقات ومعارف له بالجامعة في مصر، وأصدقاء قدامى له في أمريكا؛ كنتُ أنا الوافد الوحيد من مصر.

لا أحد يعرفني، ولا أعرف أحدًا.

وهناك، انبهرت بكل التفاصيل الصغيرة؛ الجو، المباني، المساحات الخضراء، الهواء، الناس، الدكاترة، كيف يعمل كل شيء بكفاءة، وبطريقة فعَّالة، كل شخص، وكل ماكينة، وكل مساحة، وكل مبنى، وكل غرفة، كل شيء مُستَغَلٌّ وله هدف، أو هناك سبب من وجوده في موقعه. كل فرد يقوم بعمله فقط، لا أكثر ولا أقلَّ، وكيف يُظهر هذا المبدأ الصورة الكبرى للنظام على أنه فعَّال 100%.

ولم يكن هناك مَن أشاركه هذا الانبهار سوى الأستاذ "سليمان"، فكنتُ أرسل له أخباري، وتعليقاتي، وكل ما أجده جديدًا ومُلهِمًا، ونتناقش فيه على قدر ما يتَّسع لنا من وقت، فكان بدوره يحذرني من الانبهار بقشور الأمور وإغفال جوهرها.

وبالفعل قَلَّ الانبهار؛ فالوقت له مفعول السحر، اختفى الإعجاب بالتفاصيل الساذجة بمرور الوقت، وبدأت أستفيق. راحت السَّكرة وجاءت الفكرة.

بدأت ألقي بالًا لكل كلمة تُقال، والمعنى الحقيقي وراءها. كل شيء يتمُّ دراسته، والمغزى من تدريسه. صرت أشكُّ في كل شيء، أنقد وأتذمَّر من كل الأمور طوال الوقت. لكن دون أن أفوِّت فرصة للتَّعلُّم أو الانخراط، حسب نصيحة الأستاذ. لكن هذا كله دون أصدقاء حقيقيين، كان هناك بعض الزملاء بالطبع، لكن قضاء أكثر من عامين دون أصدقاء ليس بالأمر السهل.

تغيَّر كل ذلك فور أن قابلت "فيونا". كانت تعمل على الماچيستير الخاص بها في نفس الوقت. وكنت أنا على وشك إنهاء الماچيستير الخاص بي، كنت أسبقها بشهور، وكان تعارُفنا في البداية بهدف أكاديمي، لكن لسبب ما، لا أعرفه، بَدَت مهتمَّةً بي. لم أتمكن من تحديد إن كان هذا الاهتمام إعجابًا حقيقيًّا أم مجرد ارتياح عادي، لأنني لم أكن أملك أي مهارة في التعامل مع البنات. فضلًا عن أنني -كأي شخص كانت علاقاته العاطفية قبل تلك اللحظة صفرًا- لم أكن معتادًا أن أشعر باهتمام أي بنت، أو أن أسمع إطراءات بخصوص شكلي أو خِفَّة ظِلِّي. ولفرط ارتباكي من مشاعري الجديدة كلِّيًّا، واعتزازي الشديد بها؛ لم أحكِ حتى للأستاذ "سليمان" عنها. كانت أحاسيس خاصَّةً ونقيَّة، لا أريد أن يعرف عنها أحد؛ فاحتفظت بها لنفسي.

وقعت في غرام "فيونا" بالطبع. كانت تجسيدًا حيًّا لكل شيء من الممكن أن أقع في حبه، شكلًا وموضوعًا؛ ذكية، وملَّاحة، وخفيفة. حضورها الطاغي كان كفيلًا بأن يمحو أي فرد موجود في محيطها. طاقتها أكبر من أي شيء آخر. حتى إنني في بعض الأوقات كنت أُغفِل وجود أفراد آخرين حولنا في جلسات "نادي الجدل".

كانت تحب الجدل والنقاش إلى الدرجة التي جعلتها تُقدِم على إنشاء ناديها الدائم لجلسات الجدال المنظمة والعشوائية، الفردية والثنائية والجماعية، وأسمته "نادي الجدل"، وكانت تقيم جلساته في حديقة الجامعة. وصار النادي هو أهمَّ ما في حياتها، أهم حتى من الرسالة.

وفي جلساتي الثنائية معها، التي كنَّا نَدَّعي أنها جزء من جلسات "نادي الجدل" كي نحظى بدقائق إضافية منفردة معًا، تَناقَشنا في كل شيء، مهما كانت حساسيته أو خطورته. كنا نتناقش في أهمية ما نفعله في الجامعة، ومدى فاعليته وتأثيره. في الواجب والممكن والمتاح. وفيما سنفعله بعد ذلك. نحاول تحليل استخدام الجامعة، والبلد، والنظام البطريركي كله لنا، ولأمثالي أنا بالخصوص، بصفتي شخصًا عربيًّا مدعومًا من جامعة بنسلڤانيا لكي تكتمل صورتها المثالية، التي هي جزء من صورة البلاد ككل. وباكتمال تلك الصورة يتمكن النظام من استمراره في التنامي.

نتجادل فنختلف؛ هل كان من المفترض أن أستغلَّ تلك الفرصة لكي أستفيد من هذا النظام بشكل شخصي قدر الاستطاعة، ثم أعود لبلادي لأنشر بدوري تلك الاستفادة قدر الاستطاعة؟ أم أن الأصحَّ هو أن أرفض إعطائهم تلك الشرعية التي يكتسبونها من مجرد وجودي؟ مع العلم أني إن رفضت، فباستطاعتهم أن يجدوا ألف شخص من عيِّنتي، تكتمل به الصورة، ولا يسبِّب لهم هذا الارتباك الذي قد أسبِّبه.

كانت ذكيَّةً ومُبهِرَة في كل الأوقات، علَّمتني ما ادَّعت أنه "لغة الجسد"، وكيف يمكنني أن أتحكَّم فيمن أتحدَّث إليهم بمجرد وضعية جلوسي وحركات يدي ونظراتي. ثم أجبرتني على حضور بعض جلسات اليوجا؛ لأتدرب على كيفية التحكم في معدل ضربات قلبي، بمجرد تنظيم أنفاسي وتوجيه أفكاري، وذلك لاحتواء نوبات القلق والفزع، التي لم تكن قد واتتني قبل أن أقابلها قطُّ.

وبالطبع لم أنجح في أيٍّ من تلك التمرينات، لكني كنت مُتيَّمًا.

يجدر بالذكر أن الأمر لم يكن بتلك الأفلاطونية، لم يكن حضورها الطاغي ونقاشاتها المثيرة هو منبع كل الإعجاب، فبخلاف الهالة التي كانت تحاوطها، لا يمكنني أن أُغفِل انبهاري بالجسد الممتلئ، والصدر الناهض، والعجيزة الباهرة.

طوبى للفتيات الربيلات الرجراجات، وكل مَن كنت أجدهن أكثر إثارة في سِنِي فتوَّتي، لكني لم أقِرَّ بحبي لهنَّ إلا حين وقعت، ودون مقاومة، في حب "فيونا".

بعد شهور، حصلت على ماچيستير في الفلسفة، وبدأت رحلتي إلى الدكتوراه، وكنت على وشك إنهائها، والحصول على عمل ثابت بالجامعة، لولا ما حدث لـ "فيونا"، والذي بدأ بعده منزلق الانهيار. انخرطت مع "فيونا" فطالني ما طالني، وانتهى بي الأمر مطرودًا من الجامعة.

مررتُ بعدها بشهور من الاكتئاب الحاد، حاولت فيها الطعن في قرار الجامعة أو الالتحاق بأي جامعة أخرى لإتمام الرسالة، لكن السيف كان قد سبق العذل، وصار الأمر مستحيلًا؛ فاستسلمت لرحلة مهينة عبر سلسلة طويلة من الوظائف، أدنى بكثير ممَّا كنت أطمح إليه، عملت فيها كالبغال في انتظار أمرٍ لم أكن أعلمه، حتى جاءتني الرسالة بمرض أمي.

عدت للقاهرة وانضممت لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة الأوروبية بالقاهرة، كباحثٍ مساعد لأحد الدكاترة المهووسين بالأكاديميين العائدين من أمريكا، بصرف النظر عن مستواهم. كل ما كان عليَّ فعله هو أن أدَّعي أنني لم أُطرَد من الجامعة، وأني أجَّلتُ مناقشة الدكتوراه بدعوى مرض أمي. كانت خطوة العمل بالجامعة الأوروبية بالقاهرة بدافع لوچيستي بحت. فلا بُدَّ لي من وظيفة أساعد بها في نفقات علاج أمي، وأنفق منها على متطلَّباتي البشرية المِلَّة. لو كان لديَّ مصدر آخر للدخل،

أو أمتلك أي مدخَّرات من سنوات إقامتي بأمريكا؛ لَما أقدمت على الالتحاق بتلك الوظيفة البغيضة. يحوم حول عقلي حزن دائم بسبب سنوات وفرص ضائعة في أمريكا بلا جدوى، لكن العزاء الأوحد أنه لا جدوى من أي سنين كنت سأعيشها، هنا أو هناك.

لا أذكر كم أمضيت من وقتٍ في الجامعة الأوروبية منذ أن عدت إلى القاهرة وحتى تلك اللحظة، ما يقارب العام على الأرجح، أذكر فقط أني كنت أذهب بانتظام، ولم أغِب سوى في بضع أيام لم أتمكَّن فيها من أن أبرح جوار أمي، لحضور جلسة كيماوية صباحية أو إتمام بعض أوراق الحكومة الخاصة بالعلاج. فبخلاف هذا، كنت معيدًا ملتزِمًا، أحظى بإطراءات حارة من "أحمد عاكف" رئيس القسم. جُلُّ ما أذكره من تلك الفترة أنها كانت ذات أحداث خارجية عادية، أما بداخلي فكانت شهورًا أثقل ممَّا اعتدت.

تعتمل في صدري صراعات خفية، وانفجارات داخلية لم يتسنَّ لي الإفصاح عنها، هيئتي الخارجية وكل التعبيرات والردود والأمور الحسية لم تكن تخرج بمعرفتي، كنت على دراية تامة بكل ما يدور، وبكل كلمة قُلتها، وبكل خطوة خطوتها، لكنها لم تكن مني. نما لديَّ حرص خفي كان يجبرني ألَّا أسمح لأي شذرة ممَّا يدور في رأسي أن تخرج، وكان ذلك في مقابل ألَّا يتسرَّب أي شعور خارجي إلى نفسي. ذلك بالطبع باستثناء تلك اللحظات التي كنت أقضيها بصحبة أمي. كانت أمي هي آخر من أملك تجاههم مشاعر حقيقية بالحياة، وآخر خيوط اتصالي بالعالم.

أمـي هـي أمـي. لا تحـب كل مـا أفعلـه، لكنهـا تُباركـه دومًـا، ولا تفقـد الأمـل منـي أبـدًا، يعجبهـا وجـودي ولا يعجبهـا حـالي. أنـا، عـلى حـدٍّ وصفهـا، أعظـم أبطالهـا، وتجسـيد عملهـا الطيـب في الأرض. يـا للمفارقـة السـخيفة! أنـا تجسـيدٌ حـيٌّ لعمـل شـخص بديـع مثـل أمـي، تظـن أننـي أَقْيَـم مـا قدَّمَـت هـي للعـالم. أنـا البائـس الـذي أراهـا هـي آخـر أسـاطير السـابقين، وأحـد آخـر العمالقـة عـلى وجـه الأرض، كـم أكـره أن أكـون قـد خيَّبـتُ ظنَّهـا، لكـن مـا باليـد حيلـة.

منـذ أن تلقَّيـتُ الرسـالة بأنهـا مريضـة، وبـأن عـودتي إلى مـصر ضروريـة؛ وأنـا أعلـم أن النهايـة قـد اقتربَـت، وبـأني عائـد لأشـهد نهايـة عهـد العمالقـة. لم أكـن أريـد أن أعيـش في حيـاة بـلا عمالقـة، خصوصًـا في وجـود أقـزام مثـل "أحمـد عاكـف".

***

17

الدكتـور "أحمـد عاكـف". رئيـس قسـم الفلسـفة في الجامعـة الأوروبيـة. هـو، فيـما أظـن، أكـثر مَـن قابلـت مـن البـشر زهـوًا بنفسـه، وأقلُّهـم ثقافـة. الفقاعـة التـي حاكهـا بمهـارة وحـاوط بهـا نفسـه، هـي أعظـم إنجازاتـه، وهـي التـي حلَّقَـت بـه لتلـك المكانـة، واسـتقرَّت بـه عـلى قمـة هـرم قسـم الفلسـفة بالجامعـة الأوروبيـة

بالقاهـرة. مـا زال قصـور رؤيـة البـشر وقلَّـة الفراسـة فيهـم يبهـرني في بعـض الأحيـان. ألم يـرَ أحـد ممَّـن هـم حولـه الجهـلَ الناضـحَ مـن عينيـه؟ ألم يستشِـفَّ أحـدٌ منهـم قـدر الادِّعـاء في كل جملـة يقولهـا؟

قادتنـي الظـروف أن أكـون مسـاعِدَه المبـاشر والأوحـد في تدريـس مادتـه، وتحوَّلَـت الأمـور بسرعـة لكـوني أقـوم بمعظـم الأعـمال الخاصـة بـشرح المـادة للطلبـة نيابـةً عنـه، بدايـة مـن الـرد عـلى أسـئلتهم واستفسـاراتهم، واسـتلام نتائـج الاختبـارات منهـم عـلى الإنترنـت، وتصحيحهـا، وتقييمهـا، ونـشر درجاتهـا، وحتـى تنظيـم ملفَّـات المحـاضرات وتقسـيمات المنهـج، التـي كانـت كلهـا محفوظـة عـلى الإنترنـت بملـف "جوجـل درايـف" مشـترك بينـي وبينـه، ولا أحـد سـوانا، والـذي كان غايـة في العشـوائية قبـل أن أقـوم بترتيبـه لـه.

وكان لي في هـذا الملـف المشـترك مَـلاذٌ مُحبَّـب، ألجـأ إليـه في أوقـات الفـراغ، ملـف فرعـي كان يحـوي رسـائل الماچيسـتير والدكتـوراه التـي ناقـش، أو سـيناقش، فيهـا "أحمـد عاكـف" طلبـةً لـه بالجامعـة هنـا، أو في جامعـات أخـرى. لا أظـن أنـه كان يعلـم بأنـه أعطـاني إمكانيـة الوصـول إلى هـذا الملـف الفرعـي حـين شـارك معـي الملـف الرئيـسي في بدايـة عملـي؛ فهـو ليـس بالخبـير الأفضـل في التعامـل مـع التكنولوچيـا؛ ولذلـك لم أقـم بتغيـير أي شيء في هـذا الملـف الفرعـي بالخصـوص؛ خوفًـا مـن أن يلاحـظ ذلـك. وكنـت أغـوص في الملـف، مسـتطردًا في القـراءة والمقارنـة بـين مـا يقدِّمـه الطلبـة هنـا ومـا كان مطلوبًـا منـي تقديمـه في جامعـة بنسـلڤانيا،

وكنت أنبهر في بعض الأحيان من الجودة التي يقدِّمها بعض الطلبة هنا، وأنخرط معهم أكثر لأعرف في أي جامعة يدرسون، وأين انتهى المطاف بهؤلاء الطلبة والمعيدين.

بعد شهور من السباحة في كنز الأوراق البحثية والرسائل الذي وقعتُ عليه، فوجئت بأن الملف الفرعي اختفى من على "جوجل درايف" المشترك بيني وبين "أحمد عاكف"، وكأنه فطن أخيرًا إلى أن لديَّ القدرة للولوج عليه، فقام بتعديل الإعدادات لإخفائه عني مجدَّدًا.

ومع الوقت، تحوَّلت معاملته لي من الأمان الكامل إلى الارتياب المغلَّف بابتسامته السَّمِجة، كنت أعلم أن هذا التحول آتٍ دون شكٍّ، لا مفرَّ من أن يرى في عينَيَّ عميقَ احتقاري له. كان من المنطقي أن يرتاب مني، بل ويكرهني؛ ويكره حقيقة أني أرى لُبَّه الأجوف، وحواشيه الهشَّة. بات متوجِّسًا مني طيلة الوقت، كلما رآني كان يشعر بأني بججت صدره، وكشفت أمره، وعرفت عنه ما لا يعرفه أحد.

وفي المقابل، لم أحاول أن أخفي مشاعري تجاهه؛ فالأمر لا يستحق اهتمامًا أكبر من ذاك، رجل جاهل ومُدَّعٍ وحسب، فما أكثر هؤلاء، كل ما عليَّ فِعلُه هو تجنُّبه، وظننت أن الأمر قد انتهى عند إقرار فشلنا في احترام أحدنا للآخر.

إلا أنه بعدها بأيام طلب حضوري لمكتبه ليسألني عن أحوالي. لم يكن يعلم هو، أو أي شخص غيره، بموت أمي، ولا حتى بمرضها لشهور قبل ذلك، فأيام غيابي عن الجامعة كانت

بلا ذِكرٍ لأسباب بعينها. أبدى "عاكف" يومها إعجابه بعظيم مجهودي فيما أقدِّم من ترتيبات في الملفات، وبمساعداتي التي أقدِّمها له في شرح ما يمكن أن أشرحه من المادة، ثم رماني بعدها بـ "لكن" الجابَّة لما قبلها، حيث أبدى قلقه من شرودي، وانعزالي عن الزملاء، وعدم اندماجي -على حدِّ قوله- مع "أسرتنا"، وبدأ يسألني عن أحوالي الشخصية وعمَّا إذا كانت لديَّ أزمات "في البيت"، وعن سبب تأخُّري في الزواج.

حاولت أن أتخلَّص من أسئلته المستَفِزَّة بأكبر قدر من اللباقة. فكنت وقتها، ما زلت، في حاجة للأجر الزهيد الذي كنت أتقاضاه من الجامعة ذات الصيت الذائع. ولولا تلك الحاجة، لكنت واجهته برأيي الكامل فيه. لكني يومها ابتلعت فوقيته وتعديه، وتابعت الإيماءة بإيماءة حتى انتهت كل تحليلاته الساذجة لحالي، واختتم حديثه باقتراح لولبي:

- فكَّرت تروح لدكتور نفسي؟ أنا ممكن أرشح لك دكتورة كويسة...

فعلًا! "أحمد عاكف" يرشح لي أنا طبيبًا نفسيًّا! يا لها من صفاقة. ماذا يعرف هذا الإمَّعة عن العلاج النفسي؟ يقترح العلاج النفسي عليَّ أنا! يا لها من جرأة. باعي مع الأطباء النفسيين أطول بكثير من عدد الساعات التي قضاها هو على منصة الجامعة يطنطن فيها لطلبته عن مكانته وأهميته، وعن زملائه في إنجلترا الذين كانوا يعدُّونه فيلسوف هذا الزمان. وعلى قدر الغضب الذي كان يعتمل في صدري، إلا أنني رأيت

في سؤاله مَخرَجًا مثاليًّا من النقاش، فابتسمت ابتسامة واسعة، كمنت في داخلها كل ما لديَّ من احتقار له، ثم قلت:

- عمري.. لكن أنا حاسس فعلًا إني لازم أشوف دكتور نفسي.. أكيد هارتاح جدًّا لو رحت لدكتور نفسي.. خصوصًا لو من طرف حضرتك!

انتفخ "أحمد عاكف" وانتشى، وانجعص والتوى، وكاد يقفز في الهواء زهوًا، وأعطاني رقم طبيبة نفسية في المعادي، كانت على الأرجح أحد أصدقائه.

على أي حال، لم أكن أنوي العودة إلى الجامعة بعد ذاك الحديث، فتركته ينتصر، وخرجت من مكتبه دون حتى أن أحاول حفظ اسم أو رقم الطبيبة الموعودة. كنت أظن أن خطَّة المزلقان ستنجح ولن أضطر إلى رؤية طَلَّته اللزجة مرة أخرى، أما وأني فشلت في مسعاي، وما زلت حيًّا أُرزَق، فعلى الأرجح سأعود لأراه مرة أخرى. لكن ليس الآن، يجب أن أستمع لنصيحة أول طبيب نفسي قابلته في حياتي، في آخر زيارة لي معه، قبل أن يعتزل المهنة ويتركني في العراء. أخبرني طبيبي الأول أن أتعامل مع كل أمر على حِدَة، ولا أنشغل بكل الأمور في ذات الوقت، لا أحد يرغب في نوبات قلق إضافية لا داعي لها.

حسنًا إذًا. أوَّلًا، اللوبياء. ثم الخروج إلى العجوزة، ولندع أمر "احمد عاكف" لوقت لاحق.

***

18

تناولت الملعقة الأولى من خليط الأرز باللوبياء، وقطعت نسيلة من ربع الفرخة الذهبية، وشرعت في المضغ بهدوء وبطء. أتأمَّل انعكاسي على المرآة السوداء بصعوبة. حاولت أن أتذكر المرة الأخيرة التي استحممت فيها، أسبوعًا، أو اثنين، أمرٌ غير مقبول حتى في هذا الجو البارد، إلا أنه غير مهم، مَلمَح زائف آخر لن يُجدي أو يضُرَّ. لكني عازم على الذهاب إلى العنوان، إلى بيت الدكتور "ثابت". قد أضطرُّ لمقابلة بعض البشر، قد أحتاج أن أعرف منهم بعض الأمور. لن يتكلم معي أحد بالاحترام الكافي وأنا على هذه الهيئة. رفعت يدي وتشمَّمتُ منبتَ ذراعي، لا أظن أن هذه الرائحة ستسعفني أيضًا في الحديث مع الناس.

أنهيت طبق الأرز، ونصف طبق اللوبياء، وأجهزت على الفخذ فقط من الورك، وتشرَّبتُ كل ما حملته الوجبة إليَّ من حنين. ثم قُمتُ ممتلئًا، بحال أفضل، تكاد كرشي الصغيرة أن تنفجر. فلا هذه هي الكمية التي آكلها في العادة، ولا تلك هي الأنواع التي أحبها من الطعام. ولا يعني هذا أن لي من الطعام ما أعتبره من المفضَّلات أو من المحظورات أيضًا. الأكل مَلمَحٌ آخر من الحياة، لكنه ضروري، يجبرني جسدي على القيام به كرهًا.

في المطبخ، غسلت كوبًا زجاجيًّا، ثم شطفته جيدًا، ونشفته بمنديل ورقي. إن أردتُ كوبًا مثاليًّا من الشاي، لا يمكن أن

يتبقَّى في الكوب أي آثار من الصابون. تركت الماء يغلي في برادنا القديم، ثم لقَّمتُ الشاي، وأسقطته في البراد ليغلي مع الماء لبعض الدقائق.

في عامي الأول بجامعة القاهرة، فصَّل لي أبي مكتبة، ونصبها في غرفتي، وقام بدهانها باللون البني الداكن المحبَّب له. وفي غضون سنوات دراستي امتلأت المكتبة مع الوقت بكتب لا حصر لها، كان نصفها من مصروف يدي، والنصف الآخر، أي تلك الكتب الفخمة ذات الغلاف الصلب والكعب الأنيق، فكانت مُستعارةً من مكتبة الأستاذ "سليمان". وفي صدر الرَّفِّ الأوسط استقرت صورة متوسطة الحجم لأبي مع صديقه عم "فرج"، يتوسَّطهما الأستاذ "سليمان"، يقفون في المطبعة، ويلفُّ أحدهم ذراعه حول كتف الآخر، ويضحكون في أقرب صورة أعرفها للسعادة المطلقة. كان لون خشب المكتبة هو المرجع الدائم للون الشاي المثالي بالنسبة لي. في بنسلڤانيا كنت أستحضر لون المكتبة من الذاكرة لأصنع كوبًا من الشاي، لكني وقد عدت للغرفة، وعادت المكتبة على مسافة ذراع من محل نومي؛ صارت المقارنة سهلة.

صببتُ الشاي، وأخذت الكوب إلى الغرفة ورفعته بجانب المكتبة لأتأكَّد من تطابُق الألوان، ثم ذهبت به للحمام كي أستحم.

الشاي هو الامتياز الأوحد الذي لم أتخلَّص من تعلُّقي به، الملمح الإنساني الوحيد الذي أراه أساسيًّا، ولا أحب أن يسلبه

أحدٌ مني، غير أني أخشى أن يعرف العالم بأهميته، فيقرِّر القائمون على الأمور الالتواء على بعض القوانين والتصريفات، فيصير الحصول على كوب من الشاي يتطلَّب مني مجهودًا أكبر من غلي بعض الجرامات من الماء.

لا أحب القهوة، ولا أكرهها، أراها أداةً نفعيَّة، مجرد وسيلة تحفيز، تحملك على فعل الأشياء مهما كانت حالتك المزاجية. أما الشاي فأمره مختلف. الشاي صاحب سحر، هو غاية في ذاته، يفعل الأشياء بنفسه، تخشع له الأفكار. تستقر له أحوال العقل. يعيد تصريف آليات العمل بداخلك، كأنك عُدتَ كما كان الإنسان حين بدأ الخلق. في طفولتي، كنت أتعجَّب لقول أمي إن الحياة ما هي إلا فترات بين كوب شاي والكوب الذي يليه، وأنا الذي لم أكن أطيق شرب رشفةً واحدة منه وقتها. لكن لحظة أن مسَّني سحر الشاي وأنا في الخامسة عشرة، آمنت بصحيح قول أمي، وأيقنت أنه مهما كانت قدرة أعتى فرد فينا على السباحة لمسافات واسعة، فلا بُدَّ له، بين الحين والآخر، من كوب شاي، يستريح عنده ليواصل السباحة.

أخذت حمَّامًا دافئًا، أعاد ما تبقَّى من أمور مبعثرة في جسدي إلى نصابها، ثم خرجت وقد أنهيت كوب الشاي. صِرتُ إنسانًا أفضل. ارتديت ملابس نظيفة، تشبه إلى حدٍّ كبير هيئة الملابس التي خلعت، وحين تأكَّدتُ أن حالي تسمح بالخروج، نزلت.

عسى أن تتركني الست "هانم" لأرحل دون عَطَلة.

***

19

في طريق نزولي، وجدت باب شقتها مفتوحًا. حاولت التسلل من أمام الباب لعلها لا تراني حين أمُرُّ. لا أملك سببًا واضحًا للهرب، لكني لست جاهِزًا بما يكفي لأخوض حوارًا معها عن أي شيء ممَّا سبق أو طرأ على حياتي. ونظرًا لما قدَّمَته هي بيمناها من ودٍّ، أو من طعام بالأصحِّ؛ فعليَّ أن أتقبَّل ما ستأخذه بيسراها من إجابات دون أن أحرجها أو أصدَّها؛ لذا آثرت الهرب.

ودون أدنى مفاجأة، نادت عليَّ في ثقة فور أن ظهر ظلي على عتبة بابها. وقفت ونظرت إلى الداخل، كانت تجلس في صدر الصالة وفي يدها عكازها ذو رأس الأسد الفضي، مرتاحة على مقعد وثير ضخم مبطَّن بطبقات وطبقات من المفارش ومُطعَّم في زواياه بقطع من الإسفنج المهترئ.

ادَّعيتُ ادعاءً ساذجًا، وبأداء تمثيلي ضعيف أني لم أرها، فتغاضت عن سوء قدرتي على التمثيل، ودعتني للدخول، فدخلت:

- تسلم إيديكي الأكل جميل.. هاغسل الأطباق وأنزِّلها لحضرتك بكرة.
- ألف هنا يا حبيب خالتك.. ما تتعبش نفسك!

أشارت لي بالجلوس عن يمينها، فجلست. صمتت للحظات وأخذت تتفرَّس فيَّ. صمتُّ طويلًا وأنا أداول النظر بينها وبين الأرض، حتى استشعرت الغرابة، فقطعت الصمت:

- أؤمريني يا خالتي!
- ما استغناش.. ده كل حبايبك موصِّيينِّي أوصل لك السلام...
- حبايبي!
- كل اللي كانوا في العزا.. واللي ماعرفوش ييجوا.. بيكلموني يسألوا عليك.. ماعهُمْش رقمك وعايزين يطمنوا عليك..
- ...
- ... ألا انت رقمك كام؟

تلعثمت، فكذبت:

- والله ماجبتش رقم مصري لسه...
- طب والناس اللي عاوزة تكلمك دي!
- ما هو البركة فيكي بقى.. وصَّلي لهم سلامي واشكريهم!
- طب أنا عندي خط قديم.. تاخده؟

استسلمت:

- لا ما تتعبيش نفسك أنا هاجيب خط قريب وأدِّيكي رقمه.

زاغـت عيناهـا للحظـات، فشـعرت في صمتهـا أن الحـوار قـد مـات، والفرصـة سـانحة للرحيـل، وهممـت بالوقـوف، وأنـا أشـعر أنهـا تحمـل في جوفهـا أمـرًا آخـر، فقاطعتنـي قبـل أن أسـتدير وألقـي السـلام:

- أستاذ "سليمان" سأل عليك.. عاوز يعزِّيك!

توقَّفتُ. هـا هـو ذا. ليـس هنـاك أحبـاب يسـألون. هـو الأسـتاذ فقـط. عرفـت أن الأمـر لـن يمـرَّ بسلاسـة حـين مـرَّ العـزاء ولم أره، كنـت متخوِّفًـا مـن رؤيتـه هنـاك، غـير مسـتعدٍّ لمواجهتـه، وحمـدت اللـه أنـه لم يحـضر، لكنـي تأكَّـدتُ أن الأمـر لـن يمـر بهـذه السـهولة. عـلى كل حـال فالوقـت غـير مناسـب للتحـدث إليـه، ولا لمـا قـد ينتـج مـن الحديـث إليـه. لـن أتحـدث للأسـتاذ "سـليمان" في هـذه الحالـة. لـن أتحـدث للأسـتاذ "سـليمان" أبـدًا.

رددتُ بعدها بمدَّة:

- أنا هاكلمه أول ما أشتري خط.

ابتسـمت السـت "هانـم" نصـف ابتسـامة تنـمُّ عـن عـدم تصديـق، فاعتبرتهـا نافِـذةً للهـروب، وسـحبت خطوتـين للخلـف، وقفـزت.

... إلى 12 شارع الغيث بالعجوزة.

***

20

أعـرف شـارع الغيـث ككَـفِّ يـدي، مـن أيـام الجامعـة، وزيـاراتي للأسـتاذ "سـليمان". هـو شـارع مـوازٍ لكورنيـش العجـوزة. هـادئ وعائـلي، دافـئ، راقٍ، تشـبه عماراتـه بعضهـا البعـض. مـا الـذي أتى بأحـد سـكانه إلى مزلقـان أرض الحـداد بالـوراق. فضـولي سـخيف، يـكاد يقتلنـي لأعـرف.. لـنَرَ.

طرقـت البـاب بالقـرب مـن التاسـعة مسـاءً، ففتحـت لي شـابَّةٌ يافعـة، تنضـح هيئتهـا بسَـمت المراهقـة، وأداؤهـا بنهايـات الطفولـة، كـدت أسـأل عـن الرجـل باسـم الدكتـور "ثابـت"، لكنـي اسـتدركت بسرعـة:

- منزل الدكتور "زكي البيلي"؟

ردَّت بحزن يوحي بأنها تعرفه:

- أيوه.. مين حضرتك؟

لم أتوقَّـع السـؤال، رغـم منطقيتـه. تـردَّدتُ، لكنـي جاوبـت بسرعـة:

- ... أنـا كنـت مريـض عنـده.. بـس عرفـت متأخـر فجيـت أعـزِّي.. البقـاء للـه!

- ونِعمَ بالله.. ثانية واحدة أنادي ماما!

نجحت الحيلة، أو لا، لا أدري. ظهرت الأم بعد ثوانٍ؛ سيدة ستينية، محجَّبة، يبدو التَّديُّن واضحًا في أدائها، والحزن طازجًا في انتفاخ عينيها. بادرتني:

- أهلًا وسهلًا.. اتفضَّل!

دخلت وجلست على أقرب كرسي صالون من الباب حيث أشارت لي. لم تغلق الباب، وجلست على الكنبة أمامي، ودخلت الفتاة إلى عمق الشقة، ثم ظهر صوت القرآن خفيفًا صادرًا من حيث دخَلَت، وكأننا في عزاء صغير. وبدأت السيدة بالحديث:

- حضرتك كنت بتتعالج عنده من زمان؟
- آه من فترة طويلة!
- يبقى من أيام عيادة المهندسين!
- آآ.. اه.. هو قفلها؟
- من كام سنة كده..
- ليه؟ هو بطَّل واللَّا إيه؟

صمتت قليلًا، ودمعت عيناها لكنها لم تبكِ:

- لا مابطَّلش.. ده لو بطَّل كان يموت!
- اسمحي لي أنا كنت مسافر وما اعرفش عنه حاجة من زمان.. هو الموضوع جه إزاي؟
- حادثة قطر!
- يا ساتر يا رب.. حصل ازاي ده؟

- بيقولوا داخ وقع قدام القطر!

دقَّ قلبي. أتلك هي الرواية الرسمية لما حدث؟ لا يجوز أن أغيِّرها الآن بأي حال. فلترقد الرواية الحقيقية لما حدث في سلامٍ داخل صدري، وسأحملها معي آسفًا إلى القبر. سألتها:

- ده فين القطر ده؟
- في الوراق.
- ... هو ليه حد هناك؟!
- لا والله أبدًا.. دي مستشفى خيري.. من ساعة ما قفل العيادة واكتفى بالشغل هناك.. كأنه كان رايح لقدره يا حبيبي.

انفجر صوت موسيقى صاخبة من ناحية المطبخ طغى على صوت القرآن، فظهر عليَّ التَّعجُّب رغمًا عني، وبدا عليها الانزعاج، فنادت على ابنتها:

- دينا.. اقفلي شباك المطبخ!
- أنا آسفة يا ابني.. ده فندق شهرزاد اللي في ضهرنا.. كل يوم الدوشة دي وناس سكرانة وقرف.. ولا عارفين ننام ولا عارفين نقعد.. ولا كأن عندنا حالة وفاة.. حتى حُرمة الميت مش مراعيينها.. ربنا يجازيهم...

لم أجد كلمات للرد، لم أكن أملك أي ضغينة لفندق شهرزاد، ولا للبار الخاص به، ولا للسكارى من زبائنه، لكني شعرت

بعمق أزمة السيدة، وأردت حَبْكَ دوري بأكبر قدر من الإقناع والتعاطف، حتى وإن كان مُصطَنَعًا، فحاولت مجاراتها:

- بصراحة حاجة مقرفة.. ربنا يحرقهم هم وأمثالهم.

شعرت بالمبالغة في ردي، ورأيت الامتعاض على وجهها، فقالت منزعجة:

- لا يا ابني حرام.. مش للدرجة دي.. ربنا يهديهم ويجازيهم!

انتابني الحرج، وحاولت التراجع والتشويش على الموقف:

- طب هو قفل العيادة ليه! أنا كنت جي أحجز لوالدتي عنده فعرفت الخبر!

- ... هو من سنتين قرَّر يقفل العيادة وقال لي إنه ياما أخد وخلاص اسكتفى.. وجه الوقت اللي لازم يدي فيه.. وراح مستشفى خيري صغيرة في الوراق وبقى يقضي هناك كل وقته.. والله يا ابني من ساعتها وكأنه رجع عيِّل صغير.. كانوا أسعد سنتين في حياته.. زي ما يكون كان عارف.

- ربنا يرحمه ويجعله في ميزان حسناته!

- اللهم آمين

خرجت "دينا" بفنجان من القهوة، فاعتذرت عن شُربه بلطف، ورحلت.

زيارة عجيبة، كشفت إجابات بعض الأسئلة، وخلقت أسئلة أكبر. أجَّلت فقرة التفكير لحين الوصول إلى السرير، والحملقة في السقف، فرصة عظيمة لتكوين كرة جديدة من الأفكار، بعد أن انقشعت الأخيرة.

في الغرفة، انطرحت فوق السرير. واجهت السقف. أغمضت عيني. آخر مرة كنت في هذا الموضع، رأيت الدكتور "ثابت". لعلِّي أراه ثانية فأعرف المزيد. وصلت لسريري وانتظرت، لكنه لم يأتِ. فبدأ عقلي نوبة العمل من دونه.

***

21

أنا الناجي هنا، أمَّا هو فلم يَنجُ. أنا لا أريد أن أكون هنا، أما هو فيبدو أنه أراد. كنت أظن أنه لا مغزى ممَّا يحدث مهما كان، ولا حكمة من الأمر كله، لكن ما حدث لا يحدث كل يوم، أمرٌ ما يحلِّق في سماء عقلي منذ يوم الحادثة. رحيل الدكتور "ثابت" بدلًا مني تركني تائهًا، حبيسًا. سلبني الاختيار ورفاهية إنهاء الأمور في اللحظة التي أريد، لا يمكنني التصرف في حياتي الآن. صار وجودي مقترنًا برحيله. صار شريكي. لا يمكنني إعادة المحاولة، فهذه الحياة مستعارة، أعارني إياها الطبيب السخيف دون أن يسألني.

لـو أن الأمـور جـرت كـما خطَّطـت لهـا، لـكان العـالم مكانًـا أفضـل برحيـلي وبقـاء الدكتـور "ثابـت". لا، لعـلِّي أبالـغ قليـلًا، لـن يتحسَّـن العـالم بـأي حـال. حسـنًا، لـو جـرت الأمـور كـما خطَّطـتُ لهـا، لَبَقـيَ العـالم كـما كان. كان مـن الممكـن أن يحافـظ وجـود الطبيـب السـاذج عـلى الحالـة الآنيـة للعـالم، لكنـه رحـل، وبقيـت أنـا. يـا لهـا مـن خطـة. تلـك هـي الأشـياء التـي تـؤول بالعـالم مـن سـيئ إلى أسـوأ، تلـك هـي الأمـور التـي تؤكِّـد لي أن البشريـة في تسـارُعٍ دائـم إلى الهـلاك، بشـاحنة لا مكابـح لهـا.

لـن نرحـل قبـل أن نهـدم كل بنيـان أقمنـاه، لـن يكتمـل عمـل الإنسـان في الأرض إلا بتدمـير كل مـا خلقـه.

لا يمكننـي حتـى اللجـوء للخطـة البديلـة الآن، لم يَعُـد بقـائي مختبئًـا مـن العـالم اختيـارًا مُتاحًـا، لـو اختبـأت في ظـلال الأحـداث حتـى يفنـى العـالم لـكان رحيـل الطبيـب الأحمـق هبـاءً أيضًـا. فـما الهـدف الـذي قـرَّر القـدر إبقـائي هنـا للقيـام بـه هـذه المـرة؟ لا أفـترض أن مـا سـأقوم بـه سـيعود بنفـس القـدر مـن النفـع الـذي كان يعـود بـه عمـل الدكتـور "ثابـت"، لكنـي يجـب أن أفعـل شـيئًا مـا، لا أدري مـا هـو بعـد.

هـا أنـا ذا. مـرة أخـرى. عـدت لأبحـث عن القيمـة والمعنـى، بعد أن كنـت قـد هجـرت البحـث وأعلنـت الاستسـلام بـأن المعنـى مـا هـو إلا وهـم. سـنوات مـن التفكـر والتـدرب عـلى وشـك أن تضيـع. يقـين تـام صـار عـليَّ إعـادة النظـر فيـه. دائـرة مفرغـة. الإنسـان مخلـوق كي يبحـث عـن المعنـى. مُهيَّـأ كي يصـدق الأسـطورة. وهـا أنـا أقـع في الـشرك مـرة أخـرى. أبحـث عـن معنـى غـير موجـود، أو نصـف معنـى، أو حتـى عـن شيء يمكننـي أن أصـدِّق أن هنـاك جـدوى مـن فعلـه. الجـدوى قـد تحـلُّ مَحـلَّ المعنـى بشـكل مؤقت.

لغز قديم... أزمة الاختيار.

قبـل سـنوات، كان وضـعٌ كهـذا كفيـلًا أن يصيبنـي بنوبـة قلـق عنيفـة، نتـاج حريـة الاختيـار، ولا نهائيَّـة المتـاح. أهـداني الأسـتاذ "سـليمان" في سـنتي الثالثـة بالجامعـة كتابًـا يُدعَـى "مفهـوم القلـق"، كذلـك اختـار الأسـتاذ أن يعرِّفنـي في البدايـة بمؤلـف الكتـاب "كيركجـارد"، وقـرأت الكتـاب وعـدت للأسـتاذ بعدهـا بأيـام، فوقـع جـدالٌ بيننـا. لأننـي، ولشـديد الأسـف، كنـت قـد وقعـت في حـب "كيركجـارد"، وارتبطـت بتعريـف القلـق في كتابـه، اتَّفقـتُ معـه تمامًـا؛ "القلـق هـو التَّشـوُّش الناتـج عـن حريـة الاختيـار"، ومـا القلـق سـوى هـذا، تعريـفٌ شـاعريٌّ ومثـالي. أمـا الأسـتاذ فـكان غاضبًـا مـن إعجابي بـه، بـل كان معترضًـا عـلى التعريـف، والكتـاب، والكاتـب عـلى حـدٍّ سـواء، لم يكـن يحـب الرجـل مـن الأسـاس، لكنه أهـداني الكتـاب عـلى مـا أزعـم كي يـرى إلى أيِّ الفريقـين ستسـوقني سـجيَّتي.

مـرَّ دهـر منـذ قـراءتي الأولى للكتـاب، وجدالنـا حولـه، لكـن بعـد قـراءتي الثانيـة لـه، بـدأت أحيـد عـن اتفاقـي مـع ذاك التعريـف. فمجـرد الاقتنـاع أن الاختيـار لـن يُغـيِّر أي شيء مـمَّا سـيحدث، كان كفيـلًا بـأن ينهـي القلـق ويزيـل التشـوش لـديَّ. فهـا أنـا ذا، عـلى شـفا الاختيـار مـرة أخـرى، بـل إننـي مُجـبَر عليـه، لكنـي لسـت

قَلِقًا. لا تأثير للحرية ولا لِلَا نهائية الخيارات على عقلي، قد أكون ضَجِرًا، أو ساخطًا، لكني لست مُشوَّشًا. حُجة جديدة للتشكيك في تعريف "كيركجارد" للقلق، رغم استمرار حبي له.

أين الأستاذ "سليمان" لأشاركه ما جدَّ من أمور؟ ألا يجب أن أنعم بجلسة أخرى معه؟ لكن لا، لن أستطيع.

على كل الأحوال، عليَّ أن أختار طريقًا، حتى وإن كان خيارًا عديم الجدوى. لكن كيف أقرِّر؟ ليس لديَّ أدنى فكرة. لا يمكنني البَتُّ في أمر كهذا، لكن شريكي في تلك الحياة المختلَسة حاضر، قد يكون لدى الدكتور "ثابت" فكرة، لعلِّي أجد عنده خيطًا لحَلِّ اللغز.

كان الدكتور "ثابت" يظن أنه قد وجد المعنى حين ترك عيادته وتفرَّغ للمستوصف. لا، لم يكن ذلك تعبير السيدة حَرَمه، بل قالت: "كأنه وجد السعادة". بالتأكيد، السعادة، إيمانه بأن خطواته الأخيرة ذات جدوى كان كفيلًا بإسعاده. أختلف معه فيما يظن، لكن لا يهم ما أظنه أنا، الأمر ليس بيدي على أي حال، طالما هي حياته، فما المانع من استمرار التجربة.

بالطبع لن أعالج أحدًا، على قدر إغراء تلك الفكرة. حسنًا، ما الذي يمكنني أنا القيام به؟

***

الفصل الثاني

العربة التي أجُرُّ

22

لطالما كنت متميِّزًا فيما أقوم به. أنا معلِّم جيد، أو أحسبني كذلك. صنَّفوني بـ "الاستثنائي" في جامعة القاهرة قبل أن أسافر إلى أمريكا، وكذلك في بنسلڤانيا، كنت مساعِدَ مُدرِّس أكثر من جيد هناك، قبل أن أُطرَد بسبب ما جرى مع "فيونا". الشاهد هو: هل تقوم وظيفتي الحالية بصنع أي فارق؟ باحث ومساعد مدرس بقسم الفلسفة بالجامعة الأوروبية بالقاهرة. لا أظنني أقدم خدمات جليلة في مجال البحث على أية حال. لكن ماذا عن التدريس، والطلبة، بالتأكيد يستحق الطلبة الفارق الذي يمكن لمدرس استثنائي ومُنسَحِق مثلي أن يقدمه. لكن أشباهي هناك أكثر من الهَمِّ على القلب، بل لديهم مَن هُم أقدر وأجود مني بمراحل. لا فارق يُرتجى حدوثه من بقائي هناك.

إذن، فالعبرة بندرة الخدمة المقدَّمة. بالبحث عمَّن لا يجدون الجودة. جامعة حكومية إذن. كم سيتطلَّب الأمر من وقت ومجهود لأعود إلى وظيفتي القديمة في جامعة القاهرة؟ فضلًا عن أني كنت دومًا أشعر أن بوصول الطلبة لتلك السِّنِّ، أي سِنَّ الجامعة؛ يصبح التأثير فيهم شبه مستحيل، وتصير قدرتي بلا قيمة.

مرحلة سنِّيَّة أصغر إذن، بل ومكان أقلُّ حظًّا ونصيبًا من الجودة، مدرسة مثلًا، مدرسة عادية، بل أقل من العادية، بها طُلَّاب أصغر، طلاب في مرحلة فارقة، الإعدادية، أو الثانوية، تلك

المرحلة التي يكرهها المدرسون والآباء على حدٍّ سواء. يمكنني أن أحمل عنهم هذا العبء. إن كانت تلك هي الخطة الأسوأ، فهي الأصحُّ بلا أدنى شك. تمامًا مثلما فعل الدكتور "ثابت".

ماذا عن الأوراق المطلوبة؟ لديَّ بالفعل الدبلومة المطلوبة للعمل كمدرِّس. أجبرني أبي على إتمامها فور أن تخرَّجتُ، كي يبقى اختيار العمل كمدرِّس متاحًا إن لم تَسِر الأمور كما خطَّطتُ لها. رحم الله أبي، لا أظنه كان يتنبَّأ بسير الأمور كما سارت بالضبط، لكن لا يمكنني إنكار الفراسة في قراره. الأمور لم تَسِر كما خطَّطتُ بالفعل، بل سارت في أبعد مدار عن خطَّتي، وانتهى بي الحال أقرب ما يكون من توقُّع أبي.

هذا هو إذن. سأنغمس في الخراء طائعًا. ولأنه الخراء؛ أعرف أنه الطريق الصحيح. يجب أن تكون تلك هي آلية الاختيار من الآن فصاعِدًا؛ نسير إلى الأسوأ، ضالعين فيه، متطوِّعين لا متورِّطين، عسى أن تتحسَّن الأمور من تلك النقطة.

لكن قبل أن أسلك درب الخراء، عليَّ أن أتخلَّص من أكبر قدر من المشاعر؛ كي أتمكَّن فقط من المواصلة دون أن يصيبني الجنون؛ لذا، فهي البلادة، يجب أن أعود للبلادة الساحرة التي صمَّمها صانعو مضادات الاكتئاب كي يتجاوز الإنسان أيامه بأقل قدر من الاتصال.

يجب أن أعود للدواء.

لا أذكر بالضبط متى توقَّفتُ عن تناول الجرعة اليومية من مضاد الاكتئاب، أظن أن الأمر حدث دون قصد مني، منذ شهر

ونصف على أقل تقدير، أغفلت الدواء صبيحة موت أمي، ثم توالت الأيام تباعًا دون الجرعة المنتظرة في زحام الأحداث التي تَلَت ذلك اليوم. فبات الانهيار بعدها أمرًا لا مفرَّ منه، وبغياب الدواء كان العزم على مراقبة المزلقان وتنفيذ الخطة يزيد في كل يوم، وكنت أعرف ذلك في عُمق عقلي الباطن، لكني قرَّرتُ أن أتجاهله.

والآن، بعد أن خربت الخطَّة، ولم ينتهِ العالم، فأهلًا بالبلادة والخدر.

أخرجت عبوة الدواء من حقيبة سفري مُحبَطًا، وقررت رفع الجرعة إلى الضعف، وحفظت موعدها، تمامًا مثلما فعلت عدة مرات في أمريكا من قبل، سيتوجَّب عليَّ فقط أن أتابع تطوُّر الأعراض الجانبية للدواء تِباعًا، وأعدل الجرعة كيفما يتفق.

بحثت عن شهادة الدبلومة بين الأوراق في غرفتي القديمة، فلم أجدها، تمامًا كما توقَّعتُ. فقرَّرتُ استخراج نسخة جديدة من جامعة القاهرة. واستغرق الأمر ما يفوق الأسبوع. في تلك الفترة، لم أكن حانقًا ولا ساخطًا على أي سخافة، أو تعطيل، أو روتين لا معنى له. الدواء الناجع أعاد لي موهبتي العتيدة في تحييد ضغائني تجاه البشر، عُدتُ كما كنت، بلا انحيازات، مهما كانت الأمور تدعو للغضب، فأنا أرى الدوافع، وأحلِّل الأفعال، فتصير مُبرَّرةً ومفهومة.

التمست العذر لموظفة شؤون الطلبة الحيزبون، التي لم تخبرني بالأوراق المطلوبة كلها دفعة واحدة، لكنها آثرت أن

تفاجئني بالأوراق واحدة تلو الأخرى، وكلما نجحت في الحصول على واحدة، كانت تأتي على ذِكر الأخرى بكل برود، وكأنني فأر في لعبة ما، والهدف هو أن أسلِّيها. كنت أرى في عينيها نظرات السعادة، ولحظات الانتصار، لمجرد امتلاكها تلك القوة المحدودة التي أوكِلَت إليها بفضل موقعها الوظيفي. أراهن أن تلك هي أقصى حدود سُلطَتها في العالم، وآخر ما يمكنها التحكم به، قد يصدمك أحيانًا مدى تفاهة الأمور التي يتَّكئ عليها البشر كي يشعروا بقيمتهم، ويحافظوا على اتِّزانهم النفسي، وسط حياة هشَّة لم يكن لهم فيها دور يُذكَر. فإن كانت تلك هي غاية تأثير الحيزبون في الحياة، فلا داعي لانتزاع هذه السلطة التافهة منها، فلديَّ ما يكفي من قوة التحمل للتعامل مع تلك الصغائر، وإن لم يتحمل تلك الأمور شخصٌ مثلي، مَن سيتحمل؟

بعد عدة أيام، عدت للجامعة في الواحدة والربع ظُهرًا بعد عدة دوريات لجمع عدة مستندات حكومية أخيرة طلَبَتها الموظفة الحيزبون. ولم يتبقَّ من الرحلة سوى دفع الرسوم المطلوبة في الخزينة. وهناك، طلبت من موظف الخزينة أن يسمح لي بدفع الرسوم، وأنا أعلم مُسبَقًا ردَّه. إذ أملك نظرية عن موظفي الخزانات في كل المصالح الحكومية، أشعر أنهم أقرب للانهيار وأكثر عُرضةً للاكتئاب؛ نظرًا لشاسع الفارق بين ما يسيل عبر يديه يوميًّا من نقود، وبين ما يتقاضاه في نهاية الشهر؛ لذلك دومًا ما كنت أشعر بالشفقة الزائدة تجاههم.

استقبل الموظف طلبي بنصف وجه غير مكترث، وإيماءة استعلاء، وإشارة بإصبعين من يده اليسرى، هدفها أن يصرفني لأعود في اليوم التالي، فابتسمت دون أدنى ضغينة لشخصه، وسألته بهدوء إن كانت مواعيد العمل تنتهي بتمام الثانية ظهرًا.

وهنا استدار رأسه، ورأيت نصف وجهه الآخر، فلم يكن يتطابق بأي حال مع النصف الأول، لكنه التقى معه عند تقطيب حاجبيه، ثم فار الدم فيه، واكفهرَّ، واحمرَّ، وجهر الصوت، حتى تأكد من أن الحضور قد أصاخوا السمع، ليعلمني بأنهم -كموظفين- ليسوا خدَّامي أهالينا. وبأننا -أيًّا ما كانت الصفة التي تجمعنا- لسنا أهمَّ منهم، وإن كنَّا -كمجموعة تجمعنا صفات لا أعلمها- لا نستطيع أن نقتطع من وقتنا الثمين للحضور للخزينة قبل الساعة الواحدة، فلا شيء يجبرهم على العمل بعد الواحدة ليساعدونا.

رأيت منبت الغضب، ومن أين فار البركان، لدى السيد غير متطابق الوجه أزمة حقيقية، قد تكون شعورًا بالاضطهاد، أو نوعًا من أنواع البارانويا، مدفونًا ومُغلَّفًا بطبقة هجومية كثيفة متكلِّسة بهدف الحماية. يحتاج أعتى الأطباء النفسيين لسنوات من المحاولة لكسر هذا الغلاف فقط، ليس لدى أي أحد من البشر ما يكفي من الوقت ولا من الطاقة لكسره.

اكتفيت بعدم الرد، وعدت في الصباح لأدفع الرسوم وأستلم الشهادة.

***

23

في الصباح كان الموظف ذاته يجلس في شباك الخزينة، لكنه كان مختلفًا تمامًا، حتى ظننت أنه موظف آخر، لم يتطابق نصفَا وجهه، لكن التقطيب بينهما قد اختفى، وصار إنسانًا ألطف، حتى إن لطافته شجَّعتني أن أسأله عن أوراق التقدم للعمل كمدرس. فأجابني بكل رحابة صدر ودلَّني على مبنى الوزارة، بل ونصحني ألَّا أتعب نفسي بالتَّقدُّم.

وأثناء تناوله وجبته المفضلة على ما يبدو، حكى لي أن الوزير قد أصدر قرارًا بفتح باب التطوع لكادر المعلمين، وأغلق على إثره باب التعيين؛ نظرًا لعدم قدرة الوزارة على توفير تكاليف التأمين الاجتماعي والصحي والمعاش اللازمين لتعيين مدرسين جُدُد بالحكومة، أمَّا المتطوِّعون فلا معاش لهم، ولا تأمين، ولا تلتزم الوزارة معهم بأي مستحقات، جُلُّ ما يربطهم بالمتطوعين هو عقد مفاده أن المدرس يتقاضى مبلغ وقدره عشرون جنيهًا على كل حصة يقوم بتدريسها، ليتلقَّى راتبًا في نهاية الشهر بقدر عدد الحصص التي أوكِلَت إليه. وحين سألته عن العدد الأقصى للحصص التي يمكن للمدرس الحصول عليه، فقال: خمسًا وعشرين حصَّة في الأسبوع.

حسنًا. خمس وعشرون حصة في الأسبوع، أي راتب لن يتخطَّى الـ 2000 جنيه، لا امتيازات، لا بدلات، لا حوافز، لا تعيين، لا تقدير مادي، ولا معنوي على الأرجح. عمل تطوُّعي بالفعل،

بل أدنى من التطوعي، فالأعمال التطوعية يحظى القائمون عليها بتقدير معنوي كبير. التدريس التطوعي عمل لا يمكن حتى أن يرتقي للعمل التطوعي. هذا هو ما أبحث عنه على الأرجح.

في الوزارة تمَّت الإجراءات ببطء أكبر، ولكن دون تعقيدات؛ فأنا "متطوِّع" رغم كل شيء. وحين سألت عن آلية التوزيع الجغرافي للمدرسين، فقالت الموظفة العجوز المسؤولة عنه أنه يتم بناءً على محل السكن المذكور بالبطاقة، وعدد المدرِّسين المتاحين في المدارس المحيطة به، ثم سألتني:

- ساكن فين؟
- في المنيرة الشرقية.

قلَّبَت في صفحات دفتر أمامها، ثم تابعت:

- كل المدارس حواليك تعبانة!
- ... عارف!

صمتَت للحظات، وأخفضت صوتها وتحوَّلَت لنبرة الأمومة الناصحة:

- شكلك ابن ناس.. ماعندكش واسطة تساعدك تروح حتَّة أنضف؟

لم أرُدَّ، لم أكن أريد "حِتَّة أنضف"، كنت أرغب في الأسوأ. لو أن لي واسطة تتأكَّد أن يستقر ملفِّي في مدرسة "نجيب محفوظ"، المختبئة وراء عربة الكوسة المقابلة لبيتي، لكان الأمر مثاليًّا. قفز الأستاذ "سليمان" إلى ذهني فورًا. يمكنه بإشارة من إصبعه

لأصغر فرد في معارفه أن يعيِّنني في أي مدرسة أرغب، تمامًا مثلما نجح في ترتيب سفري إلى أمريكا. هو ينتظرني أن أتصل به بالفعل، لقد طلب من الست "هانم" أن تبلغني بذلك، لكني لن أفعل، لا أريد أن تتقاطع خطوطنا.

لن أتمكن من التحدث للأستاذ "سليمان" مرة أخرى ما دمتُ حيًّا.

***

24

الأستاذ "سليمان" هو آخر عهد العالم بالعمالقة. عرفته وأنا في العاشرة من عمري. كان هو على أعتاب الستين، يعمل نائبًا لرئيس جامعة القاهرة لشؤون الدراسات العليا، حصل على نيابة الجامعة بعد أن تقلَّد رئاسة قسم الفلسفة بكلية الآداب فيها لسنوات طويلة. قابلته للمرة الأولى في المطبعة التي كان يمتلكها والدي بالشراكة مع عم "فرج"، زوج الست "هانم"، رحم الله والدي وعم "فرج".

تعرَّف عليهما الأستاذ "سليمان" أثناء شروعه في نشر أحد كتبه، السادس على ما أذكر، "بطلان القانون الإنساني". كان يقيم معهما لياليٍ وليالٍ في المطبعة. أحبَّهما وأحبَّاه، وحظي

الثلاثة بتقدير بعضهم البعض. صاروا إخوة، رغم فارق السن، والثقافة أيضًا.

قابلني الأستاذ حين كنت صبيًّا في إحدى ليالي انتظاره في المطبعة، تناغمت موجاتنا دون ترتيب، رغم أنه ببعض المقاربات الزمنية، من الممكن أن يكون في سِنِّ جدِّي. كان خبيرًا تربويًّا مخضرمًا، تحدث إليَّ بالفصحى عامِدًا، ولم تكن سوى أيام حتى قرأت، بفضله، أول كتاب في حياتي. أذكر أنه يوم قابلني، أخرج من حقيبته الجلدية كتاب "مصير صرصار" لـ"توفيق الحكيم"، وأعطاني إياه، وقال لي إن هذه المسرحية بها ثلاثة أخطاء، إن وجدتها أعطاني على كل خطأ منها عشرة جنيهات.

أخذت منه الكتاب، وغصت في غرفتي لأسبوع كامل، أقرأ، وأقرأ، ثم أعيد القراءة، ولمَّا لم أجد أي أخطاء بالكتاب، تملَّكني الحنق، وحاولت أن أضيف بقلم أبي الأسود نقطة لأحد حروف التاء لتصبح ثاءً، أو الفاء لتصبح قافًا. ثم عدت إلى الأستاذ مُدَّعيًا الانتصار، فضحك بخفَّة، ثم قال لي إن كنت أرغب في الحصول على النقود التي وعدني حقًّا، فعليَّ أن أحكي له قصة المسرحية كاملة. حاولت أن أتذكَّرها مرارًا، لكني لم أنجح، كنت مهووسًا بإيجاد الأخطاء فقط، فأغفلت القصة، وشعرت بالإحراج، وسببت الكتاب، وسببت "توفيق الحكيم"، وبدأت أُعدِّد له مقاطع كرهتها من كثرة قراءتها، فصارت مُمِلَّة وساذجة. وبأن عليه أن يعطيني كتابًا آخر غير هذا الكتاب السخيف لأقرأه وأحكيه له.

لمعت عيناه وقتها، وأعطاني ما وعدني من نقود، وطلب مني الاحتفاظ بالكتاب، ثم أخرج كتابًا آخر، وأعطاني إياه، وقال لي إن هذا الكتاب لا أخطاء فيه، لكنه يريدني أن أكتب كل ما أكرهه فيه، تمامًا مثلما فعلت في الكتاب الأول، في مقابل نفس المبلغ. أحببت اللعبة، وأظنُّه أحبَّها هو الآخر، وصارت اللعبة هي همزة الوصل بيننا.

كان يزورنا أسبوعيًّا في المطبعة، حتى بعد أن انتهى من طباعة كتابه. وفي كل زيارة، كان يأخذ الكتاب الذي أعطاني إياه قبل أسبوع، ومعه ملاحظاتي المكتوبة عنه، ويعطيني كتابًا بديلًا، ويسمع مني اعتراضاتي على الكتاب والكاتب المبنية على لا شيء، وتطوَّرَت اللعبة عبر السنوات، فباتت المهام أصعبَ وأصعب، حتى صار يعاقبني بخصم جزء من النقود التي يدفعها لي إن لم أجد شيئًا لا يعجبني في الكتاب.

صدر كتابه السادس. وفي غضون سنوات قليلة صدر السابع، وطلبت منه أن يعطيني إيَّاه لأقرأه، فرفض، بحجَّة أن كتاباته أصعب من أن أفهمها، وعليَّ أن أصل لمستوى أعلى من احتراف القراءة كي أتمكن من قراءتها.

كانت إهانةً لم أغفرها له، فاستعرت إحدى النسخ من المطبعة دون علم أبي، وقرأت مقدِّمته وأنا في الثالثة عشرة، وبالطبع لم أفهم شيئًا، فاعتراني الغضب، ووضعت قائمة بأشياء عشوائية من الكتاب، مثل جُمَل لم يعجبني وقعها الموسيقي، وأسماء لفلاسفة لم أكن أعلم عنهم شيئًا، ثم احتفظت بالقائمة

ولم أعطها له، وأعدت الكتاب إلى مكانه في المخزن بعد أن استعرته بأيام.

بعد عام واحد، اختلف أبي مع عم "فرج" بسبب فكرة سفره للخليج، وأُغلِقَت المطبعة، وسافر عم "فرج"، وعاد أبي للعمل كموظف حكومي في المطابع الأميرية، بعد أن كان قد خرج منها إلى إجازة دون مُرتَّب. ما كان أبي ليفلح في إدارة مطبعته الخاصة من دون عم "فرج" على أي حال؛ فعم "فرج" كان بمثابة المسؤول عن التسويق والمبيعات ومعاملة الزبائن وكل مهام العلاقات العامة التي لا يعرفها أبي.

انتهت الشراكة، وأُغلِقَت المطبعة، لكن لعبتي أنا والأستاذ "سليمان" لم تَنتَهِ، لم تنقطع زياراته الأسبوعية لنا، ولا كتبه المبهرة. وفي سنِّ الرابعة عشرة طلب الأستاذ من أبي أن يسمح لي بالالتحاق بالثانوي العام كيفما أردت، وفي سنِّ السابعة عشرة، تَرجَّاه أن يتركني لألتحق بالكلية التي أرغب فيها، على أن يتحمَّل هو بنفسه مصاريف دراستي فيها. فامتنَّ أبي لصنيع الأستاذ ولم يعترض.

قرَّرتُ الالتحاق بكلية الآداب قسم الفلسفة، القسم الذي ترأَّسه الأستاذ "سليمان" في أحد الأيام. سُرَّ أبي لاختياري، لكن الأستاذ لم يُسَرَّ، بل وبَّخني على تأثُّري به وانصياعي لتجربة شبيهة بتجربته، وعلى الرضوخ لاختيار سهل يُرضيه هو وليس بناء على تفضيل مستقلٍّ نابع من قناعتي الشخصية.

غضبت يومها، وشعرت بالإهانة مرة أخرى، وأنكرت عليه كلامه، وأخبرته أنه ليس بالقدوة التي أطمح أن أكونها حين أكبر، وبأني قرأت كتابه السابع قبل سنوات ولم يعجبني، وأعطيته قائمة اعتراضاتي على كتابه، ثم تركته وغادرت.

عاد الأستاذ "سليمان" إلى بيتنا بعدها بأيام، واعتذر لي، وأعطاني القائمة الكاملة للعبتنا، مُدوَّنًا بها كل الكتب التي أعارني إيَّاها منذ أن كنت طفلًا في العاشرة، ومعها الأوراق التي كتبت فيها ما لم يعجبني في كل كتاب من القائمة. وأخبرني أن اللعبة قد انتهت بيننا، وطلب مني أن تستمرَّ اللعبة بيني وبين ذاتي، ولكن بشروط أخرى، وهي أن أضيف عناوين جديدة لتلك القائمة، وأن أعيد قراءتها كل سبع سنوات، وأن أكتب تعليقات جديدة عن قراءتي الجديدة للكتب، وأقارنها بالتعليقات القديمة التي كتبتها، وأتأمل تطوُّر استقبالي للأفكار. ثم أخبرني أنني منذ تلك اللحظة عليَّ أن أختار وأشتري كتبي الجديدة بنفسي، لا أن أنتظر ترشيحاته فقط.

تعجَّبتُ لردَّة فعل الأستاذ، وشعرت بالخوف قليلًا لإنهائه اللعبة بتلك الطريقة، وطلبت منه أن يعطيني سببًا لهذا الجفاء، فأجلسني وقال لي إن الأمر ليس فيه أي جفاء، وبأن الودَّ سيظل موصولًا، بل من الممكن أن يكون أقرب من أيام اللعبة، وحكى لي يومها حكاية الروح، أول دروسي في الفلسفة.. عرَّفني بـ"نيتشة".

***

25

قال الأستاذ...

يُروى في سالف العوالم والأزمان، وقبل أن يأتي للرُّوح الأوان، أن الروح وقفت على أعتاب الوجود تتحضَّر لعبور الباب، وبدء رحلتها الطويلة إلى الحرية. لكن، وقبل أن يؤذَن لها بالعبور، كان لا بُدَّ لها من اختبار أخير، وهو مواجهة التنين.

تنين هو الأعظم بين بني جنسه. تمتثل فيه كل السُّنَن الكائنة، وتشعُّ منه شرائع آلاف الأعوام، وتتوهج عليه كل صفات الجمال والجلال. كائن تحفُّه النقائض، الرهبة والإعجاب، الخوف والانجذاب، هو الحامي والهادم، صاحب كلمة الحل والربط، الأمر والنهي، البدء والوقف. وحش مهول تكسوه آلاف وآلاف من الحراشيف النحاسية اللامعة. مُسجَّل عليها كل الأعمال والخطوات التي يتوجَّب على الروح القيام بها، على طول مسيرتها أو قِصَرها. وكان شرط التنين الأول للروح كي تعبر من الباب، هو أن تتخذ هيئة من هيئات الكائنات الحية كي تتمكن من عبور من البوابة.

منصاعةً لجلال التنين، ومنسحقةً أمام عَظَمته، شعرت الروح بعدم أهليتها لأن تجوب الوجود من دون أن تعرف المزيد منه، فأبت أن تترك التنين العظيم وما تحمله حراشيفه من كنوز المعرفة، وآثرت أن تبقى بجانبه كي تنهل منها وتتعلم.

وهنا تحوَّلَت الروح للمرة الأولى إلى هيئة الجمل، ومرَّ الجمل من البوابة وجلس ملتصقًا بالتنين.

انساق الجمل لطبيعته، فما الذي يعرفه الجمل سوى أن يكون حمَّالًا؟ وصار الجمل حَمَّال التنين. يتلقى منه ما يُلقى له. ويدرس عنه ما يظهر له. يمتصُّ ويتعلم ويحفظ. قِيَم وأفكار وأحمال، يفتِّش عن أثقلها لينيخ ظهره ويزهو بحملها. كان حيوانًا أليفًا منضبطًا. ومرَّ الزمن، وبات الجمل يشعر بقيمته وبمدى فخره كلما زادت عليه الأحمال، وكلما برزت قدرته على تحمُّلها. وصار لا يملك في جوفه لأوامر التنين إلا الجواب بـ"نعم"، مُمنِّيًا نفسه بالعزة فيما يفعل، وبالوصول إلى نفس صورة التنين الكاملة.

لكن، وكما أن لكلِّ طاقة حدًّا. وصلت قدرة الجمل إلى أقصى حدِّها، وأصبح في أحد الأيام لا يقدر على حمل المزيد، وحين أوكل إليه التنين حِملًا جديدًا كي يحمله، اضطرَّ آسفًا أن يضع حِملًا قديمًا عن ظهره كي يحمل الحمل الجديد بدلًا منه. ومع مرور الأيام، وتناوُب الأحمال، أدرك الجمل أن ليست كل الأحمال تستحقُّ أن تُحمل، أو تُحفَظ، وأن بعضها أثقل بكثير من قيمتها. وبعد أن صار الجمل هو المخوَّل بالحكم على قيمة الأحمال التي تُثقِل ظهره، تضاءلت قيمتها شيئًا فشيئًا في عينيه، حتى صارت كلها بلا قيمة، وفجأة أيقن أن كل تلك الأحمال لا تخصُّه من الأساس، وأنه صار، بكامل إرادته، خادِمًا لإرادة وقيم وأحمال التنين.

فبات الجمل في ذات الليلة حزينًا، يتأمل حراشف التنين وأصدافه، كانت الحراشف تصرخ في وجهه بأن كل ما هو سُنَّة قد أوجد من قبل، وأنه من العبث أن يطمح أي أحد لخلق سُنَن جديدة. نام الجمل غاضبًا من التنين، ومن نفسه، ومن هيئته التي هو عليها. تذكَّر رحلته الأصلية للبحث عن الحرية. وشعر بأن التنين الذي كان في إحدى اللحظات هو سبب ترقِّيه وعبوره من بوابة الوجود إلى العالم الحسِّي، صار اليوم هو العائق الذي يمنعه من التحرك، ومن تلبية تَوْقِه الأصيل للحرية. أدرك أن رحلته لن تكتمل إلا بالتَّخلُّص ممَّا يحمل من أعباء لا نفع منها، بل بالتخلص من الأعباء كلها على حدٍّ سواء؛ لذا فإن هيئة الجمل الحالية لن تجديه نفعًا في هذا المسعى، ونام عازمًا على التَّغيُّر.

استيقظ الجمل في الصباح ليجد نفسه أسدًا.

مع طاقة النور الأولى، وجد نفسه يحمل في صدره روح أسد. وبالطبع سقطت الأحمال عن ظهره تمامًا، فمتى كانت آخر مرَّة شهد فيها الزمان أسدًا قرَّر أن يحمل عبئًا واحدًا بكامل إرادته؟ الأسد لا يحفظ أحمالًا، بل يبيدها، ويعيش ملكًا.

ولكل أمرٍ من أوامر التنين كان رد الأسد "لا لن أفعل"، دون إعادة نظر فيما قد ينفعه. ولكل نَهيٍ من نواهي التنين، كان رد الأسد "بل سأفعل"، دون لحظة تفكير فيما قد يضرُّه.

هجر الأسد جانب التنين، وأقام تحت شجرةٍ على مرأى منه، مُعلِنًا بذلك العصيان عليه، والخروج على قوانينه وأعرافه التي صار يمقتها ويحتقرها، بل وصرح مفاخِرًا بأنه يتحدَّاه. وبدلًا من

أن يخدمه، قرَّر أن يواجهه، ويصارعه، ويهزمه من أجل اكتمال حريته. وهنا اعتمل الصراع الأقوى في صدر الأسد؛ كيف له أن يهدم كيانًا كان هو أجلَّ ما يحترمه في أحد الأيام؟ بل كيف له أن يتغلب على كائن، وهو يحمل في روحه جزءًا منه؟

غاية الأمر أن المعركة كانت حتميَّة، فاشتدَّت شوكتها، ووهجت شعلتها في هشيم الغضب، واستمرت المعركة لأعوام. تنين عتيد جليل، وأسد شاب حانق. فلا التنين يريد، بأي حال، أن يقتل الأسد، تلميذه الأقدم، ونتاج عمله الطويل، وأعظم أعماله الفنية، ولا الأسد يمكنه، بكل معجزات الكون، أن يقضي على التنين. سنوات وسنوات من العراك، لم يتوقَّف فيها النزال ولو ليوم واحد، ولم يُظهر فيها الزمان أحدًا على الآخر ولو لمرة واحدة.

وفي إحدى الليالي المقمرة، وبعد أن انتهى نزال اليوم، جلس الأسد تحت شجرته متأثِّرًا بجراحه، ينظر إلى السماء، ويتذكر وقت أن كان جَمَلًا، كل تلك الأيام التي كان فيها حمَّالًا للتنين. واكتشف في لحظة تجلٍّ واضحة، أنه حتى بعد أن صار أسدًا، وألقى بكل أحمال أيام الخدمة، لم يتخلص بعدُ من تأثير التنين عليه. فبدلًا من أن يخدم أفكار التنين، صار مكرَّسًا بكل جوارحه لخدمة نقيضها. قضى حياته كلها كردِّ فِعل لما يمليه عليه التنين، إمَّا ليحفظها وإمَّا ليهدمها. أدرك أنه لم يخرج من دائرة تأثيره بعد. لم يخلق سُنَّة واحدة خاصة به، لم يُقدِم على خطوة واحدة نابعة من عقله بشكل محضٍ. لم يختبر الحياة دون حكم مسبق نابع بشكل أساسي من تجربته مع التنين.

حل التعب على الأسد في تلك الليلة، وتسلل إلى قلبه السأم من غزير طاقة الهدم التي ملأته لسنوات، وأدرك أن رحلة بحثه عن الحرية يجب أن تستمر، وبأن عائقها هذه المرة ليس التنين، إنما هي نفسه، وما هو عليه، هيئته الحالية، فأغمض عينيه وقرر النوم.

وفي الصباح، استيقظ الأسد ليجد نفسه طفلًا.

هيئة عجيبة. شعر معها بتغيُّر جَلَلٍ في نفسه. انتهى الغضب، واختفت الرغبة في القضاء على التنين. تطهَّر تمامًا، نسي كل شيء، ماتت كل رغائبه القديمة ونمَت بدلًا منها نبتة اللعب والتجريب وصنع الأشياء. الطفل هو حركة البداية، واكتشاف الطريق، وإيجاد الدنيا. يمكنه أن يُكفِّر عمَّا سلف من أخطاء بخلق كل ما هو جديد. كل زَلَّات الماضي بإمكانه أن يمحوها وهو في تلك الهيئة إذا ما تمكَّن من استخدامها لصنع عالم أفضل وروح أقوى، بجودة أعلى.

في هيئته الجديدة، تمكَّن الطفل، في وقت زهيد، من الانفصال عن كل ما حدث بالماضي، ومن التغاضي عن تاريخ الخضوع وسنوات الغضب، ومن التَّخلُّص من مشاعر الاحتقار لهيئاته السابقة، فهيئاته السابقة ماتت، وكانت في موتها البذرة التي نبتت منها صورته الحالية، صورته الأخيرة التي أصبح بإمكانه استخدامها لصنع كائن أفضل، وأقوى. يمكنه أن يكون هو البداية الجديدة لأن يعيش بإرادته وأفكاره وقيمه الشخصية بعيدًا عن اتفاقها، أو اختلافها، عمَّا رآه في رحلته مع التنين.

وللمرة الأولى، أَوْلَى الطفل ظهره لمحل إقامته تحت الشجرة، ترك العتبة والبوابة والتنين والشجرة، ثم شرع يحبو مبتعدًا عنهم، وعن سنوات وسنوات من تاريخ الارتباط، واستلم الطريق ليبدأ الرحلة إلى الحرية دون أن يوقفه التنين أو أي كائن غيره.

***

26

أنهى الأستاذ "سليمان" الحكاية، ثم صمت قليلًا، ونظر لي متأمِّلًا، وقال بفصحاه المحبَّبة:

- ظننتك الجمل...
- ...
- لكنَّكَ كنتَ الطفل!
- وهذا يجعلك...

ردَّ ضاحكًا:

- بالطبع أنا التنين!

ابتسمت، فتابع يحكي:

- معظم البشر... على طول حياتهم... لا يتخطون صورة الجمل... وقليل منهم من يبلغ صورة الأسد... أمَّا

الطفل... فلم يره "نيتشه" إلا في لحظات قليلة... ولم أره أنا إلا في صديق قديم... مات منذ عشرين عامًا...

- وأنا صديقك الجديد؟!

أومأ بإيجاب:

- أظن ذلك... فقط تصرَّفْ بروح الطفل كلما وقعتَ في موضع الاختيار!

التحقت بالكلية، وكثرت بعدها لقاءاتنا كما وعدني، وتحوَّلَت أيامي إلى سعي دائم إلى التحدث معه، عقل لم أقابل نظيره في حياتي. صِرتُ أزوره في بيته ونجلس لساعات نتبادل النظريات ونتبارى فيها، أسبُّ له أعظم الكُتَّاب وأعتى الفلاسفة، وأهدم نظرياتهم، وأنقد أدبهم، فيعيد هو بناءها من العدم، ويثبت عليَّ خطئي.

يهديني دواوين الشعر الجاهلي والأندلسي والمعاصر، ويعرِّفني بفطاحل شعراء العرب، ويسألني عمَّا لقيت من قراءة شعرهم، فأجيب كالمعتاد، بكل ما لديَّ من صراحة، وصفاقة في بعض الأحيان، أتجرَّأ على شعرهم وأهينه، حتى يقوِّمني ويعلِّمني أن الشعر مثله مثل اللوحات التشكيلية، لا يهم ما تميِّزه أو تفهمه منه، بقدر ما تلقاه روحك حين تتعرض له؛ فاختلف الشعر في نظري تمام الاختلاف منذ ذلك الحين، وصِرتُ ألقاه بروح أرحب وباحترام أكبر.

كنت أشعر في صحبته كأننا في معسكر إعداد دائم ومُسلٍّ. أيام ليتها لم تَنتَهِ، ليتني لم أسافر، ولم يحدث ما حدث، ليتني

أستطيع أن أتصل به بكل بساطة، وأطلب منه أن يساعدني في التَّطوُّع بالتدريس في مدرسة "نجيب محفوظ". لكني أخاف أن يطلب مقابلتي، ويسألني عن السبب، وعن كل ما جرى، وينبش دفينة ما حدث، فأضطرَّ للاعتراف بأني خذلته، وبأن الخطة التي وضعناها سويًّا لما ينتظرني في أمريكا، لم يتحقَّق منها شيء. أخاف أن نتبارى مرة أخرى، سيهزمني... سيسحقني... سيعرِّيني تمامًا. لن أتحدث إليه ما دمتُ حيًّا.

وقفت أمام الموظفة العجوز في الوزارة أفكر في بديل للوساطة، فلم أجد سوى الرشوة، فدسست يدي في جيبي وأخرجت ثلاثمائة جنيه، ووضعتها تحت الدفتر المفتوح أمامها بخفَّة يدٍ، ثم أشرت إلى اسم مدرسة "نجيب محفوظ" المذكورة في قائمة المدارس بالدفتر، وقلت:

- مش عايز حتَّة أنضف.. لو لقيتي مكان في مدرسة "نجيب محفوظ".. يبقى كتَّر خيرك!

صمتت للحظة، ثم تعجَّبَت:

- دي!! متأكد؟!

أومأت لها مبتسمًا بهدوء، فرفعت كتفيها في استنكار:

- على كيفك!

***

27

دخلت شارعنا بالقرب من صلاة العصر. صادف دخولي خروج عم "رجب هوجان" من بيته قاصِدًا الجامع، وما أن رأيته حتى طغى الامتنان على مشاعري، ولحقت به فسلَّمتُ عليه، وذكَّرتُه بنفسي، فتذكَّرني. كِدتُ أعترف له وقتها بكل ما فيَّ من ألم، وأشكر له صنيع قرآنه الذي أنقذني منذ أيام. لكني لم أشأ أن أعكِّر صفوه، أو أن أفشي أكثر ممَّا ينبغي. فاكتفيت بشكره على التزامه بإطلاق شيخه الحبيس في فجر كل يوم، وطلبت منه ألَّا يتوقف عن تلك العادة أبدًا.

تأبَّط عم "هوجان" ذراعي، وبدأ يمشي في اتجاه الجامع وهو يسحبني:

- عايز منك خدمة...

- تؤمرني يا عم "رجب"!

- بتسمع الشيخ "محمد رفعت"؟

- من شباكك بس!

- معاك موبايل؟

تلفَّتُّ حولي لأتأكد أن الست "هانم" لن تسمعني، أو ترى الموبايل، كان صبيُّها يقف بدلًا منها في محل الشيشة، أمَّا هي فما زالت نائمة على الأرجح. فقلت:

- أكيد...

- فيه إنترنت؟
- أيوه!
- اكتب على الإنترنت "القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت"...

أخرجت الموبايل في خِفَّةٍ وبحثت، فوجدت تسجيلات الشيخ الحبيس في أحد المنتديات، فتحتها وحاولت أن أعرضها على عم "هوجان"، فتوقَّف عن المشي، ونظر لي غاضبًا من تحت نظارته السميكة بعينيه الخضراوين الواسعتين:

- هو أنا شايفك يالا!
- آسف.. طب بتدور على إيه؟
- عندك تسجيل لأول لسورة "النساء"؟

بحثت لثوانٍ:

- لأ!
- طب آخر سورة "الأعراف"؟

تابعت البحث:

- مفيش بردو!

بدا مستاءً، وتابع المشي:

- طب خلاص.. شكرًا يابني!

- لو عايزهم ممكن أدوَّر من البيت وأكيد هالاقيهم!
- مش هتلاقي حاجة.. أنا بادوَّر من سنين وملاقيتش..
- إزاي!
- ده أنا وصلت لحد ناس في الإذاعة وسألتهم.. قالوا لي إن الشيخ مات قبل ما يسجل القرآن كامل.. وواحد من زملاتي القدام في المصلحة قال لي إنه يعرف حد من عيلته.. وإنهم بيقولوا نفس الحكاية..
- يمكن!

صمت قليلًا، ثم أردف بغضب:

- كذب.. أكيد خفوها.. ده راجل مبروك.. وشغلته كانت تلاوة القرآن.. إزاي يعيش ويموت من غير ما يسجل كل السور؟ إيه اللي يشغله عن التسجيل؟

حاولت أن أهدِّئه:

- بس هم هيخفوها ليه طيب؟
- عشان الإذاعة ضحكت عليهم زمان.. أخذت منهم تسجيلات وما دفعتلهمش ولا جنيه.. فخَفُوا اللي باقي معاهم لحد ما يجيلهم سعر عالي فيها!

صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- من كام سنة حفيدته قالت في برنامج إن معاها ثلاثين ساعة جديدة من تسجيلاته.. الله أعلم إن كان فيها اللي

ناقص والـلَّا لأ.. ولا امتى التسجيلات دي هتشوف النور.. يمكن أموت قبلها!

- ربنا يطوِّل في عمرك!
- ما تشغلش بالك انت يا "عيسى"...

كنا قد وصلنا لجامع الشيخ "زيدان"، فأفلت ذراعي وسألني...

- مش هتصلِّي معانا؟
- أكيد.. هاطلع أغير هدومي وأتوضى وألحقكم!

قطب جبينه، ورماني بنظرة احتقار، ثم خلع نعليه، ودخل إلى المسجد دون ردٍّ.

عدت للبيت. كان باب الست "هانم" مُغلَقًا أثناء صعودي الدرج. ووجدت أمام باب شقتي طبقين من الميلامين قابعين على الأرض يغطيهما طبقان آخران. يبدو أنها استيقظت. نظرت من بئر السلم على باب شقتها فرأيته ما زال مغلقًا. فحملت الأطباق ودخلت، ووضعتهم على طاولة الصالون ثم كشفتهم...

كشك ألماظ بالسَّلق، وأرز بالشعرية، وربع فرخة ذهبية.

***

28

منذ أن بدأت إجراءات التَّطوُّع للتدريس وأنا أنام بسهولة. لم أُصَب بنوبة قلق واحدة. ولم أذهب إلى الجامعة أيضًا. لم أتصل حتى لأبلغهم عن احتياجي لإجازة، ولما اتَّصَلَت بي موظفة الإتش آر، أخبرتها أني مُجهَد، وما زلت أتعافى من تعبٍ قد حلَّ بي، ولن أتمكن من الحضور لأسبوع آخر.

يجب عليَّ ترك الجامعة. أمر بديهي. لا يمكنني العمل في مكانين، لم أعُد أفكر في "أحمد عاكف" كما كنت سابقًا. وبالفعل، جلست أمام الكمبيوتر الخاص بي، وكتبت خطاب استقالة مُقتضَبًا، وفتحت بريدي الإلكتروني كي أرسله لـ"أحمد عاكف" ولمديرة الإتش آر. فإذ بي أري إحدى الرسائل من الإيميل الرسمي للجامعة، مُرسَلةً إلى كل أعضاء هيئة التدريس، والطلبة، وكل مَن هو ذو صِلَة وغير ذي صِلَة، تهنِّئ الهيئة فيه الدكتور "أحمد عاكف"، رئيس قسمنا الفَذَّ، بنشر ورقته البحثية الجديدة، والتي تزامن توقيت نشرها بالضبط مع نهاية إجازة الشتاء. تمامًا كما كان يفعل في كل أوراقه البحثية السابقة كما كنت أسمع. توقيت مثالي كي يحظى بكامل رسائل الثناء وقصائد المديح من الطلبة والأساتذة لما تبقَّى من العام الدراسي.

وبالطبع دخلت على الموقع كي أطَّلِع على الورقة المنشورة، وبعد قراءة بعض الصفحات، بدأت أشعر أن تناول الورقة وطرحها مألوفَان بشكل ما. فتابعت القراءة بتركيزٍ أكبر. انتابني

القلق وأخذت أعصر ذاكرتي حتى تذكَّرتُ، لقد قرأتها بالفعل من قبل في ملف "جوجل درايف" السِّرِّي لـ"أحمد عاكف"، هي رسالة ماچيستير أحد المعيدين المدفونين في حديقة غروره، ماذا كان اسمه؟

مرَّت دقائق وأنا أحاول، وأخيرًا تذكَّرتُه، وتذكَّرتُ البُرص، وبائع الأطباق الصينية، عرفت من أين يقفز اسم "أشرف نصر" لذهني أخيرًا. كان المعيد هو الشخص الذي يُدعَى "أشرف نصر". نعم، "أشرف نصر الدين"، معيد بكلية الآداب جامعة المنصورة. أخذت أقرأ وأقارن ورقة "أحمد عاكف" بما أذكر من رسالة المعيد. ومع كل سطر كنت أقرؤه، كان الغضب يتصاعد في صدري، وصرت أسبُّ وألعن "أحمد عاكف" بصوت أعلى وأعلى.

أنهيت القراءة وأنا في قمة الغضب. قليلًا ما يستفزُّني أمرٌ ما، ونادرًا ما أسعى للانتقام، مهما تمادت إساءة أو شرُّ أي إنسان إلى شخصي، عادةً ما أجد مبرِّرًا أو سببًا وراء فعله، حتى وإن كان سببًا واهيًا تافهًا يجعلني أتفهَّم أفعاله. لكن خطأ "أحمد عاكف" لم أتمكن من التغاضي عنه، لم أرَ فيه المبرِّرَ. رجل وضيع، شرُّه خصبٌ، وله تبعات، وآثاره ممتدَّة. هو ماكينة تتغذى على امتصاص المنسحقين من حوله، ودعسهم كي يرتقي وينتفش، بل ويُنتِج في كل عام نسخًا أخرى منه، عشرات من "العواكف" المدِّعين الجهلاء.

حسنًا، قُضِي الأمر. لن أتقدَّم باستقالتي. لن أتمكن من متابعة حياتي دون أن أفعل شيئًا ما بخصوص "أحمد عاكف"،

لا أدري ما هو بعدُ، لكني يجب أن أعود، لا بُدَّ من مواجهة أخيرة.

سحبت علبة السجائر السوبر من على الكومودينو وخرجت إلى البلكونة أنفث غضبي في سيجارة متعرِّجة يابسة، عمرها خمسة عشر عامًا على الأقل. كان "أشرف نصر"، البرص، في البلكونة بالفعل، ملتصقًا بالجدار الأيمن، نظرت له، وتخيَّلته في هيئة معيدٍ يقف على منصة بمدرج بالجامعة، يحاول أن يشرح للطلبة خبراته المثيرة التي رآها في عالم الأبراص. ثم ابتسمت له وأومأت معتذرًا عن غيابي لفترة طويلة، رغم أنه لم يطلب أعذارًا. بل بَدَا وكأنه لم يخرج هو الآخر إلى البلكونة في الأسابيع الماضية إلا في تلك الليلة.

الصاحب المثالي في الوقت المثالي، يشعر بغضبي ويتفهَّمه، لم يحاول أن يثنيني عن الانتقام، ولم يقدِّم لي حلولًا أيضًا، وهذا بالضبط هو ما كنت أنتظره. هدأت قليلًا، ونظرت له فاستشعرت أزمة خفيَّةً ظهرت على ملامحه، خرج مثلي ليلقي بثقلها بين ذرَّات الهواء البارد، فوجدني، وكان ذلك مثاليًّا. ائتنس أحدنا بصحبة الآخر لفترة وجيزة، ثم بعد لحظات من الصمت، بدأت تتضح خطَّة الانتقام بشكل ضبابي، ستحتاج إلى ترتيب طويل، ووقت أطول.

شعرت وقتها بالحماس والجوع، فاستأذنت منه، ودخلت لألتهم الكِشْك.

***

29

الطعـام مرتـع الذكريـات. أحـبُّ الكِشْـك، وأحـبُّ وصفـه بـ"الألماظ". لا يَـدَ لي فيـما أشـعر بـه حـين آكل مـن أطبـاق السـت "هانـم"، كأنهـا تتعمَّـد اختيـار تلـك الأصنـاف لتجعلنـي أتذكـر، وأنـا بـكل صـدق، مستسـلم لتلـك المحـاولات، بـل وصِرتُ أحـب أن أتذكـر. أجهَـزتُ عـلى ورك الفرخـة بأكملـه تلـك المـرة، ثـم صنعـت كوبًـا مـن الشـاي، وقارنتـه بلـون المكتبـة، وشربتـه ونِمـتُ في هـدوء.

اسـتيقظت بالقـرب مـن الفجـر عـلى صـوت انكسـار زجـاج صـادر مـن المنـور. شـبابيك منـاور بيتنـا تطـلُّ كلهـا عـلى سـاحة خلفيـة صغـيرة بالـدور الأرضي، وحيـث إن البيـت لا يسـكنه أحـد سـواي أنـا والسـت "هانـم" التـي تملـك باقـي الشـقق الثـلاث فيـه؛ فـلا يسـتطيع أحـد الوصـول للسـاحة الصغـيرة تلـك سـوى مـن داخـل شـقة الـدور الأرضي، المغلقـة عـلى حـدِّ عِلمـي. نظـرت مـن شـباك المنـور المطـلِّ عـلى السـاحة، فوجـدت أبلـة "نجـوى"، جارتنـا مـن الجهـة المقابلـة بالشـارع، تقـف في السـاحة الصغـيرة، تجاهـد كي تتماسـك في وقوفهـا، وتحـاول أن تلملـم قطـع مـن زجاج مكسـور عـلى الأرض ببـطء شـديد. وقفـت أشـاهدها متعجِّبًـا، كيـف أتـت إلى منورنـا في هـذه السـاعة. بعـد دقائـق طويلـة انتهـت مـن لملمـة الزجـاج، وعـادت إلى داخـل الشـقة. تعجَّبـتُ بشـدة، لكنـي لم أجـد إجابـة، فخرجـت إلى البلكونـة أشـاهد الشـارع الخـالي المريـح قبيـل الفجـر، وأشـهد لحظـة انطـلاق صـوت الشـيخ "محمـد رفعـت".

الظـلام مُغـرِق. لم تمـرَّ سـوى دقائـق حتـى ظهـرت سـيدتان مـن نفـس هيئـة السـت "هانـم"، خرَجَتـا مـن بـاب بيتنـا، تهـرولان في سريـة، وتصـدر عنهـما بعـض الضحـكات الخافتـة، ثـم اختفـت كل واحـدة منهـما إلى بيـت مـن بيـوت الشـارع في ظـرف ثـوانٍ. لم أتعـرَّف عـلى أيٍّ منهـما، لكنـي كنـت متأكِّـدًا أن أبلـة "نجـوى" لم تكـن بينهـما. عـلى الأرجـح بقيـت بشـقة الـدور الأرضي.

أمر عجيب لكنه لا يعنيني، فلن أسأل.

نظـرت إلى عمـق الشـارع، حيـث جامـع "زيـدان" الـذي اكتسـب شـارع الجامـع اسـمه منـه، ثـم تذكَّـرتُ عـم "هوجـان" وهـو يدخـل المسـجد لصـلاة العـصر، ومـا قالـه لي عـن التسـجيلات المفقـودة. شـأنه عجيـب، لمـاذا يؤرِّقـه أمـر كهـذا في نهايـة حياتـه! أتفهَّـم وأقـدِّر مـا يشـعر بـه، الأمـور العالقـة تثـير غضبـي أنـا أيضًـا في بعـض الأحيـان، لكنـه يبـدو بائسًـا في مسـعاه، لمـاذا إذًا؟

عـم "رجـب" جـاوز الثمانـين، لم ينجـب عـلى مـا أذكـر، وماتـت زوجتـه منـذ سـنوات، ومـع ذلـك مـا زال بإمكانـه إيجـاد أمر يسـعى إليـه. يضـع لنفسـه هـدف ومَهـمَّات، مـا زال يحـاول تحقيـق هـذا الهـدف. هـل يكتمـل لـه المعنـى إذا مـا وجـد تسـجيلات الشـيخ المفقـودة؟ لكـم سـعى لأهـداف أخـرى قبـل هـذا، هـل حقَّـق منهـا شـيئًا؟ هـل اكتمـل لـه المعنـى أبـدًا؟

انطلق صوت الشيخ الحبيس في الشارع مُعلِنًا قرب الفجر، وعدم صحة ما يدور في رأسي، أو عدم جدواه بالأصح. فهدأ ذهني، وانشرح قلبي وعدت للسرير.

الشارع يُخفي أكثر مما يُبدي.

***

30

بعد أيام، تلقيت مكالمة من موظفة الوزارة العجوز، تبارك لي قبولي في مدرسة "نجيب محفوظ" كمدرِّس متطوِّع لمادة الفلسفة. كل ما عليَّ فعله فقط هو أن أتوجَّه لإدارة المدرسة يوم الأحد وأقدِّم نفسي للمدير، فسيراني ويفعل ما يلزم.

أجَّلتُ انتقام "أحمد عاكف" حتى ينضج، وصفَّيتُ ذهني، وأخذت أتحضَّر لأول أيامي. ليس لديَّ أدنى فكرة عمَّا ينتظرني، ولا عمَّا سيكون مطلوبًا مني، ولا عدد الحصص التي ستوكل إليَّ، إن كانت هناك حصص من الأساس، كنت أشكُّ أصلًا في وجود طلاب في تلك المدرسة. لكن يمكنني أن أتحضَّر نفسيًّا على الأقل إذن.

استيقظت يوم الأحد في الخامسة فجرًا. لبست تي شيرت أسود ومن فوقه سترة رمادية أنيقة. قد أكون متأنِّقًا بشكل زائد، لكن سيكون لديَّ دومًا اختيار خلع السترة لأكون على

المستوى المطلوب. قد أبرد قليلًا، لكن التي شيرت الأسود دائمًا ما يكون مناسبًا. أخذت كل وقتي في صنع كوب مثاليٍّ من الشاي، قارنته بلون المكتبة، وخرجت به إلى البلكونة. أشعَّة الشمس الضعيفة تفشل في الوصول إلى أركان الشارع بسبب القُبَّة القماشية. الحياة تدبُّ في الشارع ببطء. فتى الكوسة وصل مع أمه وفرشت له الفرشة في دقائق ثم رحلت. وصل فرَّاش المدرسة الذي لم ألحظه من قبل. تجاوز الفرَّاش فتى الكوسة وعربته، وفتح البوابة. فدبَّ الحماس فيَّ، وانتشيت قليلًا، فهممت وأعَدتُ الكوب الفارغ إلى المطبخ، وغادرت الشقة.

في طريق النزول، رأيت باب الست "هانم" مفتوحًا. لا أريد أن أتعطَّل، الساعة كادت تدقُّ السادسة. تنهَّدتُ وتابعت النزول. مررت من أمام الباب، وألقيت نظرة خاطفة، فرأيتها تجلس على كرسيها الوثير، وفي يدها المرخية على يد الكرسي سيجارة لم تسحب منها نفسًا واحدًا، تنظر إلى السقف مبتسمةً هادئةً. لم تنتبه حتى لمروري، فانتهزت الفرصة وهربت نزولًا.

عبرت الشارع في أربع خطوات. تخطَّيتُ فتى الكوسة وعربته. كان الفتى نائمًا على أحد الأقفاص. دخلت من البوابة إلى الحوش، وكان الفرَّاش يكنسه، فقاطعته:

- صباح الخير.. أنا الأستاذ "عيسى عبد السلام" المدرس الجديد.
- أهلًا وسهلًا.. ممكن تنتظر هنا على الدِّكَك لحد ما يفتحوا أوضة المدرسين!

أومأت، وسِرتُ عبر الحوش إلى دِكَك مرصوصة على الجانب الأيسر، فجلست. الحوش أصغر ممَّا توقعت. لا يسع في تصوُّري إلا لأربعين طالبًا على أقصى تقدير. تفحَّصتُ المبنى المواجه للدِّكَك. ثلاثة أدوار، كل دور به فصلان، وهذا هو المبنى الوحيد بالمدرسة.

عُدتُ لأراقب الفَرَّاش، وأعُدَّ مَهامَّه. مهنته مُتعِبة حقًّا، لكنها محدودة الأعباء. فبخلاف مسؤولية فتح البوابة في موعدها، لا خطورة إن قام بعمله أم لم يَقُم به. لولا ارتباطي بخطة الدكتور "ثابت"، لكانت مهنة كهذه مثالية لي.

بعد ربع ساعة، ظهر أحد المدرسين، رجل خمسيني، قصير، حليق، يرتدي قميصًا بنِّيًّا من الحرير، وبنطلون أسود من القطيفة. يمشي بحماس وسرعة، ويخرُّ العَرَقُ من كل مسام جسده، وتفوح منه رائحة كولونيا الحلاقة...

- صباح الخير يا عم "بيومي"!
- صباح الفل يا أستاذ "أبو الخير"!

نظر لي الأستاذ، وابتسم وأومأ محييًا، فبادره الفَرَّاش بالتعريف:

- الأستاذ "عيسى".. المدرس الجديد يا أستاذ "أبو الخير".

أقبل المدرس عليَّ، وصافحني:

- تشرَّفنا.. مدرس عربي؟
- لأ فلسفة!
- تبقى مش منافس.. اتفضَّل معايا!

ابتسمت، فابتسم. وتركنا الحوش، وصعدنا إلى الطابق الثاني. أخرج الأستاذ "أبو الخير" مفتاح الغرفة من جيبه، وفتح القفل ودخلنا. جلس على المكتب الوحيد فيها، وأشار لي كي أجلس على أحد الكراسي المرصوصة حول طاولة خشبية عريضة.

- شكلك أكبر من سن التعيين!
- لا.. أنا متطوِّع.
- همَّ بيقبلوا متطوعين في نص العام الدراسي؟
- يبدو كده!

كان يبدو مرتابًا بعض الشيء، ويحاول أن يغطي ارتيابه بأحاديث خاوية، لكنه لم يكن مرتاحًا. لو كنت مكانه لارتَبتُ في أمري أيضًا. فحاولت أن أقدِّم كلَّ ما علَّمَتني إياه "فيونا" من لغة الجسد كي أُشعِره بالراحة، لكني فشلت بالطبع. فسألت يائسًا:

- هو الناظر بيتأخر عادةً؟
- بالعكس.. هو على وصول أكيد!

انتهت محاولاتي. لم أكن أبدًا مديرًا جيِّدًا للحديث. فتولى هو الدَّفَّة هذه المرة:

- الأستاذة "نشوى" مدرسة التاريخ هي اللي بتدرس الفلسفة حاليًّا.. انت هتشيل عنها حمل كبير.
- مَعنديش فكرة.. متهيألي كل شيء هيبان لما أقابل الناظر!
- إيه رأيك في كوبايتين شاي بحليب؟!

أومأت موافقًا، فابتسم "أبو الخير"، ويبدو أنه ارتاح لي أخيرًا لمجرد الموافقة على كوب شاي بالحليب، كوب واحد كان كفيلًا بالمهمة التي لم تنجح فيها ربع ساعة من الحديث. كذلك هي قوة الشاي، حتى وإن كان مخلوطًا بالحليب.

حضر عم "بيومي" في منتصف الكوب، وأخبرني أن الناظر وصل وسأل عني.

***

31

في تمام السابعة، دخلت مكتب الناظر المنتظر. اللافتة تشير: "طلال السيد". مكتبه هو المكتب الأخير برواق الدور الأخير. حيلة شهيرة في الإدارة، تُضفي نوعًا من القدسية والجَلال لصاحب العمل، لا أظنه يعلم شيئًا عن تلك الحيلة، لعله حين تولَّى المنصب كان المكتب في نفس الموقع فبقي فيه.

قابلني بشكل رسمي بعض الشيء، ترحيبه كان جافًا لكني لم أجده مؤذيًا ولا مُنفِّرًا، بل مناسبًا جدًّا، كذلك أفضِّل أن تكون علاقتي به، على أن تكون مثل علاقتي بـ"أحمد عاكف"، ودودة لكن يدبُّ العطب فيها.

الناظر ضخم، له هيئة رجال الأعمال، لم يَبدُ مُهتمًّا في حديثه أبدًا، لكنه عرَّفني بنظام العمل، وعدد الطلاب، وأماكن إثبات

الحضور والتوقيع، والحسابات، وأيام تقاضي المرتب، وكل ما سأحتاجه في رحلتي اليومية والأسبوعية والشهرية، بل والسنوية داخل المدرسة. كأنه يعدُّني لتكون هذه المقابلة هي الأخيرة بيننا. فإن سار كل شيء كما يجب، لا داعي لأن نتقابل مجدَّدًا.

بعد دقائق من الحديث، طُرِق الباب، ودخلت سيدة أربعينية، بخمار رمادي، لها بشرة قمحية، ووجه مستدير، وأنف مفلطح. عرَّفني بها الناظر:

- أستاذة "نشوى حمادة".. تاريخ وفلسفة!

وعرَّفها بي:

- أستاذ "عيسى عبد السلام".. فلسفة!

وكانت خطَّته واضحةً لا تحتاج لأي تدخُّل منه فيما بعد. سأتواجد مع "نشوى" في حصص الفلسفة لما تبقَّى من التِّرم، حتى أتعرَّف على الطلبة والمنهج و"ديناميكيات العمل" على حدِّ وصفه. ثم، وببداية الترم الثاني، تتحوَّل حصصها وتدريس المادة بشكل كامل لي. وفور أن خرجنا من غرفة الناظر، رحَّبَت "نشوى" بوصولي ترحيبًا حارًّا في الرواق، وبدأنا نسير في اتجاه غرفة المدرسين. تحدَّثَت بحماس كأنها تتحدث إلى نفسها:

- ياااه.. أخيرًا بقى عندنا مدرس فلسفة.. أنا كنت فقدت الأمل أنهم يعيِّنوا حد!
- ماهم ما عيِّنوش حد.. أنا تطوَّعت!

توقَّفَت، وفغرت فاها في ذهول:

- تطوَّعت! ليه؟

- باحب التدريس تقريبًا!
- انت درِّست كام سنة قبل ما تيجي هنا؟
- كنت معيد في الجامعة سنتين قبل ما..
- الجامعة! أنت عمرك ما درست في مدرسة قبل كده؟
- لأ!
- تبقى ما تعرفش التدريس يا أستاذ "عيسى".. إحنا هنا ما بنعلِّمش حد.. إحنا هنا بنقول الكلام وندعي في سرنا إن الحصة تخلص من غير ما عيِّل يموِّت عيِّل تاني.. التدريس اللي أنا أعرفه.. بطلبته وظروفه ومرتباته.. لا يمكن حد يحبه!
- وبتدرسي مادتين؟!
- غلطة عمري.. يا ريتني اتشلِّيت قبل ما أوافق أحل محل مدرس الفلسفة اللي فات.. الله يخرب بيت زيادة المرتب.. الإنسان عدو نفسه يا أستاذ "عيسى"!
- يبقى الحمد لله إني تطوعت!
- ده الحمد لله قوي.. أنت راجل محترم.. أبوس إيدك.. ما تسيبش المدرسة قبل ما أنا أسيبها.. أنا مش هاستحمل الجدول ده تاني!
- ما تقلقيش.. ما اظنِّش إني هامشي قريب!

***

32

عدت إلى غرفة المدرسين، وجلست دون مهام سوى المراقبة. الغرفة ليس بها ما يكفي من المدرسين لتدريس كل المواد، كيف يتمُّ توزيع هذا الكم الهائل من المواد على هذا العدد الضئيل من المدرسين، ليس الأمر في دائرة اهتمامي على أي حال. عرَّفني الأستاذ "أبو الخير" بالحاضرين، وعرَّفهم بي. ليس بينهم سيدات سوى "نشوى". جلست على المائدة الخشبية العريضة بالقرب من "أبو الخير"، أقلِّب في موبايلي حتى رحل كل مدرس إلى حصته في تمام الثامنة.

دقَّ جرس الحصة الثالثة، ومرَّت "نشوى" بالغرفة كي تصحبني، وذهبنا للفصل سويًّا. دخلت الفصل خلفها. لم يكن فيه سوى أربعة طلاب. جلست "نشوى" على الكرسي أمام طاولة المدرس، وأشارت لي أن أسحب كرسي من الرواق قبل أن تغلق الباب، لأجلس عليه في نهاية الفصل. أطعت في صمت. سألت "نشوى" الفتيان الأربعة عن باقي زملائهم فأخبروها أنهم على وشك الوصول، وبأن عليها أن تبدأ على أي حال، وكأنهم موقنون أن شيئًا لن يختلف إن سمع الغائبون كلامها أم لم يسمعوه.

أغلقت "نشوى" الباب وبدأت الشرح. وهنا بدأت مَهمَّتي. أراقب ما يحدث. لكنَّ شيئًا لم يحدث. إن حدَّقت في المشهد بما يكفي قد ترى فيه لوحة من لوحات عصر النهضة. ستة

أفراد حاضرون في مكان واحد، كل فرد منهم يهيم في ملكوت منفرد لا يعلم بوجود الآخر، لا الفتيان الأربعة يرون "نشوى"، ولا تراهم هي بدورها. صوتها له تردُّد لا تلتقطه آذانهم، والأحرف المنقوشة على السبورة كأنها من نقوش حضارات المايا. واستمرت "نشوى" في قطار حديثها، تتحدث مع كائنات خفيَّة في بُعدٍ آخر. وهي على علم أنه لا سبيل للتأكد من وصول كلامها إليهم على أي حال، فلا داعي سوى لإتمام قولها وإثبات خروجه من رأسها حتى تكتمل مَهمَّتها.

ما زاد الأمر إرباكًا لي هو عدم اهتمام الجميع، بعدم اهتمام الجميع. لم أتحدث بالطبع، ولم أتدخل، ولم أعلِّق. التزمت بمَهمَّتي فقط؛ الملاحظة.

بعد ربع ساعة من بداية الحصة، طُرِق الباب، ودخل فتى الكوسة، يرتدي قميصًا كاكي كالحًا من فوق البلوڤر البني الذي كان يرتديه حين رأيته نائمًا على الصناديق أمام الباب في الصباح. اعتذر الفتى ولم ينتظر الرد، بل تابع السير إلى إحدى الدِّكَك خلف الدِّكَّتين الملآنتين مباشرةً. فجلس وفتح كتابًا في يده، وبدأ يداول النظر بينه وبين السبورة في صمت.

فتى الكوسة طالب بالمدرسة. تَوافُق مُذهِل.

بدأت أولي اهتمامًا أكبر بالفتيان، الذين صاروا خمسة، وأتفرَّس فيهم. بدأ أحد الفتية الجالسين يعبث مع فتى الكوسة، ويرازيه خفية، وظل الفتى يقاومه وهما يضحكان،

يبدو أنهما صديقان. وذلك بالطبع في بعدهم الآخر، بعيدًا عن اهتمام "نشوى".

انتهت الحصة، وخرج الطلاب الخمسة، فلملمت "نشوى" أشياءها، وأشارت لي بالرحيل، فلحقت بها. وفي طريقنا لغرفة المدرسين، سألتها:

- هو ده العدد بس؟
- الباقي بياخدوا دروس خصوصية.. ومفيش حاجة تستدعي حضورهم.. تالتة ثانوي بقى انت عارف!

***

33

انتصف الأسبوع، وتقلَّص عدد الطلاب إلى ثلاثة: فتى الكوسة، "محمود"، وصديقه الذي كان يرازيه، "خالد"، فتى أسمر، خفيف الظل، طويل بشكل مفاجئ. وثالثهما "إمام"، فتى غامض، صامت معظم الوقت، يطلُّ غضبٌ كامن من عينيه، لكنه يبدو على وفاق مع الفتيين الآخرين. كانوا يدخلون متفرِّقين ويخرجون مجتمعين؛ عملًا بالنصيحة اليعقوبية. لم يبدُ أيٌّ منهم مهتمًّا بالقدر الكافي لما كانت تقوله "نشوى"، لكن ثلاثتهم على الأقل كانوا مهتمِّين بالتواجد في المدرسة؛ فافترضت

بشكل بديهي أن توفير مصاريف الدروس الخصوصية كان أمرًا عصيًّا عليهم، ولا مفرَّ من حضور الحصص ولو بنصف انتباه.

حضرت يومها حصتين للفلسفة مع "نشوى"، وبنفس الطريقة، ولكن للصف الأول الثانوي. الوضع مختلف بعض الشيء في هذا الصف، فالعدد كان أكبر بكثير من حصص الصف الثالث الثانوي. لا يهتم أحد بما يحدث في هذا الصف، ولسبب وجيه؛ فالنتائج فيه غير مهمَّة، والامتحان لا مغزى منه، صَفٌّ أشبه باستراحة المحاربين، لا يُبنى على شيء، ولا ينبني عليه شيء. كل حرف كانت تقوله "نشوى"، أو سأقوله أنا، سيظل غير ذي أهمية.

جلُّ ما كان يسترعي اهتمام المدرسين، والأهالي، والطلاب، والوزارة ذاتها، للصف الأول الثانوي، هي تلك الأوراق المزمومة في الملزمة الأنيقة البائسة، التي يعدُّها المدرس المسؤول بالقرب من الامتحان، ليحفظها الطلاب الثلاثون، وينسخ كل طالب منهم جزءًا منها في الامتحان. فيتفوق مَن يتفوق، وينجح مَن ينجح، شريطة ألَّا يرسب أحد.

ولهذا شعرت بالانفصال الكامل عن هذا الصف. انتقى عقلي عدم الاهتمام، على أن أتلقَّى الطلبة القادمين منه بعدها بسنتين في الثانوية الحقيقية، عسى أن أجد الحدَّ الأدنى من الاستعداد للتواصل الذي ارتأيت أني قد أجده مع الطلاب الثلاثة: "محمود" و"خالد" و"إمام"، في الصف الثالث.

بحلول الخميس، كنت قد انشغلت تمامًا بالطلاب الثلاثة، وصرتُ مُستعدًّا للبدء في حصصي معهم، لكن تعليمات الأستاذ "طلال" ناظر المدرسة، كانت واضحة. تبادُل الحصص مع بداية التِّرم الجديد، ولا مَهمَّات لديَّ حتى تلك اللحظة سوى المزيد من الملاحظة داخل الفصل.

أمَّا خارج المدرسة، فشعرت أن الوقت قد حان لبدء خطة الانتقام من "أحمد عاكف". لا سبيل إلا أن أكسب بعض الوقت، أن أُشعِره بأن كل شيء على ما يرام، وبأني صِرتُ من فريقه، أو على الأقل بأن مسعاه بإرسالي للطبيبة النفسية صديقته قد نجح. قد يفيد هذا الأمان في الاقتراب منه ومعرفة المزيد عنه. النفاق أيضا سيُجدي معه نفعًا بالطبع، لكنه لم يكن أبدًا من أدواتي، على العكس، فلديَّ حساسية تجاهه، لا يمكنني أن أصطنع قربي أو اهتمامي بأي شخص، بل إن لي عددًا لا بأس به من الإخفاقات الإنسانية والعاطفية التي لم أتمكَّن فيها حتى من أن أبدي الاهتمام بأشخاص أحببتهم بالفعل.

استغللت يومي الطويل الهادئ، ومهامي الضئيلة في المدرسة، واتصلت به في وقت الفسحة، وطلبت منه رقم الطبيبة النفسية الذي رشَّحها لي، قلت له بأن رقمها قد ضاع مني، فبدا صوته يرقص في الهاتف. لا بأس. يجوز أن أجاريه وأوافق على اقتراحه وأُشعِره بأن اليد العليا قد حيزت له. فهي مجرد خطوة قد تمدُّ خيط للحوار بيننا.

وكان ترشيحه لطبيبة بالمعادي تُدعى "علا وهبي". حجزت موعدًا معها يوم السبت، وتعجَّبتُ لوجود موعد بهذا القرب، لا تبدو طبيبة ماهرة، وإلا لكان جدولها مشغولًا بقدر أكبر.

انتهى اليوم المدرسي، وفي المساء، بدأ موعدي الليلي مع أفكاري...

***

34

لسنوات طويلة، لازمتني نوبات القلق، وفي بعض الأوقات كانت تتطور لنوبات فزع. إلا أن وظيفتي الجديدة مكَّنتني من التَّخلُّص منها لسبب لا أعرفه. اختفت النوبات تمامًا. لكن الفراغ كان على الدوام بطلًا حاضرًا.

الفراغ... منبت الملل.

كان لدى طبيبي الأول، الذي توقَّف عن ممارسة المهنة -بسبب الملل على ما أظن- حيلةٌ قديمة. لم تكن حيلةً خفيَّة على أحد، ولا حتى مستحدثة، لكنها كانت فعَّالة في معظم الأوقات؛ وهي ملء الفراغ. كل الفراغ. من اليوم، ومن الأسبوع، بل ومن العمر كله إن أمكن، بنشاطات، حتى وإن كانت غير مهمَّة؛ كي لا يقع عقلي في دوَّامة الاكتئاب.

وقضيت سنوات من التمرين على هذه الحيلة حتى أتقنتها، وعرفت ميزاتها وعيوبها وخباياها، ولما لم تنجح، تساءلت؛ لماذا

كل هذا الوقت من الأصل؟ لا يمكنني أن أملأ كل هذا الوقت، آفة حياتنا الحقيقية هي الوقت. كل تلك الوحدات الزمنية اللا نهائية التي حصل عليها الإنسان في بداية حياته، وصار مُجبَرًا على ملئها، دون دليل واضح عن كيفية القيام بذلك. فبالطبع، وبشكل حتمي، لم ينجح في المهمة. وانتهى الأمر بفائض مهول منها، وعندها نشأ الملل.

الملل هو مصدر كل الشرور. هو الأزمة الحقيقية للإنسان العاقل. كل ما مرَّ بالبشرية من مصائب ومكائد، وحروب وصراعات، وأهداف وهمية، وجوائز خاوية، وانتصارات زائفة، التاريخ الإنساني كله بشكل ما، لم يحدث إلا لأن الإنسان شعر في إحدى اللحظات بالملل.

لذا فحيلة معظم الأطباء النفسيين الذين زرتهم كانت المُشتِّتات، للانصراف عن السبب الأكبر... الملل. قد لا تكون الحيلة مفيدة على المدى الأبعد، لكنها مجرد حيلة مؤقَّتة كي لا يرى الإنسان الفراغ، ولا يلحظ الأفق المعتم. كي لا يدرك العدم الذي يحيط بكل شيء، أو يحدِّق فيه طويلًا، فيبتلعه.

في أحد النقاشات النادرة، اتفقت أنا والأستاذ "سليمان" أن العالم مكان عشوائي لا معنى فيه. لكن علينا، مع الأسف، أن نواجهه، ونحدِّد اختياراتنا فيه ونقيِّمها دون دليل أو معيار واضح. علينا أن نعاني في الطريق الضبابي للوجود، ونقرَّ بأن أكثر القرارات مصيرية في الحياة سيتوجَّب علينا أن نأخذها دون أي قواعد عقلانية أو منطقية، ومهما بدا الأمر عكس ذلك في بعض الأحيان، لكننا سنسلِّم في النهاية بأننا في ظلام لا نهاية له.

لكننا سرعان ما اختلفنا في الخطوة التالية، وما يتوجَّب على الإنسان فعله بناءً على تلك القناعة، هل يخلق المعنى بنفسه ثم يلتزم به؟ أم يسلم بأن الحياة لن تقدم له أي إجابات، ويثور على طبيعته في الميل للبحث عن المعني وخلق الهدف؟ فيسمو ويهدأ ويستمتع.

حسنًا، سأعود لحيلة طبيبي الأول. فبعد زيارات المزلقان التي كانت تملأ يومي وانتهت إلى غير رجعة. وجب إيجاد مُشتِّت آخر. يمكنني بالطبع أن أنام، لكني لم أتمكَّن أبدًا من أنام قدر ما أردت. كنت أحاول، لكني في النهاية كنت أستيقظ، هذا ليس بحلٍّ، يجب الوصول لإلهاء حقيقي.

وكأي عجوز شمطاء، خرجت إلى البلكونة في التاسعة مساءً أراقب حركة أهل الشارع، وعلى رأسهم فتى الملابس الداخلية.

***

35

كانت المرة الأولى التي ألقي اهتمامًا أكبر لفتى الملابس الداخلية حين لا يكون منتشيًا بخفَّة ظلِّه، أو مهتاجًا بنداءاته.

الوقت تأخَّر قليلًا، وجلس الفتى مُجهَدًا يرشف كوبًا من الشاي بجانب النصبة، وقد هدأ الزحام الذي كان يحاوطه في منتصف النهار. ظهرت بعد دقائق فتاة في بشاير العشرين،

دخلت الشارع من على ناصيته، مرَّت تتبختر من أمام نصبة الفتى حتى وصلت لطشوت الجبن القريش، والسيدة البدينة التي تجلس أمامها. ظننتها زبونة في البداية، لكني سرعان ما تذكَّرتها، هي "ماري" ابنة "أم منير" سيدة الجبن القريش. كبرت وصارت فاتنةً مليحة، هادئة الطَّلَّة، ابتسامتها المطمئنة لا تفارق وجهها، رشيقة القوام على عكس أمها. كانت طفلة قبل أن أسافر، وكنتُ أنا شابًّا حينها. حوَّلَت السنين "ماري" إلى إحدى أجمل الفتيات التي رأيتها في حياتي، وحوَّلَتني أنا لعجوز بائس، يراقبها ويراقب مَن يراقبونها من بلكونة بيته.

كانت أنظار رجال الشارع، وروَّاد محل عصير القصب على الناصية، وحتى النساء في محل بيع الذهب الصيني الملاصق لبيتنا- كلها معلَّقة بـ"ماري"، وبكل حركة تصدر عن جسمها. وللحظة عابرة، كانت تلاحقها أنظاري أنا أيضًا، لكني بعد لحظات الافتتان، نظرت عكس الاتجاه الذي ينظر فيه الناس. ورأيت فتى الملابس الداخلية يداول أنظاره بين تحرُّكات "ماري" وبين الرجال في الشارع من حولها، يحاوطها ويحاول أن يحميها، بعزمٍ وهمي بائس، لكنه بدا كأنه لا يملك دون هذا العزم شيئًا، بل وازداد أمره بؤسًا بنظرة الأسى التي اعتلت وجهه كونه لا يملك أن يمنع أحدًا من النظر إليها، عاشق مفضوح، وحيد مشغول عن النظر إليها بمنع عيون الناس عنها.

وصلت "ماري" إلى طشوت أمها، فقامت الأم من مجلسها شبه الأرضي بصعوبة، وأملت على ابنتها بضع وصايا، ثم تركت لها الطشوت وغادرت. فبدأت "ماري" في رصِّ الطشوت الفارغة

وشطفها بالماء، ثم التفتت في اتجاه فتى الملابس الداخلية، ودون أن تشير أو تطلب، قفز الفتى من مجلسه، وجاء ليصبَّ لها الماء لتغسل به يدها، ويساعدها على رفع الطشوت فوق رأسها، ويتبادلا النظرات والابتسامات المزمومة في سعادة مفرِطة وصمت بليغ. غادرت "ماري" الشارع في نفس الاتجاه الذي دخلت منه، تحمل الطشوت المرصوصة على رأسها بعناية، عالِقًا بذيل عباءتها انتباهُ كلِّ بصَّاصي الشارع، وفي يدها قلب الفتى المبعثر المفطور.

أجدت الجرعة المضاعفة من الدواء في حمايتي من الجنون، إلا أنها لم تفلح في إنقاذي من التعاطف مع زملائي في مظلومية الوجود. أظنُّ أنه طبع مصكوك في صدري، لا دواء له.

انتهى المشهد وعادت كل بهيمة إلى ساقيتها. وبعد دقائق، ظهر عم "رجب هوجان" عائدًا من الجهة الأخرى من الشارع، جهة جامع "زيدان". فقفزت إلى ذهني على الفور أزمته مع الشيخ "محمد رفعت"، وأخرجت هاتفي وأجريت بحثًا أوسع وأدقَّ من البحث الذي أجريته معه منذ أيام. لكني مرة أخرى لم أجد شيئًا.

الأمر مُقلِق حقًّا، لا أثر للتسجيلات المفقودة على الإنترنت، ولا تذكر المنتديات أي خبر، لا يبدو أحدهم قَلِقًا من هذا الأمر، واصلت البحث، البرامج، الصفحات، مهاويس الشيخ ودراويشه، لا أحد يعلم عن المفقودات شيئًا. لعل الأمر في يد حفيدته بالفعل. بحثت عنها، فوجدت لها لقاءً تليفزيونيًّا تذكر فيه

ما قاله عم "رجب" بالضبط. لديها فعلًا تسجيلات لم تُطرَح في أي مكان من قبل، كيف يمكنني أن أصل إلى تلك التسجيلات، أو حتى لنسخة أخرى منها، لأساعد عم "رجب"؟ ليس لديَّ أدنى فكرة. معضلة مؤرِّقة حقًّا، وأنا الذي لا ناقة لي في الأمر ولا جمل، فما بال عم "هوجان" وهو المهووس بالأمر، لا بُدَّ أنه في قمة الإحباط، لقد ذكر أنه سيتصرَّف.

نزلت لأزوره قبل أن يخلد للنوم.

***

36

بيت عم "رجب" أصغر من بيتنا، الذي هو من الأساس صغير. شقق الدور الأرضي في شارعنا، وفي المنيرة كلها، لا تختلف كثيرًا عن بعضها البعض. لا صالة فيها. يستقبلك الرواق من باب الشقة مباشرة إلى أربعة أبواب على نفس الجهة. غرفتان ومطبخ وحمام. الأولى للضيوف والثانية للنوم.

استقبلني "هوجان" بودٍّ لا يخلو من الارتياب، ثم أجلسني في غرفة الضيوف. صالونها قديم تغطيه بيَّاضات مشجَّرة قاتمة، وفي ركنها طاولة متوسطة الطول عليها تليفزيون قديم. وعلى الحائط المقابل للشباك المطلِّ على الشارع رفٌّ مُعلَّق فوق أحد كراسي الصالون، عليه صندوق خشبي أنيق ضخم، وكاسيت "كاسيو" متين الصُّنع، يعود تصميمه إلى الثمانينيات.

جلست على الكرسي المقابل للرَّفِّ، وفتح "هوجان" الشباك، وشرّع الشيش. فبادرت بسؤالي عن صحته، وعن امتناني لتسجيلاته التي يبارك بها فضاء الشارع في الفجر. فشكرني ولم يستطرد، بل قضم الكلمات في إشارة واضحة للريبة ممَّا يدور، فلم أماطل:

- أخبار التسجيلات اللي ناقصة إيه!
- آهو... لسه باسعى.
- أنا ممكن أساعدك!
- إنت!
- آه...
- لا متشكر.
- ليه بس!

بدا متردِّدًا، لكنه تابع بعد أن نظر أرضًا وهو يحاول تجنُّب النظر لي:

- أصل انت ما تآخذنيش يعني...
- ... أنا إيه؟
- ما بتصلِّيش!
- أنا!
- أيوه...
- مين قال؟

- جيت معايا لحد باب الجامع وما دخلتش!

رسمت الإحراج على وجهي واصطنعت ابتسامة التائب:

- شيطان يا عم "رجب"... ادعي لي ربنا يهديني!
- ربنا يهديك... بس ما تآخذنيش.. إيه اللي يزنقك في حكاية زي دي.. مش سكتك يعني!

كذبت:

- أبويا الله يرحمه كان بيحبك يا عم "رجب" وكان بيحب الشيخ "رفعت"... لو كان عايش كان قال لي أساعدك!
- أبوك! "عبد السلام" كان حبيبي آه.. بس لو كان عايش ولا كان هيحرَّك شعرة عشان يساعدني.. شوف غيرها!

ابتسمت وصمتُّ طويلًا ثم استسلمت:

- بصراحة يا عم "رجب".. أنا من يومين صحيت على صوت الشيخ "رفعت".. لحقني من كابوس كان هيكتم نفسي.. ومن ساعتها وأنا ندرت ندر إني أساعدك في أي حاجة تحتاجها.

تفرَّس فيَّ طويلًا، ثم سأل:

- كان إيه؟!
- هو إيه؟
- الحلم!
- إشمعنى؟

- مش عايزني أصدقك؟
- آه...
- إحكي لي الحلم!
- حلم زي أي حلم!

صمت ولم يرُدَّ ونظر لي، فحكيت:

- هـو.. زي مـا أكـون كنـت باغـرق.. وماكنتـش عـارف آخـد نَفَـسي.. وعَـمَّال أنـزل في بحـر ضلمـة.. وأبويـا ظهـر وشـافني.. وكنـت فاكـره هيلحقنـي.. بـس مـا لحقنيـش.
- من نفسه واللَّا فيه حاجة منعته؟
- ... فيه راجل تاني منعه!
- تعرفه؟
- شفته مرة أو مرتين!
- عايش؟

ارتفعت دقَّات قلبي فور أن تذكَّرتُ موت الدكتور "ثابت":

- ... لأ مات!
- وبعدين...
- بعدين سمعت صوت الشيخ "رفعت"... وصحيت!

هـدأ العجـوز أخـيرًا، وظهـر عليـه الرضـا النسـبي. فقـام مـن مجلسـه وسـحب الصنـدوق الأنيـق مـن عـلى الـرَّفِّ المقابـل لي، ثـم وضعـه عـلى طاولـة المنتصـف، وفتحـه بعنايـة، فظهـر الكنـز.

صفـوف وصفـوف مـن شرائـط الكاسـيت، كلهـا مـن نـوع وطـراز واحـد، وعـلى كل شريـط منهـم ورقـة مُصفـرَّة مخطـوط عليهـا أسـماء السـور التـي يحملهـا الشريـط، وأرقـام الآيـات، وتاريخ التسـجيل، ومناسـبته، بقلـم خطَّـاط عـربي ماهـر. وفي الجانـب الأيمن مـن الصنـدوق، وقفـت ورقـة مـن الكرتـون المقـوَّى عـلى حافتهـا، فسـحبها بعنايـة أكـبر، وناولنـي إياهـا، وهـو يشـير إلى فهرسـت مفصَّـل جامـع لـكل محتويـات الصنـدوق، في هيئـة جـدول مُسـجَّل بنفـس الخـط البديـع، بتسلسُـلٍ وأرقـام وتواريـخ الشرائـط، ومـن بـين صفـوف الجـدول أشـار مسـتاءً إلى بعـض الخانـات البيضـاء الفارغـة، التـي قبعـت في انتظـار القطـع المفقـودة مـن التسـجيلات.

مـلأني التعاطـف والأسى تجـاه العجـوز الحـالم، ووجهـه الـذي شـعَّ ضيـاءً، وانبسـط فخـرًا بكنـزه المهيـب. ثـم أرخـى ظهـره عـلى كرسـيه وهـو يشـاهد انبهـاري بالصنـدوق وأنـا أتفحَّصـه، وبعـد مـدة تابـع الحديـث:

- عندي سكة.. يمكن تنفع...
- سكة للـ...؟

أومأ بالإيجاب، فتحمَّست:

- طب فين؟!

- هاعرف أول الشهر!
- ... مش بعيد!
- بس دي سكة ما اقدرش أروحها لوحدي.. محتاج حد خفيف معايا.. حد يعرف يروح ويجي!

توتَّرتُ للحظات، ولم أرد، فبادر هو:

- لسه عاوز توفي الندر؟
- ... آاا... آه بس...
- عامة من هنا لأول الشهر بِحلَّها المولى.. فكَّر ورُدّ عليَّا...
- ...
- وخلِّيك فاكر إن الشيخ "رفعت" هو اللي صحَّاك يوم الحلم.. وهو اللي جابك لحد هنا برجليك.. مش أنا!

***

37

في صباح يوم السبت، نزلت قبل موعد الدكتورة "علا" بساعة ونصف، مشوار المعادي لا يمكنني أن آمَنَ مَكرَه. خرجت من باب البيت، ومررت من أمام عربة الكوسة. كان الفتى نائمًا كالعادة، متدثِّرًا بلاسة صعيدية بنية، فوقفت وألقيت السلام، فاستيقظ ونظر لي من وسط طيات اللاسة، وعيناه تضيقان بضوء النهار:

- وعليكم السلام ورحمه الله!
- محمود.. صح؟

أومأ بالإيجاب متعجِّبًا، فتابعت:

- عارفني؟

أومأ بالإيجاب مرتبكًا، نافيًا، فرددت:

- أنا باقعد في الفصل معاكم من أول الأسبوع!

تذكَّرَني أخيرًا:

- أيوه.. صح!
- أنا مدرس الفلسفة الجديد.. أستاذ "عيسى"!
- هي أبلة "نشوى" ماشية؟
- لا.. هترجع تديكم تاريخ بس.

أومأ مرة أخرى دون اكتراث، وسألني:

- ... أؤمرني يا أستاذ!

ابتسمت، وافتعلت الطبيعية في طلبي:

- ... عايز 2 كيلو!
- ليك انت يا أستاذ!
- آه...

تمعَّن فيَّ طويلًا، ثم قال:

- هو ده بيتك؟
- آه!
- طب انت رايح مشوار؟
- آه.
- طـب روح مشـوارك وأنـا هاشـيلهم لـك.. خدهـم وانـت راجـع.

وافقـت. لـن أفعـل بالكوسـة شـيئًا عـلى أي حـال. ثـم حاولـت إنهـاء الحـوار بحميميـة سـاذجة:

- طـب أقـول لـك يـا "محمـود" والـلَّا يـا "طـه"؟ مـش اسـمك "محمـود طـه"؟
- آه... بس قل لي يا "جوافة"...
- "جوافة"!

فأشـار الفتـى إلى رأسـه التـي كانـت بالفعـل تشـبه ثمـرة الجوافة المقلوبـة، حتـى لونـه الأبيـض الشـاحب كان أقـربَ لونًـا للجوافـة منـه للبـشر، لكنـه لم يَبـدُ مسـتاءً مـن ذِكـر الأمـر، فأومـأت مبتسـمًا، وناولتـه ثمـن الكوسـة:

- ماشي يا "جوافة"!

لم أكـن أعلـم إن كان صـدَّق حيلتـي ورغبتـي الزائفـة في شراء الكوسـة أم لم يصدقهـا، لكـن لا يهـمُّ، فقـد صـار بيننـا نافـذة للحـوار لنبـدأ منهـا. ورحلـت مرتاحًـا لجلسـة الدكتـورة "عـلا"...

***

38

عيـادة الدكتـورة "عـلا" ليسـت كعيـادات زرتهـا مـن قبـل. هـي شـقة بالمعـادي، بسـيطة بشـكل مفاجـئ، أنيقـة بشـكل ملحـوظ، مريحـة للنظـر وللـروح. لم أذهـب إلى طبيبـة نفسـية مـن قبـل قـطُّ، كانـوا كلهـم رجـالًا. وفاجأتنـي اللحظـة أن سـنوات حيـاتي في الخـارج لم تُـزِل بالكامـل الحاجـزَ النفـسي بـين الرجـل الشرقـي الكامـن في عقـلي الباطـن وبـين الجنـس اللطيـف. تطـوَّرَت مهـاراتي معهـنَّ بالطبـع بفعـل السـنين، وبفعـل "فيونـا"، وصرت أتحـدث بطلاقـة أكـبر مـع النسـاء، لكـن ليـس بالقـدر الـكافي الـذي يعطينـي كامـل الراحـة كي أتحـدث عـن هواجـسي وغرائـزي وشـواردي، عـلى قـدر فجاجتهـا وتطرُّفهـا وانحرافهـا، أمـام امـرأة، أيًّـا مـا كانـت صفتهـا.

تجربـة اسـتثنائية، إلا أني لا أنـوي المـضي قُدمًـا في العـلاج معهـا مـن الأسـاس، لا أريـد منهـا سـوى أن تبلـغ "أحمـد عاكـف" بـأني حـضرت الجلسـة، وفعلـت مـا يريـده بالضبـط، لعلـه يطمـئن لي مـرة أخـرى حتـى أُتِـمَّ مـا أخطِّـط لـه. ولا مانـع مـن أن أفتـح معهـا

بـاب الحديـث عـن الدكتـور "أحمـد عاكـف" نفسـه، عـسى أن أعـرف منهـا مـا قـد ينفعنـي فيـما أنـوي القيـام بـه.

قابلتنـي مديـرة العيـادة، وطلبـت منـي الانتظـار، فانتظـرت خـارج غرفـة الكشـف لعـشر دقائـق حتـى أشـارت لي بالدخـول، فدخلـت، وكـما توقَّعـتُ، وجـدت بغرفـة الكشـف بابًـا آخـر للخـروج، حيلـة ذكيـة ومُحبَّبـة. لا أعلـم إن كان هنـاك مَـن سـبقني مـن المـرضى، أم أن انتظـاري هـذا لم يكـن سـوى بروتوكـول لإثبـات دقَّـة ومهنيـة الطبيبـة المجهولـة تمامًـا.

الجـدران ألوانهـا هادئـة، وهنـاك مكتبـة عملاقة تغطـي جدارين مـن الأربعـة، أمَّـا الجـدار الثالـث فيحمـل لوحـة مرسـومة لبغـال شـاردة في سـوق مهـدومٍ خـالٍ، جلسـت أتأمَّـل البغـال والسـوق المحطَّـم، وأحـاول أن أنسـج منهـا منطقًـا، أُخِـذتُ باللوحـة، وغصـت فيهـا تمامًـا.

جلسـت الدكتـورة "عـلا" تتأمَّلنـي وأنـا أتأمَّـل اللوحـة دون أن تقاطعنـي، لكنـي انتبهـت للصمـت مـن حـولي، فالتفـتُّ لهـا، واعتـذرت عـن الـشرود، فابتسـمت في هـدوء. كانـت تجلـس عـلى مكتبهـا غـير المنظَّـم، وأمامهـا مجموعـة أوراق، أشـبه بالكـروت، كل منهـا بحجـم الكـف. سـيدة أنيقـة، شَـعرها أبيـض بالكامـل، قصـير، "آلا جارسـون"، ترتـدي نظـارة نظـر ذات إطـار أسـود سـبعيناتي سـميك. تـكاد، في تقديـري، تـدقُّ عامهـا السـبعين، لكنهـا تبـدو في قمـة التركيـز.

رحَّبَـت بي حـين دخلـت، فجلسـت عـلى الكـرسي أمـام مكتبهـا، وبـدأت الجلسـة بالأسـئلة المعتـادة؛ الاسـم، السـن، الحالـة الاجتماعيـة، الوالديـن، الإخـوة والأخـوات، المهنـة. لم يكـن بإمـكاني أن أخبرهـا عـن مهنتـي الجديـدة، فهـي تعـرف أني مـن طـرف "أحمـد عاكـف". أجبـت:

- باحث ومعيد في قسم الفلسفة بالجامعة الأوروبية...
- أول مرة تزور طبيب نفسي؟
- لأ.. رحت كتير.
- بتاخد أدوية؟
- آه.
- نوعها؟
- دوا لامتصاص السيروتونين.. وموود ستابلايزر[1]
- مرتاح بيهم؟
- مش تعبان.. أو.. التعب بيهم محتمل!
- بتاخدهم بانتظام؟

كذبت:

- جدًّا!

(1) السـيروتونين: هورمـون تحفيـز الوظائـف الذهنيـة. يُعـدُّ نقـص امتصاصـه أحـد مُسـبِّبات الاكتئـاب؛ لـذا يُطلَـق عليـه بشـكل دارج "هورمـون السـعادة".
- موود ستابيلايزر: دواء لاستقرار المزاج الذهني.

- بقالك قد إيه ما غيَّرتوش؟
- 4 سنين.
- وآخر مرة راجعتهم مع دكتورك إمتى؟
- 4 سنين.

في تلك اللحظة، توقَّفَت تمامًا عن الكتابة، ووضعت الكروت جانبًا، وكأنها لن تحتاج لتدوين ما يلي، وأولتني كامل اهتمامها:

- جَيّ ليه النهارده يا أستاذ "عيسى"؟

حسنًا. هذا أفضل. لن تتركني أطوف بالحديث على غير هُدًى. هي تُفضِّل السؤال القاطع، الأسلوب الأحدث الذي لم يحبِّذه معظم الأطباء الذين رأيتهم، كانوا يُحبِّذون ألَّا يكون لهم أي توجيه أو بصمة أو حتى وجود في الجلسة، كانوا يتركونني أتحدث فيما أشاء، كيفما أشاء، أو لا أتحدث من الأساس، ثم يحاولون أن يستشفوا المعلومات المطلوبة، حتى من الصمت، إن لم أبادر بالحديث من نفسي. الدكتورة "علا"، على كِبَر سِنِّها، ليست من أنصار المدرسة الكلاسيكية. لا يهم على أي حال.

قرَّرتُ من البداية ادِّعاء القلق:

- أنا كنت متخيل إن دكتور "أحمد" كلم حضرتك!
- لو أسمع منك يكون أفضل!

لم تبتلع الطُّعم، فتتبَّعتُ نفس الخيط:

- هو كان شايف إني محتاج أتفاعل أكتر مع الفريق في الجامعة!
- وانت شايف إيه؟

حاولت لفَّ الدَّفَّة للقلق مرة أخرى:

- والله أنا شايف إن بقالي 4 سنين ما روحتش لدكاترة وحاسس إني كويس.. بس استغربت اهتمامه بيَّ أنا بالذات.. وحبيت أعرف هو شايفني إزاي عشان يقترح عليَّا الاقتراح ده؟
- مش لازم يكون كلامه صح.. بس تعالى نحاول نشوف الموضوع بدأ إزاي...
- بس أنا تصوَّرت إن حضرتك ممكن تكوني عارفة؟
- قصدك إنه قال لي يعني؟
- مش بالضرورة.. بس تخيَّلت إنه شيء معتاد بينكم.. وتقدري تلاقي الإجابة!
- هو أكيد مقالِّيش حاجة.. بس رؤيتك انت هي الأهم.. لو حابب تتكلم عن علاقتكم ببعض.. ممكن نقدر نلاقي الإجابة سوا...

تتفادى الحديث عنه مرة أخرى، يبدو أن المهمة ليست سهلة. جاوبت:

- مش عارف.. أنا ما اعرفوش من كتير!

- ممكن نبتدي بانطباعك الأول عنه؟
- يعني.. هو مدير ناجح وقامة كبيرة.. كل الناس بتقول كده!
- وانت موافق على الكلام ده؟

حسنًا، فلنجرِّب نفحة من التشكيك مع القلق:

- أحب أحتفظ برأيي فيه لنفسي!
- ليه؟!
- عشان حضرتك والدكتور يعني...
- أصدقاء؟
- يعني...
- طب أقدر أسألك عن مدي ثقتك فيَّ كطبيبة؟ بافتراض إنك جي بكامل إرادتك يعني!
- والله أنا باحب آخد وقتي عامة.. لسه باحاول أكوِّن صورة كاملة!

بدا عليها التَّغيُّر، واستعدَّت للدفاع، لكنها تراجعت، ثم سألت بهدوء:

- بس حضرتك ليك هيستوري مع العلاج النفسي.. أكيد عندك علم ببروتوكول السرية بين الطبيب ومريضه!
- أكيد!

- وهل ده مش كافي؟
- آسف... بس ده لا يعني لي أي شيء!

شعرت أنني ضربت على الوتر الصحيح، رأيت ذلك في عينيها، انتظرت أن تحاول أن تطمئنني، أو تفشي بعض الأسرار عن علاقتها بـ "أحمد عاكف" أثناء تلك المحاولة. لكنها على عكس ظني ابتسَمَت، ولم ترد على الإهانة، بل تابعت الحديث كأن شيئًا لم يكن:

- طب نتكلم شوية عن الأدوية؟

يا لها من عنيدة، نظرت إليها قليلًا أحاول أن أقرأها، ثم جاريت الحديث منتظرًا الفرصة التالية:

- الأدوية مناسبة جدًّا للمرحلة دي!
- الأدوية والجرعات لازم تتراجع بحد أقصى كل سنة!
- عارف طبعًا.. بس خبرتي مع الأدوية وصَّلتني لتكنيك دقيق لمراقبة مفعولها وأعراضها عليَّ.. وده بيديني مساحة إني أعدل الجرعة بنفسي.. وأظن إني وصلت لتوازن مثالي!
- بس ده مش صح.. كونك تحت تأثير الدَّوا أصلًا يخلِّي حكمك عليه قاصر!
- العلاج النفسي بشكل عام حكمه قاصر.

خرجت الكلمة مني بشكل عفوي، وبدت الطبيبة الأنيقة مندهشة. صمتت طويلًا، ثم سألت بفضول:

- ممكن تشرح لي أكتر؟

تردَّدتُ أن أتابع، لكني شعرت أن بإمكاني هزَّ ثقتها، فاعتدلت وقلت:

- يعني.. مش عايز أصدر أحكام قاسية.. أو أضايق حضرتك!
- صدقني أنا ما باتضايقش بسهولة.. بالعكس هكون مبسوطة أكتر لو سمعت رأيك!
- الحقيقة إن العلاج النفسي كعلم عمره مش كبير.. وأدوات العلاج النفسي.. حتى المعتمَد منها مَحدِّش يقدر يجزم بفاعليتها.. وسهل جدًّا نلاقي العوار فيها.
- أيوه.. بس ده جزء من قوة أي علم.. المرونة في نقد الثوابت اللي فيه بتحدد مدى قدرته على التطور.
- أقدر أوافقك لو ده كان علم نظري.. فيزيا.. كيميا.. أو حتى علم النفس.. لكن العلاج النفسي في ملايين بيعتمدوا عليه بالفعل!
- أنا أختلف شوية معاك.. الفيزيا والكيميا مش علوم نظرية.. وفي ملايين التطبيقات العملية بتعتمد عليها بالفعل.. ومع ذلك لسه بتتطور.. حتى الطب البشري

نفسه مر بالمرحلة دي.. ولولا المرحلة دي مكانش الطب البشري وصل لحاجة من اللي إحنا فيها...

- ده ما يمنعش إن اللحظة اللي إحنا فيها دي.. الشك ليه النصيب الأكبر في أدوات العلاج النفسي.. ده مش معناه إنه كعلم لازم يتوقف عن التطور.. ولا معناه إننا نتوقف عن الشك فيه!
- طب هل انت بتتكلم عن تجارب محددة جابت نتايج سلبية معاك بشكل شخصي؟
- طبعًا!
- ممكن ندردش فيها لو تحب...

***

39

توقَّفتُ للحظةٍ قبل الرد، كانت تبدو وكأنها تتحدَّاني؛ فقرَّرتُ ألَّا أتراجع:

- في مرحلة.. الدكتور اللي كنت متابع معاه قرَّر إننا نبدأ سايكو-أناليسيز[1].. وأنا بدافع فضولي ودراستي كنت

(1) العلاج بالتحليل النفسي: علاج يعتمد على دراسة العقل اللا واعي للإنسان عبر جلسات الحديث الطويلة مع المريض.

مبسوط جدًّا بالوصول لأصل كل أزمة من الأزمات اللي عندي.. وكل اللحظات اللي سبِّبت لي صدمات زمان.. وكنت مبالغ قوي في تأثير الأزمات القديمة دي عليَّا...

- إزاي؟

- يعني أكيد الأزمات القديمة كان ليها تأثير كبير عليَّا.. بس بعد كده اكتشفت إن معرفة ده مكانش مفيد ليَّا أنا بالخصوص كمريض.. وعرفت إن مفيش أي دليل علمي بيقول إن توجيه انتباه المريض لحقيقة إن حالته ناتجة عن صدمة قديمة ده هيساعده بنسبة 100%.. بالعكس ممكن جدًّا المعرفة دي تخلِّي رد فعله مبالغ فيه...

- وده حصل معاك؟

- أكيد!

- إزاي؟

- قعدت فترة طويلة مستسلم لفكرة إن كل الأمور كانت خارجة عن إرادتي.. انتباهي للحقيقة دي خلق لي عذر ومخرج للتهرب من تحمُّل المسؤولية.. وكأني كنت قاعد منتظر العدالة تتحقق.. منتظر اللحظة اللي أقدر آخد فيها حقي من العالم.. في حين إن مفيش عدالة.. مفيش حد مدين ليَّا بشيء.. كل اللي آذوني بقصد أو حتى من غير قصد.. مفيش حد منهم هييجي يرجَّع لي حقي..

ولا أنا حتى هاعرف آخده منه بالقوة مثلًا.. الموضوع كله مرهون بيَّا.. أنا اللي مطالب إني أتخطى اللي حصل.. وكان لازم أنا اللي أنجو بنفسي.

- طب كويس.. انت عرفت تخرج من الحفرة أهو!

- لا طبعًا.. كام سنة ضاعت عشان أوصل للنتيجة دي؟ وكون إني خرجت من الحفرة مش معناه إن كل الناس هتعرف تخرج منها.. كام واحد لسه غرقان في حقيقة كونه ضحية لمجرد إنه انتبه لده.. كام واحد مكانش من الصح إن طبيبه يلفت انتباهه للحقيقة دي من البداية؟

حلَّ الصمت مرة أخرى، لكنها لم تكتب شيئًا هذه المرة، تابَعَت بعد تفكير:

- يمكن يكون عندك جزء من الحق.. بس تجربة شخصية وسوء تقدير من دكتور واحد مش مقياس نقدر نقيِّم بيه العلاج النفسي ككل...

- أكيد.. بس صدَّقيني.. أنا عندي تجارب أسوأ من كده كتير.. ممكن نقعد نتكلم عنها للصبح!

- يا ريت.. أنا أحب جدًّا نتكلم عن كل التجارب دي.. بس عندي سؤال الأول يا أستاذ "عيسى".. لو دي رؤيتك للعلاج النفسي ليه استمريت؟ وليه جيّ تجرب تاني؟

- عشان مهما كان العلاج النفسي فيه عوار.. حياتنا من غيره هتبقى جحيم.. هو أكبر أمل قدَّامنا عشان نقدر نتخطَّى اللي بيحصل لنا!

صمَتَت قليلًا، وابتسمت، وسألت:

- طب تحكي لي شوية عن تجاربك التانية؟

أومأت بالموافقة، وأنا أرى منفذًا جديدًا للهجوم يلوح في الأفق. بدأت هي:

- أول مرة رحت لدكتور فيها كانت إمتى؟
- وانا عندي 28 سنة.. بعد ما سافرت أمريكا بأربع سنين.
- ماكنتش أعرف إنك كنت في أمريكا!
- آه.. كنت باحضَّر ماسترز.
- وبدأت تروح لسبب معين؟
- نوبات قلق متكررة!
- فاكر نوع العلاج اللي كنت ماشي عليه؟
- في البداية كان علاج سلوكي.. وبعدها كان في تجارب سايكو-أناليسيز زي ما قلت لحضرتك!
- والعلاج السلوكي كان فعَّال؟
- شوية.. بس ما اظنش نوع العلاج على قد ما هو الدكتور نفسه اللي كان فعَّال!
- أول دكتور؟

- آه.
- استمرِّيت معاه قد إيه؟
- سنة.
- وسِبته ليه؟
- هو اللي اختفى.. أو بطَّل الشغلانة.. ما اعرفش!
- ورحت لكام دكتور من بعده؟
- 10.. أو كده يبقى 11

لم يفاجئها العدد. ماهرة في إخفاء ردود أفعالها فعلًا. سألَت:

- أجانب؟
- كان فيهم أجانب آه...
- وبخلاف الدكتور الأول.. سبب التغيير الكتير ده كان إيه؟

توقَّفتُ قليلًا. ظهرت نافذة الهجوم. اصطنعت نبرة الناقد:

- أوقات كان بيبقى مفيش تحسُّن.. ومعظم الأوقات ماكنتش بارتاح في الكلام مع الشخص نفسه!

ابتسَمَت، وأمسكت بالقلم وكتبت في أحد الكروت. وسألتني وهي تكتب والابتسامة لا تفارق وجهها:

- زي دلوقتي؟!
- مش فاهم!
- يعني بالمقارنة بالدكتور الأول.. تقدر تقول لي انطباعك عن الجلسة دي؟

- أنا قلت لحضرتك باحب آخد وقتي عشـ..

- حتى لو كان انطباع غير مكتمل!

فكَّرتُ مَليًّا:

- حضرتك ممكن تكوني بتشتركي في الكلام أكتر شوية!

- وده مضايقك؟

- مش عارف!

- عـادة أصـلًا إيـه الـشيء الـلي بيخلِّيـك مـش عايـز تتكلـم مـع دكتـور أو حتـى مـع شـخص عـادي؟

- ... مفيش حاجة محددة.. مجرد إحساس!

- عدم الراحة مثلًا؟!

- بالظبط!

وضعـت القلـم، وعـادت لكامـل اهتمامهـا، وسـألتني كأننـا نبـدأ فصـلًا جديـدًا مـن الجلسـة:

- طـب تفتكـر الإنسـان بيحـب يتكلـم أكـتر لمـا الحـوار يكـون مريـح والـلًا لمـا يكـون حـوار مُسـلِّي أو مثـير للاهتـمام؟

مـا هـذا السـؤال؟ أخـذت وقتـي في التفكـير. ونظـرت لهـا باهتـمام. لم أفكـر في هـذا الأمـر مـن قبـل. أحببـت السـؤال:

- ... ممكن طبعًا لو الحوار مثير أحب أتكلم أكتر...

وقبل أن ترد بسؤال آخر، هاجمتها...

- بـس حضرتـك كدكتـورة نفسـية.. أظـن ارتيـاح الشـخص لازم يكـون ليـه اعتبـار في المعادلـة دي!

نظرت لي بحذق، ثم أردفت:

- أكيـد.. بـس الارتيـاح ده شيء مـش محـدَّد.. مـش ممسـوك.. انطبـاع مكتسـب.. صعـب تحصـل عليـه بشـكل مبـاشر.. مهـما حاولـت فالموضـوع في الآخـر مـش في إيـدي!

- بالظبط.. دي كيميا.. محدِّش يقدر يتحكم فيها!

- بس لأ.. ليها طرق!

- تقصدي حضرتك لغة الجسد.. والآي كونتاكت.. والمدرسة دي؟

- لأ.. دي مدرسـة أنـا مـا باحبهـاش.. وفي رأيـي مـش مفيـدة عـلى المـدى الطويـل في الجلسـات!

- موافقك جدًّا!

وددت لـو أن أخبرهـا بحـماس أني أبـدًا لم أنجـح في اسـتخدام أدوات هـذه المدرسـة. أيـن "فيونـا" لتسـمع هـذا الـكلام. إن كانـت حـاضرةً الآن أتخيَّـل شِـجارًا ضاريًـا يقـع بينهـا وبـين الدكتـورة الحكيمـة. قطعـت الخيـال وسـألتها:

- أمال قصد حضرتك إيه؟

- حوارنا دلوقتي مثلًا يعتبر طريقة من الطرق...

- إزاي!

- أقصد إننا ممكن نستبدل الراحة بحاجات تانية.. زي إننا نخلي الحوار متبادَل.. مُسلِّي.. حقيقي.. مش كلام من جهة واحدة كأن الشخص واقف على المسرح لوحده!

- بس لو المريض ما ارتاحش في المجمل.. ما اظُنِّش إنه هيشترك في أي حوار مهما كان مُسلِّي!

- مش حقيقي.. عن تجارب شخصية كتير.. الاشتراك في حوار ذكي.. أو مثير.. أو بيستفز جواك شيء من الفضول.. حتى لو كان حوار مش مريح.. ومهما كنت مش متفق مع الشخص اللي قدامك.. بيخليك تحس إنك شخص ذكي ومثير بدورك.. وبتبقى عايز تكرر الحوار اللي من النوع ده عشان تحس إحساس أفضل تجاه نفسك...

- ...

- زي حيلة المرايات اللي بتخسِّس في حمامات المطاعم والكافيهات.. بتقوم بنفس الدور.. زباين المطاعم دي بتسيب المكان وهي في حالة أفضل وإحساس غير مفهوم بالثقة في النفس والراحة تجاه المكان.. وده بيزرع جواهم رغبة في الرجوع ليه للحصول على نفس الإحساس من غير ما ياخدوا بالهم.

لم أجد كلمات للرد، وجلست أفكِّر فيما قالت. وتناولت هي القلم وعادت للكتابة على الكروت، فشعرت أنها على

وشك أن تنهي الجلسة، وتذكَّرت "أحمد عاكف"، وأنني لم أعرف منها أي شيء عنه، فحاولت بحيلة أخيرة:

- أتمنى مع الوقت أوصل للحالة دي.. وأقدر أتخطى فكرةإنحضرتكودكتور"أحمد"أصدقاءفنتكلمأكتر...

ردَّت بعد مدة بطبقة صوت أكثر هجومية، وهي تخطُّ في الكروت أمامها كلمات لا أراها:

- أستاذ "عيسى".. أنا مضطرَّة أكسر لك الصورة اللي انت كوِّنتها من خبرتك مع دكاترة قبل كده!

- ليه؟

- عشان ما اظُنِّش إنك متعوِّد تسمع حكم من دكتور بالسرعة دي.. بس أنا عندي تصوُّر قد يختصر من وقتي ووقتك كتير لو مستعد تسمعه...

- أكيد!

- حضرتك شخص صعب تكون متوتر من رأي مديرك فيك.. وصعب تكون قلقان من إن طبيبك يفشي أسرارك.. وكمان انت أذكى من إنك تستنَّى مني إجابات.. وفي رأيي إنك غير مهتم بكل ده.. انت جي عشان حاجة تانية...

توتَّرتُ بشدَّة، وخفق قلبي، وسألت:

- حاجة إيه!

- مش عارفة.. ومش مهم.. بس خليني أجاريك عشان نتخطى لعبة عدم الثقة دي.. وأقدر أفهم انت مهتم ليه تعرف مدى علاقتي بـ "أحمد عاكف".. اللي أنا مَعنديش أي مشكلة أقولها لك خالص بالمناسبة...

- يا دكتورة حضرتك فاهمة غلط!

تجاهلت استدراكي وتابَعَت:

- أيًّا كان.. أنا و"أحمد عاكف" مش أصدقاء.. إحنا مجرد زملاء قدام.. وطول الوقت بيجيلي مرضى من طرفه.. وبيوصيني عليهم.. ودايمًا باقابل توصياته عليهم بحدَّة.. لأن ده شيء مش مريح.. وأنا فعلًا ما باتوصَّاش بمريض عن مريض.. أنا مش شغَّالة في السجل المدني ومش باعمل خدمات لـ "أحمد عاكف" ولا لغيره...

- أنا كنت حابب أطَمِّن بس إن...

قاطَعَتني مرة أخرى كمن ضاق ذَرعًا بي وبـ"أحمد عاكف":

- مفهوم طبعًا.. الإجابة على سؤالك هي إنه مش مهتم بيك بشكل خاص.. ومعظم الناس اللي جات لي من طرفه ما كمِّلوش أكتر من جلسة.. لحد ما الموضوع بقى سخيف.. فأتمنى ماتكونش زيهم جي الجلسة لمجرد إرضاء الدكتور "عاكف"!

وصلت لبعض ممَّا كنت آمل فيه، لكني أغضبتها على ما يبدو. لم تكن تلك هي نيَّتي. أشعر بعدم الارتياح لترك الأمر

بيننا على هذا النحو. هناك هالة خفية تحاوطها وتجعلني أودُّ أن أعتذر منها، فنتابع حديثنا. أريد أن أُطلِعَها عن رأيي في "أحمد عاكف" بصراحة، وفي العديد من الأمور الأخرى، وأسمع منها المزيد. لكن مسارات الحديث صارت مُغلَقة.

هَمَمتُ بالرحيل، لكنها علَّقَت تعليقًا أخيرًا دون أن ترفع عينيها عن الكروت فوق مكتبها:

- ونصيحة مني لازم تراجع الأدوية مع حد متخصِّص.. الموضوع مش مجرد تجربة وملاحظة.

ها هي تترك لي بعض الفُتات في الطريق كي أتتبعه إن أردتُ العودة، فابتسمت مرتاحًا، ورددت وأنا أهمُّ بالرحيل:

- يمكن أكلم العيادة وأحدد معاد أول الشهر!

فنظرت لي نظرة رضا من فوق إطار نظارتها السميك، وكأنها قبلت اعتذاري الضِّمني. وابتسمت بعينيها العسليتين الواسعتين فقط، دون أن تُبدي أي ردود أخرى، ثم أومأت إيماءة موافَقةٍ بالكاد رأيتها. ثم عادت لنقوشها في الكروت، فخرجت من مكتبها مرتاحًا لسبب غير مفهوم، بالضبط مثل روَّاد المطاعم ذات المرايا المقعرة.

***

40

عُـدتُ للشـارع بالقـرب مـن صـلاة العـصر، أخـذت كيـس الكوسـة الأسـود مـن "محمـود"... مـن "جوافـة"، ودخلـت بيتنـا. لا فكـرة لـديَّ بمـا يمكـن لشـخص مثـلي أن يفعـل بـزوجٍ مـن كيلـوات الكوسـة. عـلى السُّـلَّم، وجـدت بـاب السـت "هانـم" مفتوحًـا. مـررتُ دون أن أحـاول الهـروب هـذه المـرة، لا أظـن أن الهـروب مفيـدًا مـع هـذه السـيدة عـلى أي حـال، مثلهـا مثـل البيـت، لا سـبيل للهـروب منهـا.

ألقيت السلام عليها فدعتني للدخول:

- معاك إيه يا "عيسى"؟ تعالَ ورِّيني!
- ده.. خضار للبيت!
- خضار إيه؟
- كوسة!
- انت نفسك تاكل كوسة؟
- لا ده أنا عدِّيت كده.. قلت أجرَّبها..
- وانت تعرف تعمل كوسة؟
- هاحاول!
- تحاول إيه! هات واطلع انت..
- ما يصحِّش يا خالتي!

- اطلع يا "عيسى" واسمع الكلام.

استسـلمت، فأومـأت، فصعـدت. حسـنًا، الغـداء اليـوم مزيـد مـن ذكريـات أمـي، وكوسـة باللحـم المفـروم، وأرز بالشـعرية. أصنـاف صُنِعَـت خصِّيصًـا لمحطـات خفيَّـة في تاريخـي، كل صنـف يحمـل إشـارة خاصـة لغرفـة مغلقـة في عقـلي، يضيئهـا عنـوة. أمـر مُلهِـم لشـخص لا يحـب الأكل مـن بابـه. فـما بـال عشـاق الطعـام ومريديـه ومَـن يـرون فيـه غايـة الجـمال في الحيـاة.

هـا هـي "فيونـا" تـزورني مـرة أخـرى، تذكَّـرتُ مشاكسـتها لي وهـي تسـألني "مـا هـي عطيـة اللـه للإنسـان عـلى الأرض؟". جاوبـت دون تفكـير: "النـوم". ضحكـت، واتَّهَمتنـي بالسـذاجة، وقالـت: "بـل الأكل... الأكل هـو الـشيء الوحيـد الـذي لا يمكنـه أن يخذلـك في تلـك الحيـاة المحبِطـة!".

كانـت علاقتنـا وقتهـا بـدأت تكتسـب بعـض القـوة، انتهيـت أنـا مـن الماچيسـتير وبـدأت العمـل عـلى رسـالة الدكتـوراه، ولحقتنـي "فيونـا" بعدهـا بشـهور. ومـع توطُّـد علاقتـي بهـا، قلَّـت اتصـالاتي بالأسـتاذ "سـليمان" دون أن أشـعر، لم أنقطـع عنـه تمامًـا، لكـن خفتـت وتـيرة الرسـائل والنقاشـات. وفي المقابـل صِرتُ أنـا و"فيونـا" لا نفـترق في الجامعـة نهـارًا، ونتطلَّـع للقـاء اليـوم التـالي ليـلًا.

مـرَّت الأسـابيع الأولى دون أن يعـترف أحـدٌ منَّـا بإعجابـه للآخـر، فتحـوَّل الأمـر إلى مـا يشـبه اللعبـة، وتمادينـا فيهـا، كانـت مقابلاتنـا دومـا مشـحونة بمشـاعر واضحـة ومفضوحـة، لكننـا عقدنـا اتفاقًـا

ضمنيًّا أن نستمتع بتلك الأحاسيس المشحونة دون أن نعبِّر عنها أو نبوح بها، فالبوح في ذاته قصور.

ولأني من دون أي خبرة في تلك الدروب؛ لجأتُ للطُّرق اللي أعرفها، عرَّفتها على الشعر العربي. وصِرتُ ألجأ لأبيات شعرية أحبها، لألِّح بها. أترجمها لها، ثم ألقيها عليها بالعربية بدعوى الجمال في نغم اللغة العربية ونظم الشعر. فجارتني، وأحبَّت الشعر واللغة، وادَّعت معي بأن الأمر حقًّا كان متعلِّقًا بحب الشعر العربي، وليس مجرد حيلة لزوم اللعب، للتعبير عمَّا أضمره في قلبي لها.

عرَّفتها على الشعر العربي، فعرَّفتني هي على العلاج النفسي.

كانت تلك هي طريقتها للتعبير عن قربي ومكانتي عندها، حكت لي عن تاريخ علاقتها بالعلاج النفسي، وتفاصيل حالتها بشكل كامل. بدأت زياراتها لمعالجين نفسيين منذ أن كانت طفلة، وشُخِّصَت باضطراب ثنائي القطب في الرابعة عشرة من عمرها. برَّرَت لي بعض الأيام التي كانت تعاملني فيها ببرود، وقِلَّة اهتمام، أو حتى تُقرِّر الاختفاء تمامًا على الرغم من طبيعتها المقبلة على الحياة التي اعتدتها منها. لم أكن قد تعاملت مع أمر كهذا من قبل، لكني كنت قد وقعت في حبها بشكل كامل، فكان الأمر مثيرًا ومُهمًّا بكل ما فيه.

بعدها بسنوات، رحلت "فيونا"، وشُخِّصتُ أنا بالاكتئاب، وبدأت رحلتي مع العلاج النفسي، وجافاني النوم، واعترفت بخطئي، فأقررت أن الأكل بالفعل يتفوَّق على النوم في بضع

حالات، النوم سلطان، يمكنه أن يرفضك، يلفظك لأتفه الأسباب، أما الأكل فلا سُلطان له ولا سطوة، الأكل هو اللذة القصوى التي لا شروط للاستمتاع بها، لا سُلطة لديه ليرفضك بها، في أي وقت وأي مكان وتحت أي ظرف. مهما كانت درجة إنسانيتك أو شرِّك، أو مدى استقرارك النفسي، سيكون لك دومًا نصيب من المتعة فيه، حتى وإن كنت، مثلي، لا تحبه بما يكفي.

أنهيت طبق الكوسة، ونصف طبق الأرز، وصنعت كوب شاي، وتحقَّقتُ من لونه أمام المكتبة، ثم دخلت به إلى المطبخ في حملة تفتيش ونظافة مفاجئة وجادَّة، هدفها بالأساس غسيل أطباق الست "هانم" التي تراكَمَت في الحوض، وهدفها الخفي هو قتل بعض الوقت.

***

41

بدأت بتشغيل الراديو، وكانت أول محطة على خيط بكرة البحث هي إذاعة القرآن الكريم، لم يستمع أحدٌ لهذا الراديو بعد رحيل أمي، على الأرجح لم تتغيَّر المحطة منذ أن سمِعَته آخر مرة. وجدتني أتريَّث فور أن سمعت حشرجة المحطة، ما زالت لديَّ ترسيبات ذلك الخوف من تغيير محطة القرآن خشيةَ الوقوع في ذنبٍ لا منطق ولا أساس له، فابتسمت من

السذاجة المدموغة في عقلي منذ سنوات، وتركت المحطة بدافع الفضول.

برنامج لا أعرف مُقدِّمَه، ولا موضوعَه، لكن رتابة صوت المذيع كانت مُريحةً، وفَّرَت لي القدر الكافي من الاطمئنان للشروع في حملة النظافة. بدأتُ الحملة وأنا أتابع موضوع الشيخ الضيف في البرنامج بانتباهٍ كامل. كان الشيخ مستاءً، وراح يناظر شخصًا غائبًا يبدو أنه أغضبه، لكن بنبرة لا تتنافى مع كونه شيخًا أزهريًّا موقَّرًا.

قال الشيخ[1]:

"أريد أن أوضِّح نقطةً قد تكون غائبة عن أخينا الذي لا أحب أن أذكر اسمه. لكن في البداية يجب أن نسأل أنفسنا سؤالًا مُهمًّا: ما هي آلية صناعة الفقه؟ ومَن الذي يحدِّد موضوعات الفقه؟ أي باحث في التاريخ يعرف بالضرورة القاعدة الأولية أن مَنبتَ الفقه هو الفتوى، ومَنبتَ الفتوى هو السؤال. أي أن الذي يحدِّد الموضوع المطروح للدراسة هو عموم الناس وليست المشايخ. حين يذهب أحدهم للمفتي ويسأل عن حُكم فِعل مُعيَّن، مهما كان غريبًا أو غير معتاد، فالمفتي وظيفته أن يجيب، هل هذا الفعل حلال أو حرام.

(1) من تدوينة (بوست) خاصة بالأستاذ "إبراهيم الهضيبي" (بتصرف).

مُدوَّنات الفقه القديمة مبنيَّة على جمع هذه الفتاوى، أو المكرَّر والمهم منها، وتبويبها وتهذيبها بحذف السؤال وما يدلُّ على هوية السائل؛ لإضفاء بعض العمومية عليها لتصلح للإجابة عن أسئلة أخرى. فوجود مسألة مُعيَّنة بكتب التراث، وتداولها، ليس مَنشَأها إرادة المشايخ؛ وإنما استفسارات الناس؛ وبالتالي لو وجدت على سبيل المثال فتوى عن حُكم أكل لحم البطريق أو أرجل الفراخ، فلا تنخدع بأن ذلك سببه تفاهة الفقهاء أو انشغالهم بحقير الأمور عن أصول الدين.

تلك هي النقطة الخادعة، مُدوَّنات الفقه تُعتبَر مُؤشِّرًا مثاليًّا لعلماء الاجتماع على اهتمامات عموم البشر ومدى ثقافتهم في زمن مُعيَّن؛ لأنها يُفترَض بها أن تُسجِّل طرح سؤال مُعيَّن، بقطع النظر عن إجابته، والسؤال بدوره يكشف عن توجُّه العلماء للبحث عن إجابته، لا عن إرادة أو سعي المشايخ ودار الفتوى للإجابة عن هذا السؤال بعينه. بالضبط كمن يبحث عن أسئلة تافهة أو غير معتادة على "جوجل"، هل يمكننا الحكم على "جوجل" بالتفاهة لمجرد أنه يجيب على تلك الأسئلة؟!".

انتهى الحوار، ولم أعرف مَن هو "أخينا" الذي كان يردُّ عليه الشيخ الضيف، ولا موضوع الخلاف، لكني أحبَبتُ الشيخ، وأحببتُ التناول الذي لم أسمعه من قبل.

بعد دقائق كنت قد أُخِذتُ بالغسيل، وغاب ذهني تمامًا، وانشغلت بالدكتورة "علا"، وكيف دار الحوار بيننا، وكيف تمكَّن "أحمد عاكف" واهتمامي السخيف به، من صَرف ذهني عن حوارها معي. لم أشعر بهذا اللطف والأنس والتَّحدِّي المحفِّز منذ زمن حواري مع الدكتور "سليمان"؛ لذلك أكره الانتقام؛ لِقُدرَته على أن يعمي أحيانًا عن فرص قد لا تتكرَّر.

لكن لماذا لا تتكرر، يمكنني أن أعود لجلسة أخرى، فما المانع، يكفي فقط أن أتتبَّع الفُتات الذي ترَكَته لي كي أعود. يمكنني أن أعود بدعوى مراجعة العقاقير التي أتناولها. وقبل أن أنهى حملة النظافة قرَّرتُ العودة للدكتورة "علا" مرة أخرى، ليس من أجل "أحمد عاكف" هذه المرة، لكن من أجل المزيد ممَّا لديها.

أنهيت غسيل المواعين حتى آخر ملعقة، ثم جفَّفتها، ثم رصصت الأطباق، ووضعتهم في كيس أسود. جلسة علاجية مجَّانيَّة حقًّا، لم أشرع أبدًا في غسيل المواعين إلَّا وانتهيت دومًا على حال أفضل من التي بدأت عليها.

نزلت بالقرب من صلاة العشاء لأعيدهم للست "هانم".

***

42

بباب المحل جلَسَت الست، وجلس أمامها حَجَر المعسِّل على شيشتها النحاسية الضخمة، وفي يدها لَيٌّ مُغطًّى بقماشة قطيفة بلون النبيذ الأحمر، ذراع اللَّيِّ مُطرَّز عليه اسم المحل بخيوط حريرية ذهبية؛ "فرج الله"، يبدو أنها أطلقت على المحل اسم زوجها بعد أن مات، رغم أنه كان ملكًا خاصًّا لها، ورثته عن والدها. رحم الله عم "فرج".

أمَّا يدها الأخرى فكانت مُسنَدَة على العكاز ذي رأس الأسد الفضي. رحَّبَت بي بشدة، وأمرت لي بكرسي فجلست، وناولتها كيس الأطباق، فنادت على صبيِّها وأمرته بأن يأخذ الكيس لشقتها. أخذت عدة أنفاس من الشيشة، وسألتني بعد ثوانٍ:

- انت سيبت الجامعة واللَّا إيه؟
- لأ.. ليه!
- أمَّال شغَّال هنا وهناك؟

وأشارت بذراع اللَّيِّ لباب المدرسة المغلق قبالة الشارع أمامنا، فتداركت:

- مؤقَّتًا كده.. لحد ما أسيب الجامعة!
- هتسيب الجامعة الأوروبية عشان تشتغل هنا!

ابتسمت مستهزئًا:

- كلها محصَّلة بعضها يا خالتي!

- إزاي بس يا "عيسى" يا ابني.. إيش جاب لجاب!
- ربنا يقدِّم اللي فيه الخير...

نظرت لي باستغراب، وفهمت المغزى فلم تُطِلْ، ثم سألت:

- جبت خط؟
- آاا.. اه!

أجبت وأنا أتوقَّع السؤال القادم، لكنها صمتت طويلًا ثم علَّقَت تعليقًا لم يحتج مني لردٍّ:

- هو مش هيكلِّمك إلا لما انت تكلمه!

أومأت. هذا أسوأ من أن يتصل هو بي. شعرت أني في لعبة من صُنعِه مرَّةً أخرى، فانتابني الغضب، وسألتها:

- معلش يا خالتي.. هو بيتصل بيكي دايمًا والَّا من ساعة ما أنا رجعت بس؟
- ده عمره ما قطع السؤال من ساعة ما عمك "فرج" مات الله يرحمه.. كان بيتصل أول كل شهر يشق عليَّا وعلى الست والدتك الله يرحمها.. ويشوفنا محتاجين حاجة والَّا لأ.. وكان منبِّه عليَّا ما اجيبلكش سيرة عنه.. لحد ما كلِّمني بعد العزا وقال لي أخليك تكلمه...

لم تخبرني أمي عن سؤاله عنها قطُّ. ما الذي يدور في عقله؟ ماذا حدث؟ بعد عدة أنفاس تكوَّنَت سحابة الدخان حول الست "هانم" وتابَعَت:

- ... راجل مفيش منه تاني!

آخر ما أحتاجه هو سماع وصلة مديح في الأستاذ "سليمان"، فبادَرتُ بإنهائها قبل أن تبدأ، وحاولت أن أغيِّر مجرى الحديث، وأنبش عن أمر أبلة "نجوى" وما كانت تفعله في منور البيت منذ أيام، لكني خفتُ أن أتخطَّى حدودي أو أن أُغضِبها، فلمَّحتُ للأمر من بعيد:

- صحيح.. هي الشقة اللي في الأرضي مقفولة والَّا حد قاعد فيها؟

ارتابت من السؤال، وحدَّقَت فيَّ وهي تردُّ:

- ليه!
- أصلي سمعت صوت إزاز بيتكسر في المنور من كام يوم.. ولما بصِّيت لقيت فيه نور وحد بيلمُّه!
- آه... دي زهرية كنت حاطَّاها على الشباك القطط وقَّعتها في المنور.. نزلت فتحت الشقة اللي في الأرضي ودخلت لمِّيتها.

كذب بيِّن. أكاد أجزم أنها لم تهتم بزراعة بصلة واحدة طيلة حياتها. فضلًا عن أني رأيت أبلة "نجوى" بأم عيني وهي تلملم كوبًا مكسورًا. لماذا تكذب بشأنٍ تافهٍ مثل هذا؟ أعجبتني اللعبة فتابعت مناكفتها:

- بنفسك يا خالتي! انتي بناتك ما بيجوش يساعدوكي خالص والَّا إيه؟

- البنـات في إيـه والـلَّا إيـه.. كفايـة بييجـوا كل جمعـة هُـمَّ وعيالهـم يقضُّـوه معايـا!
- طب وبقية الأسبوع بتقعدي لوحدك خالص؟
- وأنا كنت اتشلِّيت واللَّا إيه!
- العفو يا خالتي.. ربنا يديكي الصحة!
- وبعدين أنا مش فاضية حد يجيلي نص الأسبوع.
- ليه!
- لازم أمَشِّي كل حاجة بنفسي!
- هو الواد "ناجي" ما يعرفش يمشِّي المحل في غيابك؟!
- ما انا لازم أفضل طول اليوم بين المحل والقهوة!
- قهوة؟
- قهوة جامع زيدان!

تعجَّبتُ، وأشرت في اتجاه نهاية الشارع:

- جامع زيدان ده!
- أيوه!
- بس أنا عدِّيت وما شفتش قهاوي هناك!
- دي ما بتفتحش غير بعد العشا يا حبيب خالتك.
- إشمعنى؟!

- بعـد العشـا يكـون المسـجد قفـل.. ولـو فيـه عَـزا يخلـص.. ودار المناسـبات تقلـب قهـوة...
- تقلب!

أومَأَت بفخرٍ دون أن تردَّ، فتعجَّبتُ:

- طب إدارة المسجد فين.. والأوقاف؟
- أوقاف إيه.. المسجد ده مالوش دعوة بالأوقاف!
- طب والشيخ "رضا"؟
- الشيخ "رضا" نفسه بيقلب قهوجي بعد العشا.

لا أصـدق. المسـجد يصبـح قهـوة، وخـادم المسـجد يصـير قهوجيًّا، والسـت "هانـم" تديـر مكانـين وحدهـا، ومـن موقعهـا، ودون مسـاعدة أحـد. كيـف تكـون مشـغولة لهـذا الحـد، وهـي التـي لا تتـوانى عـن إعـداد الطعـام لي كلَّـما سـنحت لهـا الفرصـة، وتكـذب بوجـود أبلـة "نجـوى" في المنـور ليلـة الزجـاج المكسـور، أمرهـا عجيـب، الشـارع كلـه أمـره عجيـب، كل مَـن هـم فيـه يخفـون أكـثر مـمَّا يبـدون، لـن أجـد صعوبـة في مـلء الوقـت الزائـد إن أردت، لـديَّ الكثـير منـه عـلى أي حـال.

اسـتأذنت منهـا وصعـدت إلى الشـقة كي أسـتعدَّ للأسـبوع الأخـير في الـتِّرم، آخـر أسـبوع كمـدرِّسٍ مُراقِـبٍ للأسـتاذة "نشـوى".

***

الفصل الثالث

زراعة الطموح

43

انتهى الأسبوع الجديد دون جديد، وبدأت إجازة نصف العام. صار اليوم خاويًا، لا يمتلئ حتى بمراقبة الشارع والست "هانم". نِمتُ وأكلت وقرأت. كتبًا جديدة وقديمة. راجعت قائمة القراءات القديمة، قارنت ملاحظاتي اليوم بملاحظاتي قبل سبع سنوات. ممتنٌّ للأستاذ بذلك التمرين.

في كل صباح كان اليوم يغمرني بحفنة جديدة من الوحدات الزمنية الزائدة عن حاجتي، ولا دليل حتى هذه اللحظة لملئها. فكانت هناك لحظات بالطبع أقابل فيها الفراغ وجهًا لوجه، وأرى العدم، وأنتظر كي أتحوَّل إلى حجر، لكن حتى هذا لم يحدث، ما زلت أشعر ببعض الأمور، لستُ حجرًا بعدُ، ربما صرت أقرب، لكن ليس بشكل كامل بعدُ.

بالقرب من الثانية صباحًا، وفي برودةٍ مُحبَّبة، خرجت إلى البلكونة. أراقب الفراغ وهو يبتلع الشارع، بدلًا من أن أراقبه يبتلع غرفتي. احتمالية حدوث ما يمنعه عني في الخارج أكبر بكثير، لعلِّي أرى "أشرف نصر" على الأقل، بحثت في أركان الجدران والسقف لكنه لم يكن موجودًا، فاستسلمت للعزلة، لكن تقديري كان في محلِّه. إذ سمعت صوت خطوات مسرعة صادرة من على الناصية، دخل بعدها "جوافة" الشارع مهرولًا، ومن ورائه صديقاه: "خالد" و"إمام"؛ طلابي من الفصل، يسوقهم الفزع، ويهمسون لبعضهم البعض.

"إمام" يحمل في يده كيسًا صغيرًا، أشار له "جوافة" هامسًا بضرورة إخفاء الكيس في أقفاص عربة الكوسة الخاوية. فرفض "إمام" بشكل قاطع، هامسًا بأنهم سيجدونها. وفي لحظة خاطفة، رفع "جوافة" رأسه للأعلى، فرآني أراقبهم من البلكونة، فارتبكوا، وارتبكت. وترجمت ارتباكي إلى إشارة بالسلام، وابتسامة ساذجة. فردَّ "جوافة" السلام بسلام، ثم تناوبوا النظر لبعضهم البعض، ونظر لي "جوافة" وسألني هامِسًا إن كنتُ بمفردي في البيت.

بحركة لا إرادية نظرت في الاتجاه الذي دخلوا منه إلى الشارع، وسمعت الجلبة المتصاعدة عن بُعد، ولم أجد سوى أن أشير لهم بالصعود فورًا. نظر "إمام" إليَّ بارتياب، ثم أشار لصديقيه رافضًا بكلمات لم أسمعها، لكن "جوافة" لم يتردَّد، فسحبه من ذراعه، ودخل الثلاثة من باب البيت قبل أن يلاحظهم أحد.

وفي الشقة. اعتذر "جوافة"، فأشرتُ له بالصمت، وأجلستهم على كنبة الصالون، ثم ذهبت إلى البلكونة، وألقيت نظرة خاطفة على الشارع، فرأيت رجلين طويلين أسمرين، يشبه أحدهما الآخر بشكل لافت، يتلفَّتان ويُفلِّيان كل ركن من أركان الشارع، ولكن بهدوء مخيف. فعُدتُ قَلِقًا إلى الصالة حيث يجلس طلابي الثلاثة، ولم أعلِّق.

جلست في مواجهتهم، عينا "إمام" لا تتوقفان عن مراقبتي، بينما لم أبادر أنا بسؤال واحد، إلى أن هدأ الثلاثة، وبدأ "جوافة" في التبرير:

- لا مؤاخذة يا أستاذ "عيسى".. ده حوار داير معانا مش عايزين نشغلك.

زغر "إمام" له ليتوقَّف عن الكلام، فتولَّيتُ أنا الكلام:

- أنا مش عايز أعرف حاجة.. المهم انكم كويسين.. ممكن تقعدوا لحد ما تطَّمِّنوا وتنزلوا!

ازداد ارتياب "إمام"، وبدأ، دون أن يتحدث، محاولاته لإثبات عدم خوفه، بل وسيطرته على الوضع. فوقف، وتفحَّص الصالة، وأخرج علبة سجائره، وعرض عليَّ سيجارة، فتناولتها. أشعلها لي، فبدأت أدخِّنها، وأعطاني ذلك أريحية السؤال:

- انتوا ساكنين قريب؟

ردَّ "جوافة":

- كلنا من بشتيل!

- وهتروَّحوا ازاي دلوقتي؟!

- أي توكتوك!

أكمل "إمام" جولته في الشقة، ووقف بالقرب من البلكونة كما وقفتُ أنا في البداية، ونظر إلى الشارع، ثم جفل وانسحب خطوتين إلى الوراء خوفًا من أن يراه الرجلان الأسمران على ما أظن. فأشرت له:

- تعالى اقعد يا "إمام".. ولو عايزين تباتوا باتوا.. المكان يتدبَّر.. المهم تبقوا في أمان!

ردَّ "غراب":

- مش هينفع!
- ليه؟!
- ... عشان مش جاهزين!
- أنـا مايهمنِّيـش انتـوا معاكـم إيـه.. بـس أنـا مسـؤول أحميكـم!

تدارك "إمام":

- ليه؟!
- إنتوا طلبة عندي؟
- متشـكِّرين.. إحنـا في السـالك لوحدنـا.. ربعايـة وهننـزل نتـصرَّف احنـا!
- ... زي ما تحب!

بعـد دقائـق مـن الصمـت، قـام "جوافـة"، وسـحب "إمـام" مـن ذراعـه، لينفـرد بـه في ركـن، وبـدأ الـكلام بينهـما هامسًـا إلى أن احتـدَّ، لكـن "جوافـة" بـدا حاسـمًا، فاستسـلم "إمـام" حانِقًـا. وجـاءني "جوافـة"، وأردف:

- أستاذ "عيسى".. ممكن أطلب منك خدمة!
- اتفضَّل!
- نسيب عندك أمانة.. وناخدها بعد أسبوع!

صمتُّ قليلًا ثم أدركت، لكن كان عليَّ أن أسأل:

- أمانة إيه؟
- ماهـي دي الخدمـة.. مـا تسـألش.. تاخدهـا عـلى عِلِّتهـا كـده!
- وده كلام يا "جوافة"؟
- صدَّقني يا أستاذ.. انت كده بتحمينا زي ما بتقول!

نظـرت إليـه طويـلًا، ثـم إلى "إمـام"، لكنـي لم أُطِـل التفكـير، وأومـأت موافِقًـا. فنظـر "جوافـة" لـ"إمـام"، الـذي بـدا غاضبًـا، ثـم استسـلم ومـدَّ يـده في سروالـه الداخـلي، وأخـرج مـن تحـت خصيتيـه كيسًـا بحجـم كـفِّ اليـد، وأودعـه في يـدي. فتناولتـه في صمـت وذهبـت بـه إلى غرفـة أمـي، ووضعتـه في درج الكومودينـو دون أن أنظـر فيـه، ثـم اتَّجهـتُ بعدهـا إلى المطبـخ مبـاشرة لأعـدَّ شـايًا، علَّـه يلطِّـف الأجـواء.

فرصـة مثاليـة. يمكننـي أن أعـرف المزيـد عـن الثلاثـة، هـل يعملـون؟ بالطبـع يعملـون، لم تكـن عِمالَـة الأطفـال أبـدًا هـي أهـم مشـكلات شـارعنا؛ لذلـك لم أستشـعر الغرابـة وأنـا أسـألهم عـن عملهـم. فأجـاب "جوافـة"، الـذي كان هـو أكثرَهـم ثِقـةً ورَحابـة للإجابـة عـلى أسـئلتي:

- أنـا واقـف عـلى عربيـة والـدتي.. مـا انـت شـفت.. و"خالـد" ده فقـر مـا بيعمَّـرش في شـغلانة.. اسـمه "غـراب" عشـان فقـر.. شـغَّال دلوقتـي عنـد الحـرم الحسـيني.

أومأت، ثم نظرت لـ"خالد" الذي صار "غرابًا"، وسألته:

- الكبابجي؟ شغال إيه هناك؟

- ديليڤيري...

- بتعرف تسوق مَكَن؟

- لا مَكَن إيه.. ده بالعجلة!

- جدع!

نظرت لـ"إمام". كان في منتصف سيجارته الثانية. لم يُجِب. لم ينظر لي حتى. ما زال غاضبًا. لكن "جوافة" لم يُطِق الصمت والتَّوتُّر الناشئ بيني وبينه، فردَّ بالنيابة:

- "إمام" بقى ده الراعي بتاعنا.. شغَّال في الملابس.. وعنده فرشة هدوم عند "برج إيڤل"...

- ما شاء الله!

- انتظره ده يا أستاذ... "الراعي" ده زارا القادم ده...

بدا الامتعاض على "إمام"... "الراعي"، وقام قبل أن ينهي "جوافة" جملته، فاتجه للبلكونة ونظر منها مرة أخرى، ثم عاد وهو يبدو مطمئنًّا وقال:

- يلَّا يا "جوافة"...

ثم خاطبني ولكن بشكل تقريري لا امتنانَ فيه:

- متشكِّرين يا أستاذ.. هنبقى نعدِّي ناخد الحاجة بعد أسبوع!

- في أمان ما تقلقش!

حدَّق "الراعي" في عيني بفجاجة، وردَّ بتحدٍّ واضح:

- مش قلقان!

ثم أشار بالرحيل لتابِعَيْه، فتبعاه. سلَّم عليَّ "جوافة" بحرارة وشكرني، وابتسم لي "غراب" ممتنًّا أثناء خروجه. وتركوني مع كيسهم، ووحداتي الزمنية، في مواجهة الفراغ.

***

44

صار البرد أشرسَ بحلول الإجازة. ليس من المرجَّح أن أرى طلابي الثلاثة في إجازتهم. لكن غيابهم كان مُقلِقًا على أي حال، وازداد القلق بغياب "جوافة" من على عربة الكوسة غيابًا تامًّا. لم أره ولو ليوم واحد. ولو حتى مازًّا بأمِّه في بداية حضورها أو نهاية يومها. كانت تتولَّى العربة بدلًا منه منذ أن غادر شقتي آخر مرة. أوشَكتُ عدَّة مرَّات أن أسألها عنه، لكني تراجَعتُ خوفًا من أن أُقلِقَها، أو أن أُطلِعَها على أي صِلةٍ بيني وبين ابنها، غير كوننا تلميذًا وأستاذه، التي لا أظن أنها على عِلمٍ بها من الأساس. فابتلعت القلق على الطلبة، والفضول لفتح الكيس المجهول، والتزمت بالمراقبة؛ علَّهم يظهروا سالمين.

وفي إحدى الليالي الطويلة، كدت أربح فيها مسابقة الكون في التحديق بالسقف. لم تتمكَّن مراقبة حركة الشارع، ولا حرارة علاقة فتى الملابس الداخلية بفتاة الجبن القريش، من إرغامي على مغادرة السرير. طرق عم "رجب هوجان" بابي بعد صلاة العشاء.

وقف الشيخ الضخم بالباب لاهثًا، عيناه الخضراوان تُخضِّبهما الحمرة. "هالك هوجان" بحقٍّ. يغالب ضيق التنفس بشكل مخيف. تمامًا مثل الأيام الأخيرة في الحلبات لمصارع أبي المفضَّل. حين كان يحاول أن يحمل الناس على كرهه في مبارياته الأخيرة قبل اعتزاله. كان أبي يصفِّق مُتحمِّسًا وهو يشاهد "هالك هوجان" يقف في منتصف الحلبة، بعد أن أجهز على غريمه، يصرخ في الجماهير، وينتف ما تبقَّى من شَعرٍ أبيض على فودي رأسه الأصلع. يترجَّاهم أن يمقتوه، ويحملوه على الاعتزال؛ لأنه ببساطة لن يتمكَّن من هجر المصارعة بمحض إرادته، كان يريدهم أن يحملوه ويلقوا به خارج الحلبة، ويمنعوه من دخولها مرة أخرى فتنتهي مسيرته. ورغم كل محاولاته الملحمية لحملهم على كرهه، لم يكرهه الناس، لم يكرهه أبي، بل أحبَّه زيادة، وأحبَّ عم "رجب"؛ كرامة لعيون المصارع المجذوب.

أفسحت له المجال، وأشرت له بالدخول:

- إيه اللي طلَّعك بس يا عم "رجب".. كنت ناديني وأنا أنزل لك!

ردَّ لاهثًا:

- ليَّا يومين مستنيك تظهر في الشارع ما ظهرتش.. سألت عليك "هانم" قالت لي إنك ما نزلتش ليك أسبوع.

أسرعت إلى المطبخ وأحضرت كوبًا من الماء. رشف رشفة وصمت قليلًا ليلتقط أنفاسه ويهدأ. ثم فاجأني دون المزيد من الديباجات:

- وراك إيه يوم الجمعة الجاية؟
- ... ولا حاجة!
- تقابلني الساعة 2 بالليل قدام شباك بيتي.
- هنروح فين؟
- إنت مش قلت إنك نَذَرت نفسك للشيخ؟
- آاا.. أيوه!
- يبقى هنروح مطرح ما هيودينا الشيخ.. المهم المصحف يكمل!

إلى حيث يذهب بنا الشيخ! هل صِرتُ من مجاذيب الشيخ "رفعت" دون أن أدري! تمهَّلتُ قليلًا، أحقًّا قال "يكتمل المصحف"؟ يظنُّ "رجب هوجان" أنه "أبو بكر"، وأنه مسؤول عن جمع القرآن، ويظنني ذاك الصحابي الذي كلَّفه "أبو بكر" بالبحث عن الحَفَظة واللَّفائف والمدوَّنات. لا أذكر اسم الصحابي. هذا ضرب آخر من الخَبَل، لكنه خَبَلٌ مُسلٍّ، لم أتمكن من الانسحاب من عرض كهذا.

وفي تمام الثانية من صباح يوم الجمعة وقفت أمام شباك عم "رجب".

كنت أنا في هيئتي المعتادة، وخرج العم، شبيه "هوجان"، يرتدي بنطالًا مكويًّا بعناية، وچاكيت من الصوف الأنيق، وعلى رأسه قبعة أوروبية رمادية فاخرة تغطِّي صَلعته. لم أكن قد رأيته من قبل سوى في جلابيب مُعدَمة كالحة اللون. فظننتُ أننا بصدد مقابلة أشخاص ذوي أهمية كبرى، وبأنني لست على مستوى الأناقة المطلوب لهذا اللقاء.

أشار لتاكسي من أمام الموقف وقال له: "عبد المنعم رياض"، وركبنا.

***

45

ترجَّلنا في ميدان "عبد المنعم رياض" عند محطة الأتوبيسات السياحية التابعة لشركة "جو باص"، ومشينا حتى تسلَّمنا الطريق الضيق خلف فندق "هيلتون رمسيس"، ثم تجاوزنا الفندق عن يسارنا، وصار مبنى ماسبيرو في مواجهتنا. حيث أُغلِق الطريق الضيق ببوابة أمنية، لا تسمح إلا بمرور السيارات المخوَّلة بذلك، ووقف على البوابة أمين شرطة رفيع ضعيف، وعسكري حراسة غِرٌّ، وخفير عجوز في كشكه، اقترب عم "رجب"

من الأمين وسلَّم عليه بحرارة، فردَّ الأمين السلام بنفس الحرارة، وأمر لنا بكرسيَّيْن، وكوبي شاي من كشك الخفير.

كان الخفير يحرس بوابة حديدة مُصمَتة ضخمة، تقع على يمين الطريق قبل أن نصل للبوابة الأمنية التي تقبع في صدر الطريق وتسدُّه. بوابة الخفير الضخمة كانت على ما يبدو منفذًا لموقع بناء ضخم، ما زال العمل فيه قائمًا خلف مبنى ماسبيرو. وبعد أن جلسنا بدقائق، قام الأمين واستأذن بأن يذهب لـ"يهيِّئ الأمور".

أخذ عم "رجب" يدردش مع الخفير تارة، ومع العسكري تارة، ويضحك ويشاكس، ويستمع لهم في ودٍّ لم يُظهِره لي أبدًا، كان الخفير يُدعَى "قناوي"، قصير، رَبعة، أسمر، لهجته بها لمحة من اللهجة الصعيدية، وكان مضيافًا لَبِقًا، يحب السَّمَر. وبعد عدة نِكات ونوادر، صمت قليلًا، ثم تلفَّت حوله وتأكَّد من غياب الأمين، ثم تابع:

- بالك يا عم "رجب".. المثلَّث ده نُصُّه كان بتاع أعمامي.. إلا الله يسامحهم بجى اللي استكتروه علينا!
- ...
- وأنا صغيّر.. لما الدنيا تِجَفِّل في وشي.. كنت أسأل أبويا الحكومة معاتاخدش بالها منِّينا ليه.. كان يجول لي ادعي ربنا ما ياخدوش بالهم منِّينا أبدًا.. ياكش يا رب ينسونا خالص.. يسيوبنا في حالنا واحنا هنبجى عال.. رحمة الله عليه كان شوَّاف من زمان إيَّاه!

بدا الأمر مثيرًا، سألته:

- شالوا بيوتكم؟
- يا ريتها جات على شيلة بيوت.. دول شالوا نص بولاق أبو العلا يا أستاذ.. كل البيوت الجديمة راحت.. وخدوا الأرض.. وطلعوا بياچي ميت برچ.. وماحدِّش طلع له متر واحد في الأبراچ دي.. احنا كان لينا بيت عيلة هنا يچيب ملايين.. بس احنا مانليقش بالمكان الچديد.. وجال إيه بيخيِّرونا ناخد شوية ملاليم واللَّا ناخد شُجَج بدال البيت الكبير في حي الأسمرات...
- وعملتوا إيه؟
- هنعمل إيه يعني.. خدنا الشُّجَج بس مارحناش.. أچَّرناها!
- طب وشغَّال معاهم غفير بعد كل ده؟
- أكل عيش يا أستاذ.. حد يجول لأ لأكل العيش؟

لم أُرِد أن أتتبَّع الفضول، يبدو أن "قناوي" به ما يكفي من ألم.

أعرف أن هناك خطة شبيهة مُخصَّصة منذ سنوات لأهل جزيرة الوراق وكورنيشها، أظن أنها ستطال كلَّ روَّاد المزلقان، "صفية" و"سمية" و"أيوب" و"يعقوب" و"مريم" و"أشرف نصر" وعم "عشري" نفسه. آمل أن ينتهي العالم قبل أن يتمكَّن أصحاب المشروع من البدء في تنفيذه. ستكون نهاية سعيدة وانتصارًا مُظفَّرًا لأهل الوراق على قوى الزحف. ولا أرى طرقًا أخرى للانتصار سوى بنهاية العالم.

توقَّف عم "قناوي" عن الحديث بشأن الموقع فور أن عاد الأمين، وانضمَّ لمجلسنا مرة أخرى في شرب الشاي بين البوَّابتين. وبالقرب من الثالثة صباحًا، قام عم "قناوي" وفتح بوابة الموقع بقدرٍ يكفي بالكاد لمرور فرد واحد، فقام الأمين ودلف منه، وقام عم "رجب" ليتبع الأمين، وأشار لي بأن أتبعه، فدخلنا من فتحة البوابة الضيقة.

ظهر الموقع المهيب، أبراج إسمنتية وارفة، لونها رمادي كئيب، واجهاتها مُصمَتة، مُطعَّمة بزجاج عاكس مُحبَّب لدى رجال الأعمال والحكومة، هي في رأيي أقبح بمئات المرات من بيوت بولاق ذات العمارة القديمة. لكن لا مجال لرأيي، أو لأي رأي، في مواجهة الزحف.

الكشافات الضخمة تضيء كل أركان الموقع. العمل قائم كأنهم استبدلوا الشمس بكامل وظيفتها وتوقيتها. إلا أننا انحرفنا جهة اليسار قليلًا مبتعدين عن الموقع، حتى صِرنا في حرم مبنى ماسبيرو، وانسللنا إلى ممرٍّ ضيق بحذو المبنى الدائري، يحفُّه سور أمني حديدي، واستدرنا حوله حتى وصلنا لباب حديدي صغير خلف المبنى. طرق الأمين الباب فانفتح من الداخل، ودخل، فدخل عم "رجب" في إثره، ولم يبقَ سواي. فتلفَّتُّ حولي، ثم دخلت بدوري.

دخول المبنى أسهل ممَّا تخيَّلتُ.

***

46

أروقة وطرقات ضيقة في البداية. يسير الأمين ونسير خلفه. تسلمتنا أروقة أوسع من التي بدأنا بها. عدة مخازن وستوديوهات ومكاتب عن اليمين وعن اليسار. ليس المبنى كما كنتُ أظنُّ. لكننا خرجنا من أحد الأروقة إلى الساحة الأمامية الرئيسية داخل المبنى. الساحة الشاسعة الأنيقة مُظلِمَة إلى حدٍّ كبير، لكن بها نور خافت يكفي بالكاد لنرى موضع أقدامنا. الساحة مُصمَّمة على مستويين بينهما درجات قليلة قديمة، رأيت في الظلام عدَّة لوحات مُعلَّقة لفنانين وسياسيين، وجداريات تشكيلية ضخمة، ولوحات مهمَّة عن تاريخ المبنى، وبعض الصناديق الزجاجية والڤاترينات التي تحوي أدوات تسجيل وكاميرات عتيقة يعرضونها عن تاريخ الصناعة. ويتوسَّط الساحة ماكيت ضخم للمبني والمساحة المحيطة به. لعلهم سيضيفون تلك الأبراج الضخمة التي تُبنى خلف المبنى للماكيت حين ينتهي المشروع.

عبرنا الساحة إلى الركن الشمالي، ونزلنا عبر سلَّمٍ جانبي إلى دور سُفلي، ومنه إلى دور آخر. فبدأ ينتابني القلق على عم "رجب" الذي صار لهاثه مسموعًا. لكن الأمين أبطأ الخطو في رواق شبه مهجور من البدروم. مزدحم بالكراتين وعلب المعدات التالفة الملقاة بالرواق. سِرنا بحذر حتى وصلنا لباب خشبي سميك عليه لافتة قديمة، تحمل عنوان "أرشيف 32" فوقف الأمين وأزاح الباب، فانفتح دون الحاجة لأن يدير مقبضه،

وهبَّت منه رائحة عَطَن مُقزِّزة. كان عم "رجب" قد أعياه التعب تمامًا. فاصطفى كرسيًّا جلديًّا قديمًا بالرواق، وسحبه وجلس عليه أمام الباب السميك، ثم أشار لي:

- ادخل انت دوَّر.. أنا مش قادر!

وقفت بالباب، وألقيت نظرة بالداخل. مستوى الغرفة يقل درجة عن مستوى الرواق، وأرضها مغطَّاة بعشرة سنتيمترات من الماء الآسِن العَطِن. مساحتها ضخمة لا تُرى لها نهاية، مقسمة إلى ممرَّات طولية بين رفوف خشبية على حمَّالات حديدية صدئة تصل حتى السقف العالي، ودواليب بأدراج عتيقة تغطي الجدران من الأرض وحتى السقف. يريدني "رجب هوجان" أن أخوض العطن بدلًا منه. ألهذا السبب أتى بي؟ هل يظن أني مخبول مثله؟

خلعت حذائي المريح، وجوربي السميك، وشمَّرتُ بنطالي، ونزلت إلى مستنقع التسجيلات. الماء بارد، أخرجت موبايلي وأضأت كشَّافه، وبدأت أقرأ عناوين الرفوف، بعضها مُعَنْوَن، والبعض الآخر مجهول الهوية. تسجيلات عشوائية، وصناديق مختلفة الأحجام. أغاني من الخمسينيات لمطربين لم أسمع بهم من قبل. برامج من الستينيات عفا عليها الزمن. تسجيلات بالرفوف العليا أكلتها القوارض، وأخرى بالرفوف السفلى أكلتها الطحالب. ألبومات أغاني لثلاثي أضواء المسرح، والثلاثي المرح. مسلسلات إذاعية. ودولاب كامل عليه قفل يحمل عنوان "منوعات رمضانية". كنز حقيقي، لكن لشخص غيري.

طُفتُ أتأمَّل الحمَّالات والدواليب، عسى أن أعرف النظام الذي لجأ إليه قسم الأرشيف لترتيب وتقسيم الغرفة، لكني فشلت، فقرَّرتُ أن أهيم دون دليل. لم أرَ عنوانًا واحدًا له علاقة بالإسلاميات أو بإذاعة القرآن الكريم. يا لي من جامِعٍ فاشل للقرآن. ماذا كان ليفعل الصحابي الذي لا أذكر اسمه في موضعي هذا؟

تركت، على مضض، عدة ممرات تحمل عناوين تبدو مهمَّة، عسى أن يمرَّ شخص آخر بها، بترتيب أكثر عشوائية من الترتيب الذي أتيت به إلى هنا، فيقرِّر أن ينقذها قبل أن يعلو منسوب المياه ويلتهم ما تبقَّى منها. أمَّا أنا فعليَّ أن ألتزم بمَهمَّتي، فأمين الشرطة بدأ ينادي عليَّ لأتعجَّل.

بالقرب من برميل حديدي في ركن الغرفة، ظهر دولاب خشبي عتيق لا قفل له، درفتاه مسنودتان بالبرميل، فأزحته وفتحت الدولاب. أكوام من التراب تحطُّ على مواد أصلية من التسجيلات، عناوين كثيرة، "ابتهالات الشيخ..." والاسم غير واضح، برنامج "دثار المؤمن" من عام 77 لعام 78. وفي الرف الأعلى، جلس صندوق ضخم مكتوب عليه "تسجيلات نادرة". سحبته بصعوبة ووضعته على رفٍّ متوسط خالٍ وفتحته، فرأيت عدة صفوف، كل صفٍّ منهم لشيخ بعينه، "عبد الباسط" و"المنشاوي" و"شعيشع". تابعت الأسماء من اليمين لليسار، وخفق قلبي حين رأيت اسم شيخنا. إلا أن صفَّه كان خاويًا، وبدلًا من التسجيلات كانت هناك ورقة تبدو رسمية، موقَّعَة ومؤرَّخة ومختومة بختم النسر تقول:

"تمَّت استعارة التسجيلات: شريط 3 و4 و12 و13 و17
بمعرفة رئيسة قسم الترميم،
الأستاذة/ ملكة الحفناوي. بتاريخ 23 سبتمبر 1998".

لم تكن هناك أوراق مشابهة في أي صفٍّ من صفوف الشيوخ الأخرى. فتحت كاميرا الموبايل والتقطت صورة للورقة، واستدرتُ عائدًا للخارج. أصابع أقدامي تكاد تتجمَّد من البرودة، فضلًا عن الطحالب العَفِنَة التي علقَت بها.

آثرت أن أسلك طريقًا آخر غير الذي دخلت منه، وأتفحَّص العناوين. وفي أحد الممرَّات رأيت حمَّالة رفوف كاملة تحمل عنوان "ممنوع من العرض"، توقَّفتُ وساقني الفضول أن أفتح أحد الصناديق، فاستوقفني صوت الأمين ينادي عليَّ مرة ثانية من الخارج، ففزعت وتراجَعتُ وأكملت طريق الخروج مهرولًا.

سألني عم "هوجان" بلهفة فور أن ظهرت لهم بالباب:

- لقيت حاجة؟

رددتُ وأنا أضرب قدمي بالأرض كي أجفِّفها وأتخلَّص من الطحالب العالقة:

- حاجات كتير.. بس حاجته هو بالذات متَّاخدة من مكانها!
- إزاي؟
- حد خد تسجيلاته كلها وساب الورقة دي...

عرضت عليه الصورة من الموبايل وقلت:

- معلش بقى يا عم "رجب"!

فبدا متحمِّسًا على عكس ما توقَّعتُ:

- معلش إيه بس.. ده الحمد لله!

- إيه!

- البس جزمتك بس.. هاقول لك واحنا مروَّحين!

***

47

لم أكن أبدًا في يوم من الأيام منتميًا مُخلِصًا لأي فرقة أو نادٍ. نادي مُحبِّي شخص، أو شيء، أو مكان، أو كيان، أو حتى فكرة. كنت أجد الاقتناع بفكرةٍ ما هو أمرٌ طارئ، سيختفي مع الوقت، وستحل محلَّه قناعة أخرى مع تواتر الأفكار والسنين، فالانتماء خبل، لكننا مخبولون بدرجة أو بأخرى، ومن المنطقي، بل من الحتمي، أن ننتمي لفكرة أكبر منَّا في بعض الأوقات، الانتماء لا يتوقَّف إلا بالموت، الحكمة التي تعلَّمتُها فقط هي ألَّا أموت في سبيل فكرة، أيًّا ما كانت.

أراني أنتمي رغمًا عني لنادي مهاويس الشيخ "رفعت"، وجامعي القرآن الكريم. أنا الصحابي مجهول الاسم، وعم "رجب" هو "أبو بكر"، نادٍ من فردين فقط.

في طريق العودة حاولت أن أسأله عن قصده، أو سبب حماسه، وعمَّا ينوي القيام به، لكنه راوغني وتجنَّب الرد، رغم ابتسامته التي لم يتمكَّن من إخفائها. إلا أنني أصررت على تكرار السؤال، فقد صِرتُ منخرطًا بشكل رسمي الآن. أثبتت جدارتي وأحقِّيَّتي بالانتماء لناديه المخبول.

ردَّ عم "هوجان" بعد إلحاح. للمرة الثانية منذ بداية تعارُفنا أراه ينطلق في حديث طويل، قال إنه طوال رحلة بحثه لم يصل إلى أي دليل لوجود التسجيلات، أي أن بحثه كان محضَ إيمان مجرَّد، أمَّا بالوصول لتلك الورقة، فلديه دليل على أن التسجيلات كانت في الصندوق بالفعل، وبأنها نادرة، وإلا لَمَا استعارتها المدعوَّة "ملكة الحفناوي"، رئيسة قسم الترميم. فالوضع صار الآن أفضل، وبجانب الخيط الجديد في رحلة البحث، بات لدينا وعد بالوصول.

ها نحن ذا مجدَّدًا. نخوض مرة أخرى في وهم الهدف، وخدعة الوصول. شَرَك جديد، وإنسان آخر يَلقم أمام ناظريَّ طُعمَ الوعد بالوصول، لكني لا أملك أن أسلبه الوهم الآن، لا أستطيع إن أردت على أي حال.

عُدتُ للبيت واستحممت وتخلَّصتُ من رائحة العفن بصعوبة، ثم نِمتُ.

وفي الصباح اتصلت بعيادة الدكتورة "علا" كي أحصل على موعد جديد. فوجدت موعدًا خلال يومين. مرة أخرى تقنعني "علا" أن عدد المرضى المتردِّدين على عيادتها ليس كبيرًا. لكني

بِتُّ على يقين أن الأمر لا علاقة له بمهارتها كطبيبة نفسية، فما سمعته منها كان كافيًا لأعرف أنها ماهرة بحقٍّ. يبدو أن هناك سببًا آخر لسهولة الحصول على تلك المواعيد القريبة. حجزت الموعد وقُمتُ لأفطر.

باتت أيامي ممتلئة مرة أخرى.

***

48

في البلكونة، تناولت كوب شاي صباحيًّا، مثاليَّ اللَّون، بصحبة "أشرف نصر". ظهر عبر شرخ بين الجدار الأيمن وبين السور. بدا في بداية الأمر مُتعجِّلًا يقصد غايةً ما، لكنه تمهَّل قليلًا لما رآني، وأومأ، فرفعت كوب الشاي محيِّيًا. لو كنت أعرف ماذا يشرب الأبراص صباحًا لكنت قدَّمته له، كنت في مزاج لا بأس به، ويبدو أنه لاحظ ذلك، وكان ذلك كفيلًا ليطمئنه على حالي، فهرول متابعًا مشواره، وتركني لأستمتع بكوب الشاي، صاحب خفيف ولطيف حقًّا.

بعدها بدقائق ظهر "جوافة" على النَّصبة كأنَّ شيئًا مهمًّا دار بيننا لم يكن، رأيته من البلكونة، فوقفت أنظر إليه حتى رآني، لكن لم يَبدُ عليه الاهتمام، وأومأ بإيماءة التحية الاعتيادية، فأومأت بدوري. ومرَّ اليوم دون أن نتحدث، لكن على الأقل

انقشع قلقي تجاهه، وبحلول المساء نزلت إلى الشارع، وأخبرته بأنني سأنتظره على قهوة "زيدان" فور أن تفتح أبوابها.

كنت أريد أن أشهد لحظة تحوُّل دار مناسبات الجامع إلى قهوة على كل حال، فسبقت "جوافة" إلى هناك. كان عزاء اليوم قد انتهى بالفعل، وأُغلِقَت دار المناسبات. وقفت أشاهد الشيخ "رضا" وهو يخلع الجلباب الأبيض النظيف، ويقفز في قميص وبنطلون كالِحَيْن، ويتحوَّل لقهوجي، يفرش هو الكراسي البلاستيكية في الخارج، ويجلب مساعده المزيد من الأكواب على نصبة الشاي التي كانت تخدم المعزِّين في العزاء، ثم يُشعِل منقد الفحم، ويسلِّط شعلة النار على رَمَّالة القهوة. وفي ظرف دقائق بدأت تمتلئ الكراسي، وتكركر الشِّيَش، وتنقر قواشيط الطاولة، ويعلو الصخب المسلِّي.

اتَّخذتُ ركنًا نائيًا وجلست، وطلبت حجر معسِّل وكوب شاي، فنادى الشيخ "رضا" بطلبي لمساعده بصوت عالٍ يشبه صوت أذانه، "شاي فريسكا نعناع عند أستاذ عيسى"، ثم ذهب ليجهِّز لي حجر المعسل بنفسه، تعجَّبتُ أنه تذكَّرَني وتذكَّر اسمي دون أن أُذكِّره بنفسي. يبدو أن الشيخ "رضا" قهوجي بالفطرة أكثر منه خادمًا للمسجد، فذاكرة القهوجية أمرٌ لا يمكن الاستهانة به. لم يكن الشاي بنصف جودة الشاي الذي أعِدُّه، طوق نجاة مثقوب يمكنني أن أستريح عنده لدقائق كي أواصل.

رأيت عم "رجب هوجان" يجلس على بُعد أمتار مني، لكنه لم يُلقِ السلام ولم يَدعُني للانضمام له هو ورفاقه. وعلى الرغم من تلك الرحلة العجيبة وما تكبَّدتُه من متاعب من أجله، فكان يبدو حانِقًا ما زال، على الأرجح بخصوص عدم دخولي للصلاة معه، وهروبي من على باب المسجد في المرة الأولى، سيتعيَّن عليَّ تغيير هذه القناعة في أحد الأيام، سآتي إلى الصلاة وأتعمَّد أن يراني وأنا أصلي، لكني لست على استعداد الآن.

بدا الجمع كله مألوفًا، لكني لم أميِّز أيَّ فرد منهم تمييزًا كاملًا. وبعد دقائق حضر "جوافة"، وجلس على الكرسي بجانبي. فأتاه الشيخ "رضا" في ظرف ثوانٍ، فطلب هو الآخر شايًا.

بادرت:

- حمد الله على السلامة!
- الله يسلمك يا أستاذ.. بقيت تقعد هنا على طول والَّا إيه؟
- لا.. دي أول مرة..
- لو عايز أي حاجة قول.. أنا و"غراب" كنَّا شغَّالين مع الست "هانم" زمان!
- هنا!
- أنا هنا و"غراب" في مخزن شارع الغيط.
- هيَّ عندها مخزن كمان؟

- المخزن هو الأساس.. مجال تاني بقى.. "غراب" كان بيتوه فيه.. مليان عِدَّة من الأرض للسقف.. هو راس مالها الحقيقي.. دي عندها ييجي ولا ألف قلب نحاس!
- قلب؟
- قلب شيشة.. نحاس درجة أولى.. زي ده كده!

أشار "جوافة" للجزء المعدني من الشيشة الجالسة بجانبي وهو يوضِّح، فتعجَّبتُ:

- ألف!
- ده غير ألف طقم صواني وكوبَّايات.. كله نحاس..
- طب وسيبتوا الشغل ليه؟!
- عشان مسؤولية كبيرة وفلوسه قليلة.. مش هتودِّينا في حِتَّة!

صمتُّ قليلًا وحاولت ألَّا أبدو مُتهكِّمًا:

- وانتوا لمَّا مشيتوا رحتوا فين يعني يا "جوافة"؟
- يا أستاذ دي شغلانات طيَّاري كده نجيب مصاريفنا لحد ما نخلص ثانوي بس!
- وبعد الثانوي؟!
- نقلِّب رزقنا بقى على حق ربنا.. نشوف وظيفة.. نطلَّع رُخَص ونشتغل سوَّاقين.. لحد ما "الراعي" يكبر.. ساعتها يشدنا معاه في المحل بتاعه!

- هو عنده محل؟
- هيفتحه بإذن الله.. ربنا يوسَّع عليه.. باقول لك ده زارا القادم يا أستاااذ!
- ربنا يوسَّع عليه!

جاء الشاي، فرشف منه "جوافة" وقال بثقة:

- ما تقلقش يا أستاذ.. الحاجة هناخدها منك كمان يومين كده!

رددت بثقة:

- لأ.. الحاجة دي هتفضل عندي!

توتَّر "جوافة"، ثم تلفَّت حوله وسأل:

- إزاي يعني؟
- أنا هاخدها لنفسي!
- تاخدها!
- هاشتريها منكم ما تقلقش!
- انت فتحتها؟!
- لأ هاخدها على عِلِّتها كده.
- من غير ما تعرف فيها إيه!
- آه.
- ليه؟!

- استخدام شخصي!
- شخصي إيه يا أستاذ.. انت عارف ده قد إيه!
- اسمع يا "جوافة".. لو عارفين تتصرَّفوا فيها كنتوا خدتوها تاني يوم.. أنا هاخلِّصكم منها.. واللي هتطلبوه هتاخدوه.

صمت "جوافة"، وجلست أتأمَّل ملامحه، وأعيد تقييم ما يجري. بافتراض ما أظن أنه في الكيس، فأنا أقوم بعقد صفقة مخدِّرات مع فتى قاصر، لا أدري، لكني لا أرى فعلًا أحكم من ذاك. فتابعت الحديث قبل أن يردَّ الفتى:

- أنا عارف إن "الراعي" جازِز مني.. ومش هيقبل مني كلام.. بس انت عاقل عنه.. قل له العرض بتاعي واللي هيطلبه هياخده!
- بس يا أستاذ...
- اسمع الكلاام.. دورها في دماغك.. ولما تيجوا المرة الجاية.. يا تاخدوا الكيس يا تاخدوا فلوسه.

***

49

عُدتُ إلى البيت. وانطرحت فوق السرير لساعات في محاولة جديدة للنوم انتهت قبل الفجر بالفشل. فخرجت من الغرفة أنفض مَلَلي. سمعت وقتها صوت ضحكة مدوية صادرة من المنور، فذهبت للشباك الخلفي وفتحته. أطللت منه على المنور، فرأيت أبلة "نجوى" تقف ثابتةً تُحدِّق في الأرض. ثم رفعت رأسها للأعلى في حركة مفاجئة ونظرت للسماء.

حاولت أن أتراجع إلى الوراء خوفًا من أن تراني، إلا أني تأخَّرتُ، وللحظةٍ ظَننتُ أنها تراني، لكنها بدت كأنها لم تلحظ شباكي المفتوح من الأساس، كانت عيناها زجاجيَّتين لا حياة فيهما، وبعد ثوانٍ طويلة، رأتني، وابتسمت لي في بلاهة، ورفعت يدها مُحيِّية، فرفعت يدي لأردَّ التحية. ثم انفتح باب شقة الدور الأرضي المؤدِّي للمنور، وخرجت منه الست "هانم" ببطء، ومعها سحابة دخان كثيفة تبدَّدَت في الفراغ البارد حولها. تراجَعتُ للخلف مختبئًا فور أن رأيت الست "هانم"، ثم سمعتها تقول:

- انتي بتبصِّي على إيه يا بت؟ أنا مش قلت لكم بقى عندنا جيران دلوقتي ماحدِّش يخرج المنور؟

سمعت صوت باب المنور يُغلَق، فنظرت مرَّةً أخرى، فكان المنور خاليًا، ودوَّامات الدخان الصغيرة تدور متفرِّقةً، حتى اختفت، ووصل شذا الحشيش بعدها إلى أنفي. تذكَّرتُ وقتها

كيس الطُّلَّاب، وتملَّك مني الفضول، صار بإمكاني الآن أن أفتحه، فأنا مشترٍ مُحتمَل، يجب أن أطَّلع على البضاعة قبل أن أشتريها.

دخلت مباشرة إلى كومودينو أمي، وأخرجت الكيس، وفتحته، فكان كما توقَّعتُ بالضبط، قطعة حشيش بحجم كف اليد، كان شراؤه من الطلاب قرارًا صائبًا، غاية الأمر أني لا أدري ماذا سأفعل به بعدُ.

***

50

بدأ الفصل الدراسي الثاني ولم يأتِ طلابي الثلاثة ليأخذوا الكيس أو ثَمَنه، لم أتحدث معهم منذ ليلة القهوة. وكان أول لقاء بيننا هي أول حصة فلسفة أتولَّاها بمفردي، دون رقابة "نشوى".

مقام التدريس سُلطة، وله حظوة، وتحدوه رهبة، لم أشعر بها في شهور تدريس الجامعة، لكم تُقتُ لهذا المزيج، ولهذا يبدو الأمر صحيحًا، كل شيء مختلف اليوم، تلامذتي غير، وعالمي غير، ولا يَصحُّ أن يكون الكلام هو الكلام ذاته. الجمع من أمامي ثلاثة، حضروا طائعين، لا يمكنني الجزم بسبب حضورهم، هل جاؤوا ليتحدثوا عن الكيس المتروس؟ أم لجباية ثَمَنه؟ أم

للنقاش في شروط المقايضة؟ أظنُّ أن آخر اهتماماتهم هو درسي الأول لهم، أو الفلسفة بشكل عام، المهم أنهم حيث أريدهم.

طال الصمت. لا بُدَّ أن أتكلَّم، أيًّا ما كانت كلماتي، ستكون هي الأدوم. نظرت، ثم عايَنتُ، ثم أمعنت، ثم بعد ذلك نطقت:

- كتاب الوزارة فيه كلام عكس بعض.. لو حفظتوه من غير ما تفكروا فيه.. الدنيا هتبوظ...

أشرت لكتاب الوزارة في يدي وأنا أتابع:

- ... في أول الفصل الرابع فيه فيلسوف أمريكي اسمه مش مهم دلوقتي.. بيقول إن الإنسان عشان يقدر يقول إنه بيمارس الفلسفة.. لازم يكون قادر يشك وينقد أي كلام بيسمعه.. أمَّا لو الإنسان ده موجود في بيئة بتمنعه من ده.. بيئة زي المدرسة هنا مثلًا.. فالبيئة دي بتمنع الشخص يكون شجاع وصريح وعنده ثقة في نفسه.. وكمان بتخليه معدوم المسؤولية.. يبقى كده دي مش فلسفة.. والهدف من دراستها باطل...

رأيت الانتباه يلوح في عيونهم، فتابعت:

- ... فخلِّينا نتفق.. المادة سهل جدًّا تنجحوا فيها.. وأنا هاقول لكم ازَّاي.. لكن بشرط.. لازم تبقوا أكبر من الكلام الفارغ ده.. لازم أشوف فيكم شجاعة وصراحة

وتبقوا قد المسؤولية.. وفي المقابل عمركم ما هتلاقوا حد يقف في صفكم قدِّي!

ابتسم "جوافة" وكذلك "غراب". أما "الراعي" فلم يَرِفَّ له جفن. أكملت الدرس إلى نهايته على هذا المنوال، وتوقَّفتُ متعمدًا قبل نهاية الحصة بعشر دقائق، ولم أنبس ببنت شفةٍ بعدها. جلست على كرسيٍّ أنتظر أن يبادر أحدهم بالحديث عن الكيس، لم يبادر "جوافة" ولا "غراب" رغم التَّرقُّب الذي يغمرهما، وكأن "الراعي" قد أصدر أوامره بعدم الحديث في الأمر. لعبة الصمت لها قواعد، ولي فيها باع طويل، ولي فيها هذه المرة اليد العليا. الكيس في حوزتي، والاقتراح اقتراحي، والوقت في صالحي.

انتهت الحصة، وخرجت دون أن يتحدَّث إليَّ أحدٌ منهم. مرَّ اليوم التالي دون حصص لهم، فالصف الثالث الثانوي ليس له سوى ثلاث حصص فلسفة بالأسبوع، وبدأت حصة يوم الثلاثاء وانتهت على نفس المنوال، الصمت ساد كل شيء. ثم حلَّ الخميس، رآني "جوافة" في بداية اليوم وسلَّم عليَّ، وكاد يتكلم، لكنه تراجع وجلس في مقعده، ثم بدأت الحصة وانتهى الشرح، وبالقرب من نهاية الوقت، تحدَّث "الراعي" أخيرًا:

- هتدفع كام؟

ادَّعيتُ الانشغال بأوراقي، فنادى عليَّ "غراب" مستجيرًا، كان الكيل قد فاض به لكي يقنع "الراعي" بالحديث، ولا يريد أن يُغضِبه:

- يا أستاذ "عيسى"!
- نعم!
- الراعي بيقول لك...

قاطعته:

- اللي يطلبه!

ردَّ "الراعي":

- انت عاوزه استخدام شخصي؟
- تِفرِق؟
- أكيد...
- شكلي بِدِّي إني باشرب!
- ولا بِدِّي إنك بتبيع!
- يبقى مش هتفرق!
- تفرق معايا.
- باهادي بيه حبايبي في المناسبات!

وقف "الراعي" محتدًّا، وقال حاسمًا:

- وأنا مش هابيع.. عايزين الكيس!
- انت لو عارف تتصرَّف فيه كنت خدته من تاني يوم!
- ما يشغلكش.. دي سِكِّتي أنا بقى!

- ولا سكتك ولا ليك فيها...!
- وانت مالك يا جدع انت.. ما تجيب الكيس وتريَّح لنا شوية!

حلَّ الصمت، وتوتَّرَت ذرَّاتُ الغبار من حولنا، وارتسم القلق على وجهَيْ "جوافة" و"غراب"، لكن لم يجرؤ أيٌّ منهم على الحديث في موجة غضب "الراعي". فابتسمت ووقفت بهدوء وبحثت في صدري عن أهدأ نبرة يمكنني الحديث بها، وقلت:

- اسمعني يا "إمام".. أنا مش ضدك ولا عايز منك حاجة.. أنا عارف إن الكيس ده جه في سكتكم صُدفَة.. ودي سكة انتم مش مكمِّلين فيها.. الكيس معايا أكتر تصريفة أمان ليك.. ومش هتوجع دماغك وتلف بيه.. أنا هاخلَّصك منه ومن قرفه...
- ...
- يمكن تكون مش قابلني.. وأنا مش عايزك تقبلني.. خلِّي اللي في القلب في القلب.. بس فكِّر في صحابك.. صحابك أهم يا أخي.. وهُمَّا بيقدَّروك واللي بتقول عليه بيعملوه.. لو انت بتقدَّرهم يبقى تِكفيهُم شَرّ السكة من بابها طالما مش سكتكم من الأول...

لم يجلس، لم ينظر لي، لم يردَّ، لم يتحرك حتى. سكن لمدة طويلة، ثم زفر زفرة رخيمة وقال:

- ست آلاف جنيه!

رددت بإيجاز وثقة:

- تعالى معايا البيت خدهم بعد الحصة!
- لا ما اروحش بيوت أنا!
- طب ابعت معايا حد!
- لأ بردو...
- أُمَّال عايز إيه!

نظر لي في تحدٍّ، ثم قال:

- آخدهم منك هنا في الفصل...
- موافق... يوم الحد يكونوا عندك!
- لسه الحد؟!
- مـا هُـمَّ معايـا بقالهـم أسـبوعين... يومـين كـمان مـش هيفرقـوا...

تفـرَّس فيَّ طويـلًا في محاولـة لكشـف الخدعـة فيـما أقـول، فأنهيـت الشَّـكَّ مازحًـا:

- وبعدين ما انت عارف البيت.. هنروح من بعض فين!

لم يُطِـل "الراعـي"، واتجـه مبـاشرة للبـاب، وخـرج دون ردٍّ. وبقـي "جوافـة" و"غـراب" وعـلى وجهيهـما ابتسـامة راحـة بلهـاء، ثـم لحِقَا بـه وهـما يسـلِّمان عـليَّ في حـماسٍ مُبالَـغٍ فيـه.

بـدأت إجـازة نهايـة الأسـبوع الأول بضمـير مرتـاح بعـض الـشيء، أتطلَّـع لجلسـة الدكتـورة "عـلا" يـوم السـبت.

***

51

اسـتقبلتني الدكتـورة "عـلا" بطابـع مختلـف. تيقَّنَـت بالدليـل الدامـغ أني لسـتُ مثـل تلاميـذ "أحمـد عاكـف" المعتاديـن، كل الذيـن أتـوا لجلسـة واحـدة ثـم اختفـوا. كنـت فخـورًا بحضـوري الثـاني للعيـادة. لم أصرِّح بهـذا الفخـر، لكـن ابتسـامتي لم تتوقَّـف عـن التصريـح. فقالـت هـي بلهجـة لا تخلـو مـن مسـحة الـود:

- انت عارف إني هاغيَّر لك الدوا؟!
- عارف!
- وأنا عارفة إنك مش هتاخده!
- طب خلينا نتكلم في آخر الجلسة...

ردَّت مبتسمة:

- هو انت مش جي علشان الدوا بس؟!

فابتسـمت ولم أرد، فسـألتني بعـد أن أعـدَّت كروتهـا ومكتبهـا، واعتدلـت لبـدء الجلسـة:

- أخبارك مع دكتور "عاكف" إيه؟

- مش مهم.. أنا سِبت الشغل تقريبًا.
- ليه؟!
- عشان أعرف أنام.
- وإيه العلاقة؟
- مش عارف.. بس هو ده اللي حصل.
- طب بقيت بتنام؟
- كويس جدًّا.
- وكان بقالك قد إيه ما نِمتش كويس؟
- مش فاكر.. يمكن من قبل ما أسيب أمريكا بفترة!

بدأت تسجِّل في الكروت أمامها وهي تتابع بسؤال:

- انت رجعت إمتى؟
- من سنة تقريبًا.
- الرجوع كان ليه علاقة بعدم النوم؟
- لأ...
- أُمَّال رجعت ليه؟
- ماما كانت عيَّانة.
- ماكنتش أعرف... أنا آسفة!
- الله يرحمها!

- الله يرحمها...

صمتَت للحظات احترامًا للتَّرحُّم، ثم استدرَكَت:

- طب ما سافرتش تاني ليه بعدها؟
- ... فاكرة لما قلت لحضرتك إن مفيش عدالة وإننا لازم نبطَّل نستنى الميزان يتعدل لوحده؟
- آه!
- أهو ده واحد من تجليات انعدام العدالة!
- رجوعك؟
- رجوعي.. والمرض.. والوحدة.. والخوف.. والظروف اللي بيفرضها القدر وبيخضع ليها الإنسان!

أدرتُ مِقوَدَ الحديث لتجنُّب الخوض فيما جرى في أمريكا، فوقعت في شَرَك الحديث عن أمي، لكني فعلت ذلك واعيًا. وفي لحظة صادقة شعرت بالرغبة في الكلام عنها تنمو داخلي، وأظنُّ أن "علا" لاحظت تلك الرغبة في عيني فتناست أمرَ أمريكا، واعتدلت وتهيَّأت لتستمع لي.

***

52

شعرت بالمكان يهدأ من حولي، فبدأت موجة الحكي التي لم أشعر بقوتها من قبل:

- كانت أقوى شخص في العالم.. تخيَّلي إنسان يتشخَّص بسرطان.. ويقرر يواجهه لوحده تمامًا.. ما يقولش حتى لأقرب الناس ليه.. عشان أنا ما اسيبش دراستي وأرجع أقعد جنبها!

سكتُّ للحظة وأنا أقاوم نوبة الغضب:

- أنا مش قادر حتى أتخيِّل هيَّ واجهت ده إزاي لوحدها.. إيه القوة والجرأة دي؟

- انتوا كنتوا على تواصل؟

- كل يوم كانت بتبعت لي أدعية وبوستات على واتساب.. وبنتكلم في التليفون مرتين أو تلاتة في الأسبوع.. مفيش مرة واحدة شكِّيت إنها ممكن تكون عيَّانة.. قد إيه أنا كنت منخرط في حياتي.. ومتمحور حوالين مشاكلي.. مش شايف غير نفسي...

أخذتُ أنفاسًا طويلة للتَّخلُّص من غصَّة علقَت بحلقي، ثم قلتُ مستهزئًا:

- قال وأنا اللي كنت حاسس إن حياتي صعبة.. وباخبِّي عليها مشاكلي عشان ما اضايقهاش...

توقَّفتُ تمامًا، وأنا أتنفَّس بعمق. فسألَت "علا":

- أُمَّال انت عرفت منين؟

خرج ردِّي مكلومًا:

- منها بردو.. هيَّ لما اكتشفت إن حالتها ساءت وإن العلاج مش بيجيب نتيجة.. كلِّمتني وطلبت مني أرجع عشان نفسها تشوفني.. فهمت طبعًا إن فيه حاجة لأن هيَّ عمرها ما طلبت مني أرجع قبل كده.. كانت بتقول لي دايما إني وحشتها وتسألني أخبار الأجازات إيه.. لكن عمرها ما طلبت مني أرجع بشكل مباشر.. وبعد ضغط شديد قالت لي كل حاجة حصلت لها في آخر سنتين...

نظرتُ لـ"علا" وأنا أحاول أن أزِنَ الأمور، وأعيد التفكير إن كان من الحكمة أن أتابع الحكاية أم لا، لكنَّ شيئًا ما في نظرتها بعث الطمأنينة في نفسي، وسحب من داخلي التَّحفُّظ الذي كنت أحاول التمسك به في كل مرة يؤرِّقني الحديث عمَّا جرى في العام الماضي. لم أملك وقتها إلا الاستسلام لطلاقة الحكي التي اكتسبها لساني، وانطلقت متابعًا:

- في اللحظة دي مكانش فيه حاجة بتحصل في حياتي هناك.. ولما قرَّرت أرجع اكتشفت إن مفيش عندي حاجة ليها قيمة محتاج أسيبها.. وكل ما أحاول أفتكر أنا ماكنتش بارجع ليه مبلاقيش أسباب منطقية.. كنت سايبها هنا لوحدها وقاعد هناك باعمل إيه؟! مَعنديش إجابة!

اللهـم إلا ذاك الشـعور الطفـولي الأحمـق بـأني قـد فشـلت في مسـعاي في الجامعـة في بنسـلڤانيا، وعـليَّ أن أختبـئ في جُحـر مـن جحـور المدينـة خوفًـا مـن العـار الزائـف الـذي كان ينتظـرني إن عُـدتُ إلى مـصر.

بدأ صوتي يتهدَّج:

- ومـع ذلـك عمرهـا مـا قالـت لي ولا فكَّـرِت تِلمَّـح لي إني مقـصَّر معاهـا...
- غفـرت لي تقصـيري، وكان في غفرانهـا دليـل صريـح عـلى عميـق ذنبـي. قاومـت دموعـي وتابعـت:
- أَنهِـي ابـن ممكـن يسـيب أمـه لوحدهـا كل السـنين دي؟ ويتحجِّـج إن حبايبهـا كتـير وأكيـد الجـيران هيخدموهـا بعينيهـم.. إزاي مـا فكَّرتـش إن أنـا الوحيـد الـلي هـيَّ عايزاه يبقـى جنبهـا؟ وأنـا مـش موجـود.. إزاي أسـتنَّاها لحـد مـا هـيَّ الـلي تطلـب؟ إزاي مـا عملتـش حسـاب احتـمال زي ده؟ وليـه؟.. كان فيـه إيـه هنـاك أهـم؟

لا أريـد أن تعـرف حتـى الدكتـورة "عـلا" أني كنـت مرفـودًا مـن الجامعـة بالفعـل، وأعمـل في أحـد مطاعـم الوجبـات السريعـة. أن مـا منعنـي مـن العـودة هـو إحسـاس الخِـزي، ليـس مـن مواجهـة أمـي فقـط، لكـن كيـف لي أيضًـا أن أواجـه الأسـتاذ "سـليمان" بعـد أن بـدَّدتُ آمالـه العريضـة واسـتثماره الضخـم في شـخصي؟ لهـذا السـبب بالتحديـد قطعـت اتصـالي بـه تمامًـا، وتوقَّفـتُ عـن الـرد عـلى رسـائله، أو اتصالاتـه. لَـئِن أعِـشْ منفيًّـا في الجانـب الآخـر مـن

الكوكـب دون أن يعـرف أحـدٌ عنـي شـيئا هـو أهـون عـليَّ مـن أن أرى الخـذلان في عينَـيْ الأسـتاذ.

وحتـى إن تمكَّنـتُ مـن العـودة وتجنُّـب الأسـتاذ "سـليمان" لِـما تبقَّـى مـن عمـري؛ كيـف يمكننـي أن أعـود لأمـي خائبًـا؟ هـل هـذا هـو مـا احتملـت غيـابي مـن أجلـه؟ هـل يجـوز أن يكـون أعظـم أعـمال أمـي في الدنيـا -كـما تصفنـي- هـو عبـارة عـن عامـل في مطعـم للوجبـات السريعـة؟ لكـن، هـل كان الخِـزيُ سـببًا كافيًـا لـترك أمـي في لحظـات كتلـك؟

توقَّفـتُ لألتقـط أنفـاسي، ورشـفتُ رشـفةً مـن كـوب مـاء عـلى المكتـب، لم أكـن أعلـم إن كان الكـوب لي أم لـ"عـلا"، وانتظـرت حتى هـدأت أنفـاسي. علَّقـت "عـلا":

- المهم إنك رجعت!

ابتسمتُ متهكِّمًا:

- يـا فرحتـي... رجعـت... بـس مهـما حصـل هتفضـل آخـر سـنتين هُـمَّ أكـتر سـنتين كنـت المفـروض أبقـى موجـود فيهـم وأنـا ماكنتـش موجـود.. رجعـت طبعًـا وكنـت أبـات جنبهـا كل يـوم.. بـس الحكايـة كلهـا ماخدتـش أكـتر مـن شـهور.. كل مـا أقـارن الـكام شـهر دول بالسـنتين الـلي كانـت لوحدهـا تمامًـا.. باكـره نفـسي.. وباكـره السـفر.. وكل الظـروف الـلي وصَّلتنـي لكـده...

لم أكـن أدري ممَّـن أغضـب، أمـن النصيـب الظـالم؟ أم مـن نفـسي؟ أم مـن أمـي نفسـها لإخفائهـا المـرض عنـي؟ بالطبـع لا.

ليس هناك مَن يمكنه حمل الذنب الآن سواي. ووَدِدتُ لو تطول الأيام قدر الإمكان، أن أحظى بأكبر قدر من الوقت في صحبتها، ها هو الوقت يسير على غير هوايَ مرة أخرى، اختفت الوحدات اللا نهائية للوقت حين احتجتها، وازدادت خصومتي مع الوقت عُمقًا. تابعت الحكي:

- في الفترة دي كانت عايزاني أقعد جنبها أحكي لها وهيَّ تسمعني عشان مش قادرة تتكلم.. فابتديت أقعد جنبها وأحكي.. حكيت لها معظم اللي حصل لي في أمريكا.. وكل اللي كان هيزعَّلها بدِّلته بحكايات ما حصلتش.. كانت بتسمع وتضحك وكأنها عارفة إني باكذب...

بدت الحكاية في تلك اللحظة كحالة رومانسية لما كان يدور بيني وبين أمي، فتداركتُ:

- بس للأسف الموضوع مكانش بالشاعرية دي.. اليوم كان أغلبه ألم وتعب وسهر وتفاصيل عن تطوُّر المرض... كنت باحِسّ بالذنب لو نِمت وهي صاحية.. كل لحظة بتعدِّي عليها وهيَّ تعبانة كنت باتخيل إن أنا مسؤول عنها بشكل ما.. وأجلد نفسي إني يمكن لو كنت موجود كنت هاقدر أعمل حاجة...

استوقفتني "علا":

- بس ده عقاب قاسي جدًّا.. مَحدِّش كان هيقدر يعمل حاجة مهما كان!

- عقاب قاسي وأنا أستحقه وارتضيته...

في كل يوم كنت أراها تتألم، كنت أرى بعضها يموت ببطء، كانت تفقد جزءًا من نفسها في كل ليلة، ثم واتتني لحظتها الحقيقة السخيفة، أني ما زلتُ مُتمحورًا حول نفسي، أن أنانية الإنسان لا حدود لها. تفاجَأتُ بنفسي وأنا أحاول أن أطيل مدة بقائنا سويًّا على حساب فاتورة باهظة من الألم لن أدفع فيها قرشًا، بل ستدفعها هي كاملة.

أردفت:

- وفي لحظة قررت إن كفاية كده تضحيات منها.. وبقيت بادعي إنها ترتاح بأي طريقة.. حتى لو ده كان معناه إنها تموت.. أنا ممكن أبذل مجهود وأتعب بدالها شوية وأستحمل تأنيب الضمير وألم الفراق في مقابل إنها ترتاح...

كانت تعبيرات وجه "علا" كلها تحاول أن تساعدني، فتابعتُ مهزومًا:

- بعد الأشِعَّة الأخيرة الدكتور قال إن النتيجة سيئة.. وقرر يوقف العلاج الكيماوي.. ويبدأ العلاج التلطيفي.. وحسِّيت براحة إن على الأقل الألم هيبقى أخف عليها.. بل بالعكس ماما بقت أهدى وأجمل من قبل حتى ما نبدأ العلاج التلطيفي.. أول ما اكتشفت إن مفيش مفر وإنها دلوقتي تقدر تبطَّل تحاول.. بقت مرتاحة.

لم يكـن العـلاج التلطيفـي سـوى صـورة زائفـة لحفـظ مـاء وجـه الطبيـب؛ لإراحـة ضميره، لا مرضـاه. لكنـه كان أيضًـا بمثابـة إشـارة للمريـض بـأن يُلقـي بسـلاحه ويتوقَّـف عـن المحاولـة. مأسـاة الإنسـان الحقيقيـة هـي المحاولـة. بمجـرد التسـليم بـكلام الطبيـب، اختفـت الاحتـمالات، واختفـى الأمـل، واختفـى كذلـك القلـق. حتـى وإن كان الاحتـمال المتبقِّـي هـو الأسـوأ، لكننـا نعرفـه عـلى الأقـل، وجاهـزون لـه، ولسـنا قَلِقـين بشـأنه.

لـديَّ رغبـة حزينـة في وضـع تعريـف جديـد للقلـق أنسـب مـن تعريـف "كيركجـارد". ففـي حقيقـة الأمـر ليـس لحريـة الاختيـار ولا للتشـوُّش يـد في الأمـور، القلـق الحقيقـي هـو "التعلـق الناتـج عـن الاحتـمالات". وباختفـاء احتـمالات النجـاح في حالـة أمـي، اختفـى القلـق، ولم يَبـقَ سـوى الألم، الـذي لا مفـرَّ منـه عـلى أي حـال.

- في الفـترة دي المسـكِّنات زادت جـدًّا.. ومكانـش فيـه أي حاجـة أقـدر أعملهـا غـير إني أقعـد جنبهـا.. وهـي بقـت بتقـدر تتفاعـل أكـتر بسـبب المسـكِّنات...

اسـتعادت أمـي قدرتهـا عـلى "الرغـي"، وصرنـا نتكلـم عـن المـوت بأريحيـة، وكانـت تشـير لـه دومًـا بالذهـاب إلى "الناحيـة التانيـة"، جلسـنا نتذكـر كل النـاس الذيـن ينتظرونهـا في "الناحيـة التانيـة". ونمـرح بشـأن الخطـوات التـي سـتقوم بهـا حـين تعـبر لـ"الناحيـة التانيـة". وعمَّـن سـتبحث أوَّلًا حـين يتركونهـا في "الناحيـة التانيـة". ومَـن مِـن سـكان "الناحيـة التانيـة" لديهـا قناعـة بأنـه سيسـاعدها، ومَـن منهـم سـيُنكِرها. كانـت تطمئننـي في كل يـوم

أنهـا لم تَعُـد خائفـة، وبـأني لا يجـب أن أخـاف عليهـا بـدوري. فعـدد البـشر الذيـن تعرفهـم عـلى "الناحيـة التانيـة" أصبحـوا أكـبر بكثـير مـن عـدد البـشر الذيـن مـا زالـوا عـلى قيـد الحيـاة. وبالتأكيـد سـينتظرونها ويؤانسـونها.

كنـت متأكِّـدًا أن لأمـي رصيـدًا كافيًـا لانتشـالي مـن مصـيري البائـس في "الناحيـة التانيـة" إن قـرَّرتُ اللحـاق بهـا في أي لحظـة. فبرحيـل أمـي سـيصير معـارفي أنـا أيضًـا في "الناحيـة التانيـة" أكـثر. معظمهـم عمالقـة، لـن يُعجِزَهـم التَّوسُّـط لقـزم مثـلي، وإنقـاذه مـن عواقـب أعمالـه.

ابتسمت متألِّمًا وأنا أتابع:

- كانـت بتحـب الأدويـة المسـكِّنة جـدًّا عشـان خلِّتهـا تعـرف ترجـع تصلِّي تـاني...

وكلَّـما أتيحـت لهـا الفرصـة للصـلاة بشـكل أكـبر، اجتهـدت وخشـعت فيهـا أكـثر. بينـما أجلـس أنـا بجانبهـا أشـاهدها غاضبًـا، وأتسـاءل، هـل كان ليتحـوَّل كل شيء للأفضـل، لـو أننـا فقـط، صلَّينـا أكـثر؟

ابتسمت "علا" أخيرًا، فتابعتُ دون أن أشعر أنا نفسي بالراحة:

- كل يـوم الفجـر كنـت أقلـق ألاقيهـا بتصلي أو بتقـرا قـرآن ومبتسـمة وبتدمَّـع.. وأروح الجامعـة الصبـح وهـيَّ نايمـة.. وأرجـع ألاقيهـا بتتفـرَّج عـلى التليفزيـون وبتضحـك...
- ...

- لحد ما في يوم.. قِلِقت وقت الفجر.. لقيتها ماصحيتش تصلي !

نهايةً كريمة هادئة، تليق بأحد العمالقة.

ناولتني "علا" المزيد من المناديل. مسحت عَرَقى، وشعرت بصداع قاتل ومريح، لم أكن أنوي حكاية أي شيء إلا حين بدأت أن أحكيه، لكني ممتنٌّ أني لم أحكِه أمام شخص آخر غير "علا".

تفرَّسَت فيَّ طويلًا ثم قالت:

- أحسن؟

أشحت بيدي، راحتي أمر غير مهم، فسألَتْ:

- هتعرف تنام كويس؟
- طالما سِبت "أحمد عاكف" يبقى هاعرف!

ابتسَمَت، ثم تابَعَت:

- نتكلم في الدوا؟
- لازم؟
- معلش!

أومأت موافِقًا، فقالت:

- كنت قلت لي قبل كده إنك بتغيَّر جرعة الأدوية بنفسك!
- أيوه!

- بتاخد قد إيه دلوقتي؟
- قرصين 150!
- بقالك قد إيه؟
- من بعد ماما ما توفِّت بأسبوع.. أربع شهور تقريبًا!

لم أخبرها أني أيضًا لم أكن أتناول الدواء وقت تنفيذ خطة المزلقان، فهي لا تعرف ما هي خطة المزلقان من الأساس، لا يمكن لأحد أن يعرف بتلك الخطة أبدًا. محاولة ساذجة وانتهت وقُضي الأمر. ولَّت، وولَّى معها الأمل على أي حال.

تابعت وهي تكتب في الروشتة:

- طب هتبطَّل الأدوية اللي بتاخدها وهتبدأ ده.. هيفتح شهيتك ويمكن يتخَّنَك شوية!

استسلمت:

- مش مشكلة!

الست "هانم" لن تكره هذا التغيير. لربما انفتحت شهيَّتي أكثر، وطلبت منها أكثر ممَّا ترسله لي تطوُّعًا. كانت "فيونا" لتحب هذا الدواء هي الأخرى، كانت لتسمن، لكنها لم تمانع أبدًا من بعض الشحم على قوامها.

- الدوا التاني ده هيقلب مزاجك شوية أول أسبوعين.. لو حسِّيت بمشاكل في النوم خد قرص من الدوا التالت..

والأمور هتستقر بعد أسبوعين.. ولو سمحت ما تزهقش وتبطَّله من نفسك...

- ما تقلقيش.. متعود.

نزلت من العيادة، ولطمني الهواء، لم أتمكَّن من احتواء الذكرى، فشرعت في البكاء كما لم أبكِ من قبل، وبدأت في السير على غير هدى، بكيت في صمتٍ حتى هبط الليل، ثم عُدتُ للبيت. لم آكل شيئًا، ولم أكلِّم أحدًا، ونِمتُ بعمق، وأنا أتطلَّع للقاء طُلَّابي الثلاثة، والصفقة المشبوهة التي اتفقنا على القيام بها في حرم المدرسة.

***

53

حضرت يوم الأحد في المدرسة على أتَمِّ استعداد كما اتفقنا. سحبت المبلغ المطلوب ممَّا تبقى من الأموال التي تركتها أمي في البنك، وأعادها البنك لي باعتباري وريثها الوحيد. ستة آلاف جنيه، كادت تقارب نصف ما تركت أمي لي. لكني لم أرَ لهم استخدامًا مُهمًّا على أي حال. فما المانع من شراء بعض المخدرات منها، ما دُمتُ لا أنوي شربها أو بيعها.

حضر طلابي الثلاثة في حالة من التَّرقُّب والصمت غير المعتادَيْن، ابتسمت لحالهم المختلف، وبدأت شرح الدرس كأنَّ شيئًا لم يكن، فقاطعني "الراعي" في تعجُّب:

- يا أستاذ.. فين الحاجة؟

لم أردَّ، ولم أتوقَّف عن الشرح، فزادت نظرة التَّذمُّر، وكأنه سيقف ليلكمني في أي لحظة، فسِرتُ في اتجاهه وأنا أتابع الحديث عن المسؤولية والواجب من الدرس المقرَّر. وما أن صِرتُ بجانب دِكَّته، حتى أخرجتُ ظرفًا من جيبي، ووضعته أمامه، فتناوله وفتحه وأخذ يعدُّ. وبعد أن أتمَّ العدَّ، أومأ، ووقف، ووضع الظرف في جيب بنطاله الخلفي، ثم جلس عاقِدًا ذراعيه في ارتياح وسعادة يجاهد إخفاءها.

أمَّا "غراب" و"جوافة" فكانا في غاية الانشراح والفخر بإتمام الصفقة المعقَّدة. أكاد أجزم أن أحدًا منهم لم يعِ كلمة واحدة ممَّا كنتُ أرطن به في ذاك اليوم. شعرت بالراحة فور أن أخذ "الراعي" النقود، وبات الكيس رسميًّا ملكًا لي، وليس لهم.

بعدها بأيام، لاحظت أنهم صاروا أهدأ، لم يتغيَّب منهم أحد عن حصصي طوال ذاك الأسبوع، ولا الأسبوع الذي تلاه. ازدادوا إنصاتًا، وصاروا أكثر اهتمامًا بما أقول. الأمر الذي لم أكن مُهتمًّا به أنا من الأساس. فإذا كان لديَّ ثلاثة طلاب في تلك السن يبدون اهتمامًا أكبر من المعتاد، فهذا حدث جَلَل لا يتكرر كثيرًا، ولا أرى أن الحديث عن "نشأة الدولة في فلسفة أفلاطون" هو الحديث اللائق لهذه اللحظة.

انتظرت حصَّة يوم الخميس، وبدأت بسؤال عابر:

- ناويين على كلِّيَّات إيه؟

لم يكـن "الراعـي" قـد تخلَّـص بشـكل كامـل مـن ارتيابـه وامتعاضـه المسـتمر تجاهـي، لكنـي شـعرت باختـلاف طفيـف في ردوده الصامتـة التـي كانـت تصيبنـي في كل كلمـة أقولهـا. بـدا "الراعـي" متعجِّبًـا مـن سـؤالي يومهـا ونظـر لي بتهكُّـم، وضحـك "غـراب"، وردَّ "جوافـة" مبتئسًـا مبتسـمًا:

- كليات إيه يا أستاذ.. ده كده فُلّ قوي!

- ليه؟

- اللي سـابنا نكمِّـل ثانـوي عـام.. مـش هيسـيبنا نكمِّـل يـوم واحـد في الجامعـة!

- هو مين اللي سابكم؟

- اللي ورانا يا أستاذ.. كل واحد وراه هَمّ مستنِّيه!

- طب ودخلتوا من الأول ليه؟

- الظـروف بتتغـيَّر كل يـوم.. وبعديـن آهـي أي شـهادة.. لكـن مـش لدرجـة جامعـة يعني!

في ظـروف أخـرى غـير تلـك، كنـت سـأنهي الحـوار عنـد تلـك اللحظـة، فالفتـى مُحِـقٌّ بشـكل كبـير، والأمـر لـن يختلـف عـلى أي حـال، سـواء دخلـوا الجامعـة أم لم يدخلوهـا. لكنـي تذكَّـرتُ وقتهـا شريـكي في الحيـاة، الدكتـور "ثابـت"، والهـدف الـذي جئـت مـن أجلـه للمدرسـة. هـل كان شريـكي ليـترك الأمـر عـلى هـذا النحـو؟ هـل كان لينهـي الحـوار في تلـك اللحظـة؟ لا أظـن. فقـرَّرتُ أن أتبنَّـى حُججًـا ليسـت مـن جَعبَتـي:

- بس الجامعة دي نقلة مهمَّة هتفرق معاكم!

تدخَّل "غراب" مُقاطِعًا:

- نقلـة كبـيرة! الـلِّي دخلـوا جامعـة بيشـتغلوا عـلى الجريـل في الحـرم الحسـيني معانـا.. هـي دي النقلـة؟ مـن بتـاع ديليڤـري لفنـي شـوَّاية؟ وبعديـن مـين يسـتحمل مصاريفنـا أربـع سـنين كـمان؟

- هيَّ الحكاية فلوس يعني؟

ردَّ "الراعي" في حنق، قبل أن يتسنَّى لأحدٍ منهم الرد:

- أيـوه فلـوس.. هـيَّ كلهـا دايـرة بالفلـوس مـن الأول للآخـر.. هتديهـم مـن جيبـك لحـد مـا يخلَّصـوا جامعـة؟

تجاهَلتُ العدائية وقلت:

- لو معايا يا "إمام" والله ماكُنتش اتأخَّرت!

- يبقى ماتشيِّلهم ليلة مش ليلتهم!

- يا ابني أنا ماشيِّلتش حد حاجة.. أنا باستفسر بس!

قال "غراب" متطوِّعًا:

- أنـا أبويـا دخَّلنـي الثانـوي بالعافيـة.. قـال لي آهـو 3 سـنين في السريـع ويعـدُّوا أحسـن مـن 5 سـنين دبلـوم.. وبـردو

يبقى عندي فرصة أتعيِّن في أي مصنع واللَّا مصلحة.. و"جوافة" أمه ماتقدرش تشيل لوحدها عشان اخواته لسه صغيرين.. وموافقتش على الثانوي العام إلا لما أبويا قال لها.. وعرفت إن المدرسة لازقة في عربية الكوسة.. وإن الشغل مش هيتأثر!

- طب و"إمام"؟!

لم يرجف لـ"الراعي" جفن من سؤالي، لكنه ردَّ في امتعاض:

- "إمام" برَّه الليلة دي خالص.. ماتُحطِّنيش في جملة مفيدة معاك!

تدخل "جوافة" وقال مُفاخِرًا بصديقه مرة أخرى:

- "الراعي" دماغه مش دراسة.. هو مجاله الملابس.. باقول لك زارا القادم ده.. هيسيب المجال ويعطَّل نفسه أربع سنين في الجامعة ليه؟

زجر "إمام" "جوافة"، فتوقَّف عن الحديث بشكل مفاجئ. فصمتُّ لثوانٍ. ازدادت حججهم قوةً في مواجهة حججي. لكني وقفت من على كرسيَّ، وتحضَّرتُ لوضع الواعظ الذي أكرهه، وتخيَّلتُ شريكي الدكتور "ثابت" وهو يتحدث، ثم قلت:

- الحكاية مش شهادة بس يا "جوافة".. الجامعة بتغيَّر الناس.. هتخلِّيك شخص تاني.. هتورِّيك حاجات انت مش شايفها دلوقتي.. وتفتح لك سِكَك وفرص أكتر حتى لو مش هتعمل حاجة بالشهادة.. سيبك حتى

من التعليم.. عمرك سألت نفسك ليه العالم كله.. هنا وفي أوروبا وفي أمريكا.. كلهم بيدخلوا الجامعة في سن 17 سنة؟

- عشان الدماغ تكون كبرت وتقدر تفهم...

- بالعكس.. ده عشان الدماغ تكون ماكِبرتش ولسه عندها استعداد تاخد وتِدِّي.. وشخصيتك لسه عندها مساحة تتطور.. انت في السن ده مهم ليك إنك تشوف اللي هتشوفه جوَّا.. تعيش تجربة في مكان جديد ومنظم أكتر شوية من اللي بتشوفه في الحياة العادية.. ناس كتير مختلفين عنك.. بس ليهم نفس هدفك.. وكلكم متجمعين في مكان واحد.. تاخد منهم وتدِّيهم.. لو فوِّتّ السن ده هتفوتك فرصة كبيرة يمكن ماتعرفش تعوضها.. بعد كده هتكون كبرت.. قدرتك على التطور مش هتبقى زي دلوقتي أبدًا...

تردَّدتُ قليلًا قبل أن أضرب مثالًا لم أكن أتخيل أن أستخدمه ولو بعد ألف عام، ليس بضميرٍ واعٍ على أي حال. لكني رأيت أن في استخدامه بعض الوجاهة التي قد تقنعهم. قُلتُ بمرارة شديدة:

- أنا نفسي.. عمري ما كنت هاعرف أسافر وأكمِّل دراسة في أمريكا لولا الجامعة!

رأيت الاهتمام يزداد في عيونهم فور أن ذكرت السفر، حتى "الراعي" بدا مهتمًّا أكثر من المعتاد. فانطلق سؤال "جوافة" بشكل عفويٍّ:

- انت درست في أمريكا يا أستاذ؟

شعرت أني أفشيت أكثر ممَّا ينبغي، ما كان يجب أن أذكر الأمر أمامهم، لن تفيد حكاية السفر سوى زيادة الحاجز بيننا. تردَّدتُ فيما يجب أن أقول، وقبل أن أردَّ، أنقذني جرس نهاية الحصة.

كان لا بُدَّ أن أنهي المناقشة قبل أن ينتهي المنطق لديَّ. فلديهم من المخزون الاجتماعي البائس ما يمكنهم من تحطيم كل المنطق فيما ألقيت من حججٍ تبدو برَّاقة ومغرية، ولا أظن أن بإمكاني إقناعهم بأي شيء أنا شخصيًّا لست مقتنعًا به. يمكنني المحاولة مرة أخرى في وقت لاحق، لكن النتيجة ستكون غالبًا محسومة. أرى منظورهم للأمور، ومعهم كل الحق، كيف سيتحقَّق هذا في ظل بحر الفخاخ المنصوب من حولهم؟ بحر لا يفيد المرء فيه العوم.

***

54

دارت الأيام، وتتابَعَت الأسابيع، وفات شهر، ثم فات نصفه. تردَّدتُ على الجامعة بين حينٍ وآخر، في الأوقات التي كان يتسنَّى لي مغادرة المدرسة فيها، على أن أعطي الجامعة و"أحمد عاكف" أقلَّ قَدرٍ من الاهتمام الذي سيمنحني الاستمرار دون أن تتسبَّب غياباتي وإجازاتي في طردي؛ ذلك فقط حتى أصل للوقت المثالي لتنفيذ خطة انتقامي التي قارَب رَسمُها على الاكتمال.

وفي المدرسة، استقرَّت الأحوال مع طلابي الثلاثة، تطوَّرَت علاقتي بهم للأفضل، يبدو أني مدرِّس جيد كما توقَّعتُ. لقيت فيهم بعض القبول والاهتمام، فصاروا أقربَ وأنبهَ، وتحسَّن مستواهم بقدرٍ نِسبيٍّ طفيف. ظهر ذلك على "جوافة" و"غراب"، أما "الراعي" فعلى الرغم من بعض المؤشِّرات التي كانت تَشي باهتمامه في بعض الأحيان، وتطوُّره في أحيان أخرى، كان على عهده الأول من الجفاء.

وعلى الجانب الآخر من النهر، حاولت أن أحمل "نشوى" والأستاذ "أبو الخير" على تحسين علاقتهما بطلابي الثلاثة، وأن أقنعهما بأن يبذلا مجهودًا أكبر معهم، ولو حتى من باب أن "جوافة" و"غراب" و"الراعي" هم آخر دليل أن المدرسة لديها طلاب حقيقيون في الصف الثالث، وأن تواجُدَهم بشكل دائم في المدرسة يجب أن يكون له مردودٌ وقيمة ولو بشكل معنوي.

بالتأكيد لم ولن يتحوَّل أي منهم إلى طالب نابغ، خصوصًا في تلك المدة القصيرة، وبتلك الإمكانيات الضئيلة، لكنهم صاروا أفضل دون شكٍّ. لم أكن أدري ما الفائدة من ذلك، فمناقشاتي معهم بخصوص الجامعة كانت دومًا منتهية من قبل أن تبدأ. غاية الأمر أن خطَّة الدكتور "ثابت" كانت لتنجح معهم لو كان العالَم مكانًا أفضل، لو تمكَّن الكون من أن يجد بَراحًا أوسع للطلاب الثلاثة. لكن في عالمٍ كعالمي، وعالمهم، لا سبيل لخطط الدكتور "ثابت".

عبرت الشارع بثلاث خطوات في طريق العودة من المدرسة للمنزل. أمام المحل، لم يكن هناك شيشة أو كرسي أو عكاز ذو رأس أسد فضي، لم تكن الست "هانم" تستيقظ قبل صلاة العصر كما اعتدت. دخلت البيت، وقبل أن أرتقي الثلاث درجات القابعات أمام باب شقة الدور الأرضي، انفتح الباب، وظهرت أبلة "نجوى" من خلف الباب، وفي يدها صندوق الزبالة التي كانت تهمُّ بوضعه أمام الباب. وما أن رأتني حتى تراجَعَت وأخفت جسمها خلف الباب. لكنها نظرت مرة أخرى وبدت وكأنها ميَّزَتني. فابتسَمَت وافتَرَّ فاها الواسع، وبانت أسنانها الصغيرة، وخرجت من خلف الباب مرة أخرى، وفتحته على وسعه، وظهر جسدها الممتلئ المرسوم بهيئته الكاملة.

رأيتها أخيرًا عن قُربٍ بعد ليلة المنور، نظرتي لها تلك الليلة في ظلام المنور كانت مُجحِفةً حقًّا. أما هذه المرة أنصَفَتها النظرة، كم احتاجت الطبيعة من مهارة ووقت كي تظهر هذه التقسيمات الملتوية من تحت تلك الشحوم الجامحة، ظهرت

ترتدي ملابس نوم حريرية شفيفة، وقد رفعت طرف القميص السماوي، لونًا ووصفًا، وحشرته في ملابسها الداخلية من ناحية خصرها الأيمن؛ ممَّا أتاح لفخذها المصقولة التَّنفُّس والتحرك في حرية، وإثبات جدارة وأحقيَّة في الظهور، وخسارة فادحة واقعة على العالم من إخفائها، حتى وإن كانت تحت هذا القميص التافه.

شعرها أحمر مصبوغ. عينها بنية ناعسة. لها صدر بَضٌّ حُرٌّ، وقوام خبير في توزيع الشحوم في الجسم، جسد لا يَقِلُّ استحقاقًا للظهور عن فخذها اليمنى.

لشهور مضت، منذ أن رأيتها للمرة الأولى في منور البيت، كان لديَّ إحساس شبه مؤكَّد بأن "نجوى" تسكن شقة الدور الأرضي. أمَّا خروجها بهذه الملابس في ذاك اليوم أكَّد لي إحساسي. لكن إن كانت بالفعل تقيم فيها منذ أن رأيتها في المرة الأولى، كيف لم أصادفها أثناء طلوعي أو نزولي طوال تلك الشهور ولو مرَّة واحدة؟ لم أشغل بالي طويلًا بالأمر، بل انشغلت بما أرى منها.

بادرتني بصوت به بحَّة وهدوء مستساغ:

- ازَّيَّك يا أستاذ "عيسى"؟

تناديني بالأستاذ، كانت تكبرني بعَقدٍ على الأقل، كيف يمكنني أنا أن أناديها إذن، قلتُ مُتردِّدًا:

- أهلًا.. ازَّيِّك يا أبلة "نجوى"؟

لم تُعلِّق على "أبله" التي كنت أستخدمها قبل أن أغادر المنيرة شابا، لكنها مالت أمامي، ثم وضعت صندوق الزبالة بجانب الباب، وكأنها تعرض لي ما تبقى من تحفتها الفنية، لم يَقِلَّ الرِّدفان إبهارًا عمَّا بدر من جسمها، ثم اعتدَلَت واهتزَّ العالم من تحت القميص. وقالت بنبرة ذات مغزى:

- عَجَبِتَك مسقَّعة امبارح؟

على مقياس البراءة، انخفَضَت ابتسامتها درجتين، من السعادة إلى المكر. السؤال لم يكن عن المسقَّعة. فتبالَهتُ ورددت مبتسمًا:

- جدًّا.. تسلم إيدك!

- تحب تاكل إيه النهارده؟

- ما تِتعبيش نفسك.. أنا هاطلب من برَّا!

- الله.. انت ما عجبكش أكلي واللَّا إيه؟

- لا العفو.. بس مش عايز أتعبكم...

مالت جهة اليسار واستندت بذراعها على الباب، فزاد البراح المتاح لفخذها اليمنى، وكبر دورها في الحوار الدائر، لم أتمكَّن من التَّوقُّف عن التحديق، حتى قالت في أقصى درجات لغة الجسد إثارةً، وأكثر نبرات الصوت إغراءً:

- اتعِبنا انت بس ومالكش دعوة!

تحرَّكَت أحشائي، وعلا الدبيب في صدري، وتسمَّرتُ في مكاني، واتَّسعَت ابتسامتي حتى كادت تلامس أذنيَّ، ولم أرد. وأنا ما زلت مداولًا النظرات بين صدرها وعينها. لم أكن لأتحرَّك من مكاني أو أكسر تلك الحالة لولا أنها بدت كأنها فطنت لخطورة وقفتنا تلك، فتلفَّتَت حولها، وأمسكت بمقبض الباب، وأخفت كنزها خلفه مرة أخرى، وأطلَّت برأسها فقط وهي ممسكة بحافته وقالت:

- ابقى عدِّي كل يوم قل لي عايز تاكل إيه!

ثم أغلقت الباب وعيناها لا تقطعان الاتصال.

صعدت إلى شقتي، وأغلقت الباب، وجلست أمام مرآة التليفزيون السوداء، والابتسامة ما زالت متمكِّنة من عضلات وجهي. فتحت درج طاولة الصالون، وأخرجت علبة السجائر القديمة، وأشعلت سيجارة، وسحَبتُ منها نَفَسًا طويلًا، فهدأ توتري وبدأت أعي ما حولي.

كيف يمكن أن يكون هناك شخصٌ ما، أيًّا ما كان، ما زال يراني جذَّابًا؟ هل هو الألق الذي يصيب الرجال حين يقتربون من سِنِّ النُّبوَّة؟ الأربعون ليست بعيدة. هل أصابني ألق الأربعين مبكِّرًا؟ أم هو الغموض الذي يعزِّزه عدم الاكتراث بمظهري؟ أم هي مجرد رغبة امرأة انتصف عقدها الرابع في مداعبة رجال أصغر منها فقط؟ هناك مَن هم أحقُّ مني بهذا الشرف. أو لعلها تقوم بتلك الألاعيب مع كل مَن تَلقَى فيه القبول. على أي حال، وتحت أي ظروف، لن يكره أيُّ رجل

ذلك الشعور، ولا أستثني نفسي من تلك القاعدة، وخصوصًا إن كانت المرأة بجمال أبلة "نجوى". أو لعل الوقت قد حان لأن أحذف لفظ "أبله"، بعد ما ينتابني من أفكار حيالها.

أذَّن العصر، وبعد دقائق رنَّ الجرس، ففتحت الباب، لأجد الست "هانم" تقف في ثباتٍ وفي يدها أطباق الغداء. أشرت لها بالدخول، وأغلقت الباب، وأطفأت السيجارة، وتناوَلتُ منها الأطباق، ووضعتها على طاولة الصالون، فجلست دون أن تنطق بكلمة واحدة. وبعد ثوانٍ قالت:

- إنت عارف إن "نجوى" سايبة بيت جوزها؟
- ... لأ.
- متخانقة معاه.. وسايباله البيت.. ومحدِّش يعرف إنها عندي!
- ...
- إنت عارف لو اتعرف دلوقتي إنها عندي هيحصل إيه؟
- ما تقلقيش!

صمتت طويلًا وهي تعاينني بإمعان، ثم قالت:

- وراك إيه بالليل؟
- ولا حاجة!
- بتسهر؟
- حسب...
- عدِّي عليَّا في الأرضي الساعة واحدة!

بات الأمر مُوَتِّرًا، ضاعت ثقة الست "هانم" فيَّ لمجرد أني رأيت "نجوى". مهلًا، هل كانت الثقة موجودة من قبل؟ أزعم أنها كانت موجودة، لكن ما ذنبي أنا فيما حدث من قبل؟ وماذا سيحدث الليلة؟ ولِمَ الليلة بالخصوص؟ أعرف أن هناك ما يحدث في السهرة بالدور الأرضي. إنه أمر مُتعلِّق بالسُّطَل، لقد رأيت الدخان، ورأيتهم مسطولين. لكن ما سبب انضمامي الحقيقي؟ كيف ستأمن غدري إن حضرت الليلة؟ لن أتفوَّه بكلمة لأحد عن مكان "نجوى" بالطبع، لكن كيف أُقنِعها بذلك؟

كشفت الأطباق، وأكلت. كفتة رز، وعيش، ومخلل. ثم دخلت لأستلقي على سريري وأنا أفكِّر في حلاوة طبيخ "نجوى"، و"نجوى". لم أنم.

***

55

دقَّت الساعة الواحدة صباحًا. قمت من سريري، ولسببٍ غامض ارتديت ملابس أنيقة نوعًا ما. لن أكذب، ليس السبب غامضًا؛ فلا أريد أقابل "نجوى" بزِيٍّ لا يليق، لم أكن أنوي التَّمادي معها إلى أي شيء، لكن لا ضرر من بعض التَّأنُّق، وبعض لحظات "المناغشة" من حين لآخر. وخصوصًا من امرأة بجَمال "نجوى".

طرقت الباب بخفَّة. فتحت "نجوى"، فلطمني شذاها المثقل، بدت أكثر جذبًا، وأعمق أثرًا، وأفحش مظهرًا. تحوَّل قميص العصر السماوي، ذو الكم القصير، إلى قميصٍ بلا أكمام، ليس له أي صِلَة بالسماء، لا لونًا ولا صفةً، وفي يدها شال أسود تكوِّره وتلعب به، أشارت لي بإشارة الشوق كي أدخل بسرعة، فلبَّيتُ، فأغلَقَت الباب من خلفي، حاولت أن أرسم هيئة الثقة بكل ما أوتيت من رباطة جأش، لكن لا أظنُّني نجحت. كانت الشقة كشقَّة عم "رجب" بالضبط. لكن على عكس عم شقة "رجب" فالغرفة الأولى هي المغلقة والثانية هي مفتوحة.

سألتني الأربعينية النغشة، بذات الصوت الحريف:

- عجبتك كفتتي؟
- عظيمة...
- عظيمة!! هيهي...

أطلقت ضحكة عالية تليق بقميصها الفاضح، ثم جَفَلَت بسرعة، ووضعت الشال الذي بيدها على فمها الواسع لتكتم الضحكة، وضربتني على صدري بيدها الأخرى، فابتسَمْت واستحضَرْت كل مشاهد الخلاعة في الروايات التي أمقتها، لكن ها أنا ذا أعيش مشهدًا لا يَقِلُّ عن تلك المشاهد ابتذالًا، إلا أنني أراها رائقة ومسلِّية ومثيرة، ذكَّرتُ نفسي أنني لن أتمادى مع "نجوى"، حتى أتى صوت الست "هانم" من الداخل رادعًا لكلينا:

- "نجوى"!

فرَّت "نجوى" للداخل مرعوبة وهي تفرد الشال المكوَّر في يدها وتضعه على كتفيها. لحقت بها في اتجاه صوت الحزم، وأطلقت الكحَّة المفروضة، وغير المطلوبة، أمامي كي تفسح لي الطريق، فردَّت الست "هانم":

- تعالى يا "عيسى"...

دخلت إلى الغرفة المطِلُّ شبَّاكها على المنور. شيش الشباك مُشرع، ومع ذلك، الغرفة معبَّأة بالدخان. ليس بها أي أثاث، فقط بضع شلتات ومخادع ومخدات ملقاة على الأرض. وبخلاف الست "هانم" و"نجوى"، يجلس في الغرفة سيدتان تقاربان الست "هانم" في السن، هن اللتان خرَجَتا تهرولان في سرية من باب بيتنا يوم انكسر الكوب في المنور، أعرفهما بالشكل لا بالاسم، كانتا تجلسا متفرِّقتين بأركان الغرفة، في ملكوت موازٍ، لم تأبها حتى لدخولي.

من جهاز كاسيت قديم، يغني "عبد المطلب" إحدى أغانيه بصوت خافت، يكاد لا يُسمَع، إلا إذا حلَّ الصمت التام في الغرفة، أظنها أغنية "الناس المغرمين"، لكني لست متأكِّدًا، فخبرتي بـ"عبد المطلب" لا تتخطى المناوشات اليومية بين أبي وأمي في الاختيار بينه وبين "فريد الأطرش".

تتوسَّط الغرفة طبلية خشبية، عليها مبخرة، وورق مُفضَّض، وسلوفانات، وكرتون، وتبغ مبعثر، وأوراق بفرة، وبعض السجائر المخروطية الملفوفة مُسبقًا. أمام الطبلية جلست إحدى السيدتين متربِّعة، مشغولة بتليين قطعة صلصالية في يدها.

تجلس الست "هانم" في الركن الأبعد على شلتتين ضخمتين، يبدو أن الجلسة الأرضية لم تكن مناسبة لحجمها الضخم ولا لركبتيها الضعيفتين، جعلتها الشَّلتتان هي الأعلى في درجات المجلس، بخلاف علوِّ مقامها من الأساس. وأمامها تقبع كالعادة شيشتها النحاسية الضخمة التي تذهب معها أينما ذهبت، كأنها حيوانها الأليف.

ابتسمت السيدتان ابتسامةً خبيثة حين ألقيت عليهما السلام، فرحَّبَت الست "هانم" بي بحرارة، وقالت:

- فاكر خالتك "شطة".. وخالتك "وفاء"؟

- آه طبعًا!

استعدلت "شطة" إحدى الشلتات بينها وبين الست "هانم"، وقالت:

- تعالى يا حبيبي اقعد هنا!

ردَّت "نجوى" بضحكة ماكرة وهي تبلُّ شفتيها:

- ما تخلِّيه جنبي هنا!

ردعتها الست "هانم" بصوت حازم:

- خليكي في حالك يا "نجوى" واتلمِّي.. بدل ما آجي ألمِّك!

فصمتت "نجوى" لكنها لم تتوقف عن النظر لي، وهي تعدُّ شايًا على النصبة متعدِّدة المنافع أمامها. كانت تعدُّه لي أنا على ما أظن. قالت الست "هانم" وهي تشير لـ"شطة" والصلصال الذي بات مفروكًا على "المَرَل" الكرتوني أمامها:

- ليك فيه؟

- في المناسبات بس!

- ما هو النهارده مناسبة.. خد من إيد خالتك!

***

56

أشعلت "شطة" إحدى السجائر المخروطية، وناولتني إياها، فتناولتها منها، ونظرت إلى السيدات المحدِّقات الأربع، ثم سحبتُ نَفَسًا عميقًا، وكتمتُ سُعالًا قويًّا حتى قتلته، فهلَّلَت "نجوى" بحرارة وهي تقدِّم لي الشاي، فتناولت الكوب منها، ثم أعدت السيجارة لـ"شطة"، فأشارت لي أن أعطيها لـ"وفاء" التي كانت تجلس قبالتي، وقد أخرَجَت شلَّة خيط صوفي أخضر، وإبرتَيْ تريكو من جبٍّ خفيٍّ بين الشلت، وبدأت في استكمال شال ضخم بديع. ناولتها السيجارة، فالتقطتها مني بعناية وخفَّةٍ تُماثل عنايتها بإبرتَيْ التريكو في يديها. شاهدتها في إعجاب وهي تسحب نَفَسًا طويلًا، ثم أخذتُ أتأمَّل النساء الأربع وهُنَّ يتأملنني.

تعدَّدَت خالاتي منذ أن عُدتُ إلى المنيرة، هل ستصير كل امرأة من سِنِّ أمي بمثابة خالة؟ تعلَّقَت عيناي بـ"نجوى"، هي ليست في سنِّهنَّ بالتأكيد، لا يمكنها أن تكون خالتي، ولا حتى أبلة، كانت تجلس معلِّقةً النظر بي، ترسل لي كل إشارات القبول

بـكل اللغـات الممكنـة: عيناهـا، وجسـدها، وشـعرها؛ لم تكـن هنـاك تفصيلـة واحـدة فيهـا إلَّا وتدعـوني إليهـا. لا يمكننـي أن أتذكَّـر متـى كانـت آخـر مـرة تسـلَّلَت لعقـلي امـرأةٌ بهـذه الطريقـة، ربمـا منـذ أن رحلـت "فيونـا".

كنـت أظـن أن الشـاي هـو الامتيـاز الأوحـد الـذي لم أتمكَّـن مـن التخلـص مـن تعلُّقـي بـه، يبـدو أني لم أختـبر تعلُّقـي بالنسـاء منـذ فـترة، لعـلِّي لم أتخلَّـص مـن ذاك أيضًـا. أو لعـلِّي اختبرتـه ونجحـت فيـه، لكـن مـع نسـاء أخريـات لم يَكـنَّ بنفـس التأثـير النافـذ لـ"نجـوى".

دارت السـيجارة دورة كاملـة بـين الصحبـة الجالسـة أرضًـا، أمَّـا الدرجـة الأعـلى في الجلـوس، المتمثِّلـة في السـت "هانـم" بمفردهـا، فلـم تمـسَّ السـيجارة الدائـرة، عـلى الأرجـح حشيشـها كان مفـروكًا عـلى أحجـار شيشـتها الملَكيَّـة. وحـين عـادت لي السـيجارة مـرة أخـرى لأسـحب منهـا نَفَسًـا ثانيًـا، نظـرت لي السـت "هانـم" وقالت:

- انت شايف اللي احنا فيه ده؟

انتبهت وأجَّلتُ النَّفَس. فأردَفَت:

- بقالـه سـنين.. محـدِّش نقـص منِّنـا ولا جَـدّ علينـا إلا البِـتّ السـايحة دي...

- ...

- قَصَدِتنـي تقعـد عندي يومين لحد مـا جوزها يتربَّى ويعرف قيمتها.. وأنا بصراحة باحبَّها.. أساعدها واللَّا أبيعها؟!

لم أرُدَّ؛ ظنًّـا أن السـؤال كان اسـتنكاريًّا، لكنهـا صمتـت؛ ففهمـت أنهـا تنتظـر منـي الـرَّدَّ، فـرددتُ:

- تساعديها طبعًا!

- أساعدها آه.. بس لو مفيهاش أذى لحد فينا.. واللَّا إيه رأيك؟

- ربنا ما يجيب أذى!

اعتدلـت السـت "هانـم" مـن اتكائهـا بشـكل مفاجـئ، ودبَّـت بقدمهـا العاريـة عـلى الأرض، وبكفِّهـا اللاحِمـة عـلى ركبتها، وأشـارت بـلَيِّ الشيشـة إلى السـيجارة التـي في يـدي، وقالـت بلهجـة تهديـد:

- اوعـى تخـون النَّفَـس الـلي في إيـدك ده.. اوعـى تخـون العيـش والملـح الـلي بناكلـه سـوا...

- أ.. أبدًا والله يا خالتي...

- اوعى تخون الجيرة اللي بيني وبينك يا ابن "مُنى"!

- أنا...

- ورحمة عمك "فرج"... ما أخلِّيك تشوف الأسفلت تاني.

توتَّـرتُ. لم أرَ منهـا هـذا الوجـه مـن قبـل. لم تَـرُدَّ، ولم تتحـرك، ولم تتحـوَّل نظرتها الثاقبـة. رأيـت في عينيهـا شَرًّا قاتمًـا، وحاولـت أن أفكـر في طريقـة يمكننـي بهـا أن أُطَمئِنهـا، لكنـي لم أجِـد. فتدخَّلَـت "نجـوى" بنـبرةٍ لا تخلـو مـن اللعـب:

- بالراحة على الراجل يا خالتي.. شكله مش خبَّاص!

التفتت الست "هانم" في جهة "نجوى" وقالت بذات الحِدَّة:

- اسـكتي انتـي يـا بِـتّ.. ماهـو لـولا هيجانـك وفتحتـك البـاب رايـح جـي عشـان تشـوفيه مكانـش عـرف إنـك مسـتخبية هنـا!

تراجَعَـت "نجـوى" مرتعـدة، وتكـوَّرَت بجانـب نصبـة الشـاي، فعـاوَدَت السـت "هانـم" توجِّـه لي أسـهم الشَّـكِّ، والـشرر يتزايـد ويتطايـر مـن عينيهـا. فقلـت بصـوت خاضـع تمامًـا:

- طب.. هو أنا أعرف مين في الشارع أصلًا عشان أقول له؟

- طول ما انت قاعد هنا هتعرف يا روح خالتك!

عجـزت عـن الهـروب مـن مخالبهـا، وسـقط نظـري لتفـادي نظرتهـا، فرأيـت السـيجارة التـي مـا زالـت في يـدي، وعـلى الفـور خطـرت لي فكـرة قـد تنجـح. فنظـرت لهـا في حـماس، ووقفـتُ بسرعـة، وقلـت:

- طب ثانية واحدة يا خالتي...

- ... رايح فين؟

- راجع تاني!

- هو إيه ده... رايح فين يا وَلَا!

لم أرُدَّ عليهـا، وانطلقـت أعـدو قبـل أن يوقفنـي أحـد، وفتحـت البـاب وخرجـت.

***

57

دخلـت شـقتي. طِـرتُ مـن الصالـة إلى غرفـة أمـي. فتحـت الكومودينـو، وأخرجـت الكيـس الأسـود الـذي اشـتريته مـن الطـلاب الثلاثـة، وأخرجـت قطعـة الحشـيش منـه، كانـت أكـبر مـمَّا أتذكَّـر، فتناولتهـا بـين يـديَّ، ثنيتهـا وفَرَدتهـا عـدَّة مـرَّات حتـى انقسـمت إلى نصفـين شـبه متسـاويين، فأعَـدتُ أحدهـما إلى الكيـس ومنـه إلى الكومودينـو، وأخـذت النصـف الآخـر عاريًـا إلى الصالـة أبحـث عـمَّا ألفُّـه بـه، فرأيـت ورقـة النتيجـة التـي كتبـت فيهـا العبـارة السـاذجة، مـا زالـت قابعـة فـوق الجزَّامـة بالقـرب مـن البـاب، فتناولتهـا، ثـم فتحتهـا، وقـرأت النصـف الأول منهـا...

"مـن البدايـة.. لم يكن الإنسـان أبـدًا بالغبـاء الكافي ليتقبَّـل الحيـاة كمـا هـي..."

تـزداد الكلـمات عبطًـا كلـما قرأتهـا. مـا علاقـة الـذكاء والغبـاء بمـا يحـدث للإنسـان، سـواء كنـت ذكيًّـا أو غبيًّـا، تقبَّلـتَ أم لم تتقبَّـل، لـن يُغـيِّر هـذا مـن الأمـر في شيء. يجـب أن أتوقـف عـن ادِّعـاء إمكانيـة السـيطرة عـلى أي شيء.

لففـت النصـف العـاري مـن قطعـة الحشـيش العملاقـة في ورقة النتيجـة السـاذجة، وطـرت إلى مجلـس السـت "هانـم" مـرة أخـرى، ومـا أن دخلـت عليهـا حتـى قالـت في تعجُّـب:

- رحت فين يا ابن المجنونة؟

لم أرُدَّ، ورميت ورقة الحشيش في حِجرها، ووقفت ألهث أمامها. فانتفَضَت ونظرت في حجرها، وقالت:

- إيه ده؟!

- عربون السلام!

صمت الجميع، ولم يصمت "عبد المطلب". فتناولتها الست "هانم"، وأخذت تتفحَّصها، وما أن اتَّضح شكلها حتى لمعت عينا "شطة"، ومن خلفها توقَّفَت "وفاء" عن حياكة القطعة الفنية الخضراء في يدها، وصلَّت "نجوى" على النبي. سألتني الست:

- جبتها منين دي يا "عيسى"!

- وقعت في سِكِّتي!

- وتقول لي بتشرب في المناسبات بس!

- ما باشربش والله.. دي بهادي بيها الحبايب...

ابتسمت الست "هانم" أخيرًا وقالت:

- مقبولة!

هلَّلَت النساء الثلاث، وسحبتني "نجوى" لأجلس بينها وبين "وفاء"، فوبَّختها النساء الثلاث في سخرية، بسيل من عبارات تتَّهمها بالبغاء والفجور.

تتابعت السجائر، والقطع المفروكة على البخور، وعلى أحجار الشيشة الملكية الخاصة بالست، ودار الحديث بعيدًا عني. كُنَّ

مرتاحات، يضحكن بعُمق، ويَشخرن بعمق، في قهقهاتهنَّ، وفي اعتراضاتهنَّ، لكن من دون صوتٍ يُذكر، حتى "نجوى" التي عرفت أنها جديدة على مجلسهن، وأكثرهن حيويةً وانطلاقًا، كانت ملتزمةً بالشرط الأساسي للمجلس... الصوت الخفيض.

يتحدَّثن بين الحين والآخر عن أُناسٍ كنت أعرفهم منذ زمن بعيد في الشارع. عن ابن فلانة الذي بلغ الحُلُم، وصار يرمق نسوة الشارع بنظرات الرجال المثقلة بالشَّبق والنَّهم والهرمونات المشوَّهة. وعن بنت عِلَّانة التي فارت وانفجر صدرها عن ثديين يفوقان ثديَيْ أمِّها حجمًا، ثديان سيكونان لها، خلال سنوات، مصدرَ الهناء والشقاء في آنٍ واحد. حتى الأزواج الخائبون الذين لم يَعُد من وجودهم فائدة تُذكَر، لم تسلم أعضاؤهم من الوصف التفصيلي، وذِكر العيوب فيها، سواء كانت عيوبًا شكلية أو موضوعية، لم يَسلَم أحد من أزاميل ومعاول جلسة الوَنَس العجيبة تلك.

ولم يَفُت "نجوى" بالطبع، أن تطال يدها خلسة من فخذي عدَّة مرات، أو أن ترميني بين الحين والآخر بسهم من سهام ألاعيب الغزل العابث، والتي كانت ماهرة فيه.

سألتني الست "هانم" في إحدى السَّكتات عن سبب عودتي من أمريكا، وسبب تركي للجامعة الأوروبية هنا، فأجبت في المرتين بإجابات عامَّة مُبهَمة، كالنصيب والقدر، وأمر الله الذي لا مفرَّ منه، مُدَّعيًا التدين والقدرية في كافة الأمور.

لم أنعم بوقت مسلٍّ مثل تلك الساعات منذ سنين. لم أشعر بالوقت إلا حين سمعت صوت الشيخ "رفعت" يحشرج في كاسيت عم "هوجان"، مُعلِنًا الميقات الرسمي لقرب الفجر. فغادَرَت "شطة" تستند إلى "وفاء". وبقيت أنا و"نجوى" والست "هانم". وبعد دقائق، قامت "نجوى" التي حلَّ عليها التعب والنعاس، تترنَّح، وقالت وهي تغادر للغرفة الخارجية:

- لو تعبان ومش قادر تطلع لحد شقتك.. ابقى حصَّلني جوَّا.. فيه مكان جنبي ع السرير!

راقبتها الست "هانم" ترحل في هدوء ولم تعلّق، ولما صرنا بمفردنا تمامًا، ترَكَت لَيَّ الشيشة، وأسندت ظهرها إلى الجدار من خلفها، ثم قالت بصوتٍ جادٍّ وحاسم لا يتماشى مع الجو العام:

- ولا يا ابن "منى".. إوعى تفكَّر.. ولا تعدِّي في بالك حتى.. لو هتحلب نفسك تلاتين مرة في اليوم.. اعملها ولا إنَّك تقرَّب للبِتّ دي.. انت ما تعرفش إيه اللي ممكن يحصل.. إيَّاك.. انت فاهم؟

حدَّقتُ بها مذهولًا من ذلك الاقتحام، لكنني أومأت موافِقًا، فلم تزد. لم يبدُ لي أن الست "هانم" على أي درجة من درجاتنا من السُّطَل. لاحظت فقط أنها صارت أهدأ من المعتاد، تستمتع بهدوء لم يَشُبْه حتى صوت "عبد المطلب" الذي توقَّف عن الغناء في إحدى اللحظات التي لا أذكرها، فاستندت

أنا الآخر إلى جداري، وحملقنا معًا في السماء، كأن الغرفة بلا سقف، وطُفنا سويًّا في الصمت الرائق.

مرَّت دقائق قبل أن تتحدث الست "هانم" مرة أخرى، وقالت دون أن تفارق عيناها عنان السماء:

- الأستاذ تعبان!

***

58

جفلتُ. عدتُ من الملكوت البعيد، ووَزَنتُ الكلمات، لا أساتذة مشتركين بيني وبين الست "هانم" سوى أستاذ واحد، فاستفسرت:

- تعبان إزاي؟
- زي الناس
- عنده إيه؟!
- ما اعرفش.. بس الممرضة اللي قاعدة معاه قالت لي إنه بيخلَّص!

شعرت بقلبي يهوي في ثقب سحيق، وبسرعة مخيفة. احتجت لثوانٍ حتى أجد الهواء، وأسأل:

- لدرجة مُمرِّضة قاعدة معاه؟

- أيوه.. من فترة طلب مني أجيب له ممرضة.. فبَعَتّ له واحدة من جنبنا من هنا!

لا أعرف لماذا خفتُ. الرجل قارب التسعين إن كانت حساباتي دقيقة. لم أتخيَّل أن شخصًا مثله قد يمرض، أو حتى يحتاج لمساعدة ممرضة. لا أدري لِم لَم أفكر بالأمر من قبل؟ لم أتصوَّره أبدًا شخصًا يخضع لقوانين البشر مثلنا. أظن أن هذا هو المخيف في الأمر.

- إوعى تقول له إني قلت لك!
- إنتي كان لازم تقوليلي من أول ما رجعت!
- هو كان شارط عليَّا كده!
- إنِّك ما تقوليليش؟
- آه.
- ليه؟
- قال لي لو مجاش هو لوحده مش عايز أشوفه.. ما انت عارف...
- عارف!
- بس أنا لو استنِّيتها لحد ما تيجي منك.. يمكن ما تلحقوش...
- للدرجة دي؟

أومأَت. فأومأْتُ وتجهَّمْتُ للحظات، ثم قمت وغادرت إلى شقتي دون أن أزيد. وفي سريري، واجهت السقف. تكوَّنَت فوقي كرة جديدة صغيرة من الأفكار، لا يشغلني منها شيء سوى حتمية الحياة، وحتمية الموت، وحتمية لقاء الأستاذ مرة أخرى.

ولسبب ما، قُمتُ من سريري، وبحثت في مكتبة غرفتي عن كتاب "مصير صرصار". لم أكن قد قرأته ثانيةً بعد القراءة الأولى في سِنِّ العاشرة، تلك المرة التي أهداني إياه الأستاذ. فأخرجت الكتاب من رَفِّه، ونفضت التراب عنه. وفررت صفحاته، فوجدت تلك الصفحات التي كنت قد طويت أطرافها، ورأيت فيها الحروف التي أضفت لها نقطة بقلم أبي الأسود، كل الفاءات التي أحلتها قافات، والتاءات التي صيَّرتها ثاءات. لم أتمالك تأثُّري، وجلست أقرأ فيه من البداية...

"المكان.. ساحة رحبة.. وهذا بالطبع في نظر الصراصير"

لم أتوقَّف عن القراءة، وجدتني نسيت النوم، أتعرَّق وأتأزَّم كلما خُضت في حوار البطل مع طبيبه، عن الصرصار الذي وجده في بانيو حمَّامه، ووصلت لأقصى درجات الاتصال حين أنهى البطل المسرحية وصاح على الخادمة:

"يا أم عطية.. هاتي الجردل والخرقة.. وأزيليني من الوجود"

كأني لم أقرأها من قبل. يا لها من لعبة تلك التي علَّمني إيَّاها الأستاذ.

***

59

في الصباح. وصلت إلى الحصة بصداعٍ بالغ الوطأة. كان من الأجدر أن أتغيَّب لأنام كما ينبغي. لكنني لسبب ما أردت أن أقابل طلابي الثلاثة، جلست أتأمَّلهم، صراصير، مثل صرصار الحكيم، ومثلي، لن أتدخَّل لأنقذهم، لا علم لديَّ عن كيفية الإنقاذ. "كان العِلْق نَفَع نفسه". الأمل ليس عندي. لكن في داخلي اعتملت رغبة في الحديث إليهم على أي حال. لم أشرح شيئًا، لكني نويت أن أتمَّ الحديث عن الجامعة؛ على الأقل إكرامًا لروح الدكتور "ثابت".

استهللت:

- لو الفلوس مش مشكلة.. كنت تحب تدخل كلية إيه؟

صمت "جوافة" قليلًا ثم ردَّ:

- ما اعرفش!
- حقوق مثلًا؟
- لأ.. ما باحبِّش المحامين.
- ممكن سياسة واقتصاد؟
- آه... حلوة دي.
- طب وانت يا "غراب"؟

ردَّ بإحباط:

- مش هتفرق يا أستاذ!

- ليه بس!
- لو هتفرق قوي هبقى أضرب شهادة.
- طب هتضرب شهادة إيه؟
- هندسة.
- على طول كده! طب وانت داخل أدبي ليه طيب؟
- طالما هنضرب يبقى نضرب الكبيرة!
- عامَّةً أنا باقول لك لو هتدخل الجامعة عشان الشهادة يبقى اضرب الشهادة وما تدخلش...

خرج "الراعي" عن صمته:

- أُمَّال يدخلها عشان إيه.. عشان السن والناس اللي جوَّا والكلام بتاع المرة اللي فاتت؟

تراجَعتُ:

- دي لعبة يا "إمام"!
- يا أستاذ الدنيا بنت أحبة لوحدها.. ما تَضيَّقهاش علينا زيادة والنبي!

صمتُّ لثواني في محاولة لتهدئة الأجواء وامتصاص الشحنة، ثم رددت:

- صح.. الدنيا بنت ستِّين أحبة.. بس مش هتقابل ناس كتير في حياتك تقول لك اللي أنا بقوله ده.. أنا باوسَّعها لك مش باضَيَّقها يا "إمام".. الإنسان بيفضل طول عمره يتعلم ويستقبل من العالم اللي حواليه.. والعالم

ابـن الأحبـة ده يقـدر يقنعـك بـكل حاجـة وعكسـها.. المهـم إنـه يسـتفيد منـك.. يقـدر يسـتغلَّك ويسـتغل مخـك.. يقدر يفَهِّمـك طـول الوقـت إن ناقصـك حاجـات كتـير عشـان تبقـى بنـي آدم أنجـح.. أشـطر.. أغنـى.. يخلُّـوك تفضـل طـول الوقـت تجـري ورا حاجـات مـش هتحصَّلهـا.. عشـان في الآخـر إنـت الهـدف الـلي بيـدوَّروا عليـه...

لاحظت أن "الراعي" لم يقاومني، فتابعت بحماس:

- إنـت بالنسـبة ليهـم عبـارة عـن مسـاحة لازم يكسـبوها.. عايزيـن ياخـدوا وقتـك ويسرقـوا اهتمامـك.. وهـو ده الخطـر الـلي بجـد.. هـي دي الخطـة مـن سـنين.. والخطـة مـش سر.. ومـع ذلـك محـدِّش بيعمـل حاجـة.. العـالم كل يـوم بيبقـى ابـن أحبـة أكـتر.. وكل يـوم بيلاقـي طريقـة يوهمـك بأفـكار بتخلِّيـك أغبـى مـع الوقـت.. ويحسِّسـك إنـك بتبقـى أذكى.. وتعيـش في وهـم لحـد مـا تكـبر ولمـا تقـرَّب تمـوت تكتشـف إنـك سـلِّمتهم أهـم شيء بتملكـه.. وقتـك.. وعقلـك...

رد "الراعي" مستنكرًا، لكن في عينه الفضول:

- والجامعة بقى هتحل الدنيا دي؟

اسـتحضرت وقتهـا سـنواتي الأولى بالجامعـة في بنسـلڤانيا، وروح الفضـول والشـك:

- مـش لازم.. يامـا نـاس دخلـت وخرجـت وكانـوا أوسـخ خلـق اللـه.. وأنـا مـا اعرفـش انتـوا هتخرجـوا مـن الجامعـة

عاملـين إزاي.. بـس تقـدر تقـول إن الجامعـة مـكان تقـدر تسـتخبَّى فيـه مـن العـالم.. تحمـي نفسـك بشـكل مؤقَّـت.. الأفـكار الغبيـة هنـاك أقـل.. لحـد مـا تعـدِّي الـكام سـنة دول.. طريقـة تفكـيرك تبقـى أوضـح.. تتنـوَّر.. عشـان كـده عـلى قـد مـا لازم تكـون مسـتعد تقابـل أكـبر عـدد مـن النـاس.. لازم بـردو تعـرف هُـمَّ مـين.. وجايـين منـين.. وانـت مـين وجـيّ منـين.. وإيـه الـلي بيتقـال لـك.. وبيتقـال لـك ليـه.. وتعـرف إيـه الهـدف الـلي ورا كل كلمـة.. تتعلـم تقـرا بـين السـطور.. تحكِّـم عقلـك.. تشـغل خيالـك.. ترجـع لضمـيرك في كل خطـوة.. تبقـى واعـي.. هـيَّ دي الحاجـات الـلي هتحميـك بجـد.. تحافـظ عـلى عقلـك وعـلى ضمـيرك.. عـلى روحـك.. عمـرك مـا تبيعهـم ولا تسـلِّمهم لحـد أبـدًا.

ردَّ "الراعي"، هادِمًا لكل قَصرٍ بنيته في رمال النظريات:

- واللـه الـكلام ده يمـشي لـو جـوَّا اللعبـة.. بـس طالمـا مفيـش فلـوس يبقـى مفيـش الـكلام ده.. فخلِّيـك معانـا في الدنيـا شـوية وحيـاة ولادك وفُـكَّك مـن الشـغل ده!

كلامـه وجيـه. مـاذا أقـول! الصراصـير لا تنصـح الصراصـير. توقَّفـتُ. وأنهيـت الحصـة قبـل أوانهـا. واعتـذرت عـن الحصـص المتبقيـة في اليـوم، وغـادرت. لم أكـن أرى غـير وجـه الأسـتاذ في تلـك اللحظـة. أنـا في أشـدِّ الحاجـة إليـه. كان عـلى حـقٍّ. يجـب أن أراه. كيـف تخيَّلـتُ أن ينتهـي بي الحـال دون أن أتحـدث إليـه مـرة أخـرى؟ فيـم كنـتُ أفكـر؟ سـاذج... تكـرَّرَت سـذاجاتي.

في طريقي إلى منزل الأستاذ، تلقَّيتُ مكالمة من عم "رجب"، الذي بادر دون سلام:

- إنت فين دلوقتي؟
- رايح مشوار.
- سيب مشوارك وتعالى حالًا!
- ليه.. فيه إيه؟
- لقيت "ملكة الحفناوي"...
- مين؟
- مديرة قسم الترميم!
- آاااه.. بس معلش يا عم "رجب" أنا رايح مشوار مهم!
- يعني إيه.. أنهي أهم؟
- معلش حقَّك عليَّا يا عم "رجب".. بُكرة هاعدِّي عليك!
- خلاص بشوقك.. بس خليك فاكر مين اللي جابك من الأول.. ومين اللي لحقك في الحلم!
- بكرة يا عم "رجب" هـــ...

أغلق عم "رجب" المكالمة قبل أن أكمل اعتذاري.

***

الفصل الرابع

تنِّين حافة الوجود

60

أمام الباب الرئيسي لفندق شهرزاد، على الكورنيش، وجدت عربات بوليس وشاحنات مطافئ. تجمَّعَت الناس تنظر لأعلى، تُوحِّد وتحوقل، وتعلِّق بعبارات يملؤها التَّشفِّي، "آخرِة النجاسة"، "من أعمالكم سُلِّط عليكم"، فرفعت عيني لأجد الفندق وقد تمكَّنَت النيران من بنيانه المخمور.

ما هذا العبث! هل استجاب الله لدعوتي أثناء حديثي مع أرملة الدكتور "ثابت" بأن يُحرَق مسئولو الفندق؟ لقد كانت دعوة جوفاء لا ترتقي حتى لمرتبة اللَّغو. كانت مجرَّدَ مجاملة مبالَغ فيها لكسب ود السيدة. على كل حال، لقد تحقَّقَت. وبالتأكيد سيتعطل العمل في الكباريه لعدة أيام حتى يتمَّ إصلاح ما أفسده الحريق. فلتنعم السيدة الطيبة بالهدوء الذي تستحقُّه. والوقت الكافي للحداد اللائق، شعرت أنني قدَّمتُ لها هدية متواضعة، وابتعتُ لها أيامًا من الراحة، بسبب دعوة بلهاء عابثة تحققت لسبب غير معلوم.

عمارة الأستاذ "سليمان" تبعد مسافة خمسين مترًا عن عمارة الدكتور "ثابت". مشيتها متأمِّلًا أدخنة الحريق في السماء. وقدرتي على جعل الأشياء تحدث بمجرد التفكير فيها. فكَّرتُ في مئات الأشياء التي أودُّ لو تحدث بدعواتي، أودُّ أن ينفضح "أحمد عاكف" ويحظى بسافل المراتب في الجامعة، وأن يتمكَّن طلابي الثلاثة من الالتحاق بالجامعة، وأن تعود "فيونا" ولو

لساعة كي أتمكن من التحدث إليها مرة أخرى، أو حتى لأودِّعها الوداع اللائق. أودُّ أن أرى موقع أمي في الجنة؛ لأتأكَّد أنها على ما يُرام في "الناحية التانية".

أودُّ أن أعود لتلك الأيام التي لم أكن أعي فيها أي شيء، ثم أكمل حياتي متعمِّدًا تَجنُّب أي لحظة من لحظات الوعي، أن أعيش حياتي في سعيٍ دائم للوصول لهدف زائف، ولا أشغل بالي أبدًا إن كان الهدف موجودًا من الأساس أم لا. يا لها من حياة، تلك التي يعيشها عم "هوجان".

وصلت لباب الأستاذ. وقفت طويلًا أمام الجرس، أتحضَّر لكل السيناريوهات، لكني لم أتخيَّل أي سيناريو يمكنني أن أخرج منه منتصرًا. فضربت الجرس على عِلَّة الأمر، لعلَّ السماء تهديني مَخرجًا لا أراه.

فتحت الممرضة الباب، فتاة في مشارف الثلاثين، ملامحها عادية بشكل لا يمكن أن تتذكَّره، وتعبيراتها خاوية إلى حدٍّ مُقلِق:

- ممكن أقابل أستاذ "سليمان"؟

- مين حضرتك؟

فكَّرتُ للحظات:

- قوليله.. صديق جديد!

أخذت مني الكلمات ودخلت، ولم تعلِّق حتى على المفارقة فيها. ثم خرجت بعد دقائق وأشارت لي بالدخول.

في وقت الأصيل، ظهر كل شيء في الغرفة مُحدَّدًا بظِلِّه. لم أدخل تلك الغرفة من قبل، كنا فيما مضى نتقابل في غرفة المكتب المجاورة. غرفة النوم شاسعة، أكبر من غرفة المكتب بالضعف على الأقل، طرازها عتيق، بمحاذاة الجدار الأيمن يقبع دولاب بلاكار عملاق، بني داكن، أقتم من لون الشاي المثالي بدرجتين على الأقل. عن يمين الباب وفي الجهة المقابلة للدولاب، ظهر سرير ضخم، له ظهر مبطَّن ومطرَّز بأزرار حريرية لامعة، فوقه ملاءة وأغطية ومخدات مُعَدَّة بعناية بالغة، وبجانبه كومودينو مزدحم بالعقاقير المرصوصة بخبرة واهتمام.

في عمق الغرفة، وبالقرب من الشباك الواسع، كانت هناك جلسة من مقعدين وثيرين، بينهما طاولة رخامية فخمة، صالون صغير بالأصح. يواجه الكرسيان الشباك الواسع، موليان ظهريهما إلى الباب، حيث دخلت. وبجانب الكرسي الأيسر، رأيت عمودًا حديديًّا طويلًا، مُعلَّقًا به كيس محلول شبه فارغ، يتدلَّى منه أنبوب شفاف متَّصل بذراع نحيلة مرتاحة على مخدع المقعد المزركش، بينما يغطي ظهر المقعد باقي الجسد بالكامل.

بدت الجلسة والحامل والكيس وذراع الأستاذ في هيئة رسمة ظلٍّ بلا تفاصيل، ظلال مبهمة تقطع ضوء الشمس النحاسي الذي يقتحم الغرفة. تمعَّنتُ في ذراع الأستاذ، وأخذت خطوة للأمام فلطمتني رائحة المطهرات والأدوية. وصدر صوت الأستاذ الخشبي تشوبه حشرجة، دون أن يظهر أي جزء من جسده سوى ذراعه المطعونة بالإبرة:

- صديق جديد... ها!
- عشم زائد؟
- أبدًا... عشم ضيَّع عليَّ نِكات كنت أجهِّزها من فترة!
- أحب أن أسمعها!
- فقَدَت وقعها الآن.. ربما لاحقًا...

نظرت للكرسي الشاغر وانتظرت أن يدعوني للجلوس، لكنه لم يفعل، ثم تذكَّرتُ طبيعة ما كان بيننا. لم يضايفني الأستاذ من قبل قطُّ. لم يَدعُني للدخول أو للجلوس أو للرحيل في أي مرة. لم يأمر لي حتى بشاي أو قهوة. كنت دومًا أتجوَّل بحرية في المكان، أجلس حينما أريد أينما أريد، ولمَّا لم يَدعُني للجلوس لم أجلس. بل تجوَّلتُ. وسِرتُ إلى مكتبة على الجدار المجاور للجلسة، صغيرة مقارنةً بالمكتبة التي كانت في مكتبه، فوقفت أمامها أتأمل الكتب. وواصل هو الحديث:

- طال غيابك!
- لم يَطُل بالقدر الكافي.
- لكنك رجعت!
- مصير كل شيء الرجوع.
- لا أظن...

لم أجادله، بل تابعت تصفُّح أسماء الكتب على كعوبها فوق رفوف المكتبة. رأيت رواية الغريب لـ"ألبير كامو" فأمسكت

الكتاب وأخذت أتصفَّحه. أوراقه صفراء، وأطرافه مهترئة. فرآني على الأرجح وأنا أفرُّ صفحاته، لأنه سأل:

- هل ما زلتَ تلعب لعبة السبع سنوات؟

وددتُ لو أن أقول "نعم.. حتى الليلة الماضية"، لكني لم أكن مستعدًّا لهذا القدر من الاستسلام بعدُ، ما زال سخطي منه عالقًا، وبقايا خزي الفشل مترسِّبة في أعماقي. أجبت:

- بالطبع لا!
- ماذا حدث... كبرت عليها؟
- لا.. هي الحياة فقط!

صمت قليلًا، ثم أدار دفَّة الحوار:

- البقية في حياتك.. لم أُعزِّكَ بالشكل اللائق.. لكن...

رفع ذراعه والأنبوب ما زال فيها، مشيرًا بأن مرضه هو سبب عدم حضوره للعزاء. استدرت حول المقعد الشاغر في الجلسة. وتوقَّفتُ ونظرت إليه.

كاد أن يتوقف قلبي، لم أحسب حساب فارق السنين الذي تبدَّى على وجهه الشاحب، ولا حساب المرض الذي انطلى على جسده المنحول. كم تغيَّبتُ؟ لا يمكن أن يكون هذا فِعل عشر سنوات فقط. قُلْ ثلاثين عامًا على الأقل. طار الشِّعر تمامًا، واختفى لحم وجنتيه، ذبلت عيناه، واسودَّ محجراها. انحنى ظَهرُه حتى صار كعلامة استفهام. متى حدث كل هذا؟

احتويت الرعدة في صدري، وقلت بصوت مكلوم:

- لا عليك.. حياتك الباقية!
- كيف حال شغلك الجديد؟

قرَّرتُ مجاراته لأعرف كم يعرف من أمري:

- شغلي الجديد!
- المدرسة.

قلت ساخرًا ممتَعِضًا:

- إن كانت قد أخبرتك بأمر المدرسة.. لماذا لم تخبرك بحالي فيها أيضًا؟
- أتظن أن الست "هانم" مُكلَّفة مني بمراقبتك؟

لم أرُدَّ. لكني مددت ذراعي لأعيد الكتاب إلى مكانه، واتجهت للكرسي الشاغر، فجلست. أخذت أتأمَّل في تقاسيم وجهه، وتجاعيد عينيه، العجز والشيب والشحوب، كل تفصيلة في جسده تصرخ بِكَمْ أنهكه المرض. لكني حين نظرت في عمق عينيه الذابلتين، رأيتهما رائقتين هادئتين إلى حدٍّ غير منطقي. نظر لي بتينك العينين العذبتين، وثقب دفاعاتي، وقال:

- أنت مخطئ.. هي فقط قَلِقَة عليك.. ولسببٍ ما تظن أن لي تأثيرًا عليك!
- ومن أين أتاها هذا الظن؟
- ربما من الست والدتك.. رحمها الله!

- ومن أين أتي الظَّنُّ والدتي؟
- ربما منك!

صمتُّ قليلًا، ثم ابتسمت:

- هل ما زلت تظن أنك التنِّين؟
- لا يهمُّ.. طالما كنتَ أنتَ الطفل.. فلا تأثيرَ لي عليك.. تنِّينًا كُنتَ أو فرخة!
- هذا يعيدني إلى كوني صديقك الجديد!
- آخر صديق لي على الأرجح!

ارتجَّ قلبي في مكانه، لا أستأهل أن أكون آخِرَ صديق له، كيف يصادق العمالقةُ أقزامًا؟ آخر صديق له لم يَرَه منذ عشرة أعوام، آخر صديق له لم يُقرِّر أن يزوره إلا حين علم بأمر مرضه، رددت بسرعة:

- لا تبالغ!

تحرَّكَت وجنتاه لتجذب معها شفتيه فيما يشبه الابتسامة، ولم يرد، بل غير الموضوع، حيث نظر من النافذة إلى الدخان المتصاعد من مبنى فندق شهرزاد، وقال:

- شيء ما يحترق!
- إنه فندق شهرزاد!

- أحقًّا! منذ أن رحلت "أميمة" وأنا أخطِّط لزيارته.. وفي كل مرة كنت أؤجِّل الزيارة بدعوى أنه على بُعد خطوتين من المنزل ويمكنني أن أقوم بها في أي وقت..
- ضاعت الفرصة إذًا!
- نعم.. يجب أن أشكر مَن أحرقه لأنه خلَّصني من تهمة التكاسل.. يمكنني الآن أن ألومه بدلًا من أن ألوم كسلي
- اشكرني أنا إذًا!
- أنت مَن أحرق الفندق؟
- نعم!

ابتسم مرة أخرى:

- وكيف فعلتها؟
- لي طريقتي!
- ولكن لِمَ؟
- خدمةً لصديق قديم!

نظر لي ممتنًّا؛ ظنًّا منه أنه الصديق المقصود. فابتسمت بدوري وأشرت للإبرة المتَّصِلة بذراعه:

- ماذا بك؟

ردَّ ساخرًا:

- برد خفيف!

ضحكت، فضحك باهتزازة ضعيفة. قلت:

- والممرِّضة!
- ليست ممرِّضةً.. هي عشيقتي!
- عشيقة في التسعين!
- أليس هذا دليلًا كافيًا أنني ما زلت تنِّينًا؟

ارتفع صوت ضحكتي، وتابعت:

- بالتأكيد.. لكنك لم تفعلها في الستين.. كما يفعلها باقي الرجال!
- أحاول تعويض ما فاتني.
- صدِّقني.. لم يَفُتْكَ شيء!
- هل صِرتَ أكثر مني خبرةً أيضًا؟
- لا العفو.. فلنَقُل فقط.. أقلَّ أملًا.
- لا داعي للمبارزة بالأمل.. حالتي وحدها ستعطيني أفضلية عليك في كل مرة!
- حالتك! ظننت أنه مجرد برد خفيف!
- حسنًا.. هو أخطر قليلًا من مجرد برد...
- حسنًا.. سأعرف عاجِلًا أو آجِلًا.. لكني لن أسألك مرة أخرى!

علت نبرته وتعجرفت واحتدَّت:

- لا لـن تعـرف.. ولا تسـأل السـت "هانـم".. فهـي أيضًـا لا تعـرف.. لا أحـد يعـرف.. ولا يجـب لأحـد أن يعـرف!

أغضبتني عجرفته، فهاجمته:

- أنـت سـاذج.. السـت تعـرف.. وأنـا أعـرف.. لا وقـت لتلـك الألاعيـب الطفوليـة...

احمرَّ وجهه، وعلت أنفاسه، وضمَّ قبضته استعدادًا للعراك:

- كيـف عَرفَـت! أخبرتهـا الممرضـة البلهـاء بالتأكيـد... وأخبرتـك هـي بدورهـا.. ألهـذا جئـت؟ لتسـأل عـن المريـض العاجـز؟ ليسـت هـذه سـوى زيـارة مريـض أخـيرة لتريـح بهـا ضمـيرك.. بالطبـع هـي كذلـك.. كنـت أعـرف.. لـولا ذلـك لمـا جئتنـي أبـدًا.. لا أريـدك هنـا.. لسـت بحاجـة لهذه الشـفقة.. ارحـل عـلى الفـور.. وخُـذ معـك تلـك الغبيـة في الخـارج.. هـي مرفـودة!

- وما ذنبها هي!

- ذنبها أنها غبية.. ونمَّامة!

- ومَن يرعاك؟

ضرب بقبضته المرتعشة على المخدع المزركش، وقال بملء صدره:

- لم أُشَلَّ بَعدُ.. اخرُج ولا تَعُد.

خرجـت مـن البيـت، وخرجـت معـي الممرضـة، وسـار كلٌّ منَّـا في طريقـه. تابعـت السـير جهـة اليسـار، وعـبرت الكورنيـش، ثـم وقفـت عـلى الجهـة المقابلـة للفنـدق. اعتـدل الجـوُّ بشـكل نسـبي، وخفَّـت لسـعة الـبرد، وصـار الجلـوس في الهـواء الطلـق طقسًـا مُحبَّبًـا، فافترشـت إحـدى دكك الكورنيـش حتـى هبـط الليـل، أفكـر في الأسـتاذ، وأشـاهد رجـال الإطفـاء في محاولاتهـا الدؤوبـة لإخـماد الحريـق الـذي أشـعلته أنـا بدعـوة.

***

61

عُدتُ إلى سريري. أحدِّق في العدم. لأول مرة لا أريده أن يبتلعني.

آلمتنـي ضرورة إصـلاح مـا أفسـدته مـع الأسـتاذ. هـو مـن بـين كل البـشر، لا يمكـن أن ينتهـي الأمـر بيننـا بهـذه الطريقـة. ليـس خوفًـا عـلى حياتـه، فـلا أظـنُّ أن أمثالـه يموتـون؛ لكـن خوفًـا مـن أن ينتهـي العـالم ونحـن عـلى خـلاف. حتـمًا سـيكون أمـرًا ممتعًـا أن أكـون بجانبـه في حـدث هـام مثـل نهايـة العـالم. سـأعود إليـه مـرة أخـرى لأعتـذر منـه، لكـن يجـب أن يهـدأ أوَّلًا.

في الصبـاح، قـرَّرتُ عـدم الذهـاب للمدرسـة. تعمَّـدتُ التلكُّـؤ في السريـر، تسـطَّحتُ أعيـد تقييـم كل خطـوة أنـوي أن أخطوهـا فـور أن أضـع قدمـي عـلى الأرض، وأزن قيمتهـا مقارنـة بقيمـة الراحـة

التـي أرفـل فيهـا في تلـك اللحظـة. تلـكَّأت حتـى أذَّن الظهـر. آثـرت الإفطـار عـلى غـير العـادة، ثـم النـزول لمقابلـة السـت "هانـم" بعـد العـصر، لمناقشـة مـا يمكننـا فعلـه بخصـوص إعـادة الممرضـة.

باكـو بسـكويت نواعـم، وكـوب شـاي بلـون المكتبـة المضبـوط. أعـاد الإفطـار بعـض الأمـور إلى نصابهـا، خرجـت إلى البلكونـة، الجـو ملبَّـد بالغيـوم، شـممت رائحـة أمطـار وشـيكة، وتذكَّـرت "أشرف نـصر"، ونظـرت إلى الشـقِّ الـذي يظهـر منـه إلى المـسرح، لم أره، لعلـه يشـعر بقُـرب المطـر مثـلي. لـو رأيتـه لسـألته عـن علاقتـه بالصراصـير، هـل ينقذهـم.. أم يأكلهـم.. أم يتركهـم لحالهـم؟

أذَّن العـصر، وخـرج عـم "هوجـان" مـن الشـقِّ الـذي يخـرج منـه إلى المـسرح، ورفـع رأسـه فـرآني، رفعـت يـدي لأحيِّيَـه، فنظـر لي باحتقـارٍ ولم يَـردَّ. بالطبـع، فلنـا حديـثٌ مُؤجَّـل منـذ آخـر مكالمـة دارت بيننـا. سـأعتذر منـه وأسـتكمل معـه رحلـة جمـع القـرآن، حسـنًا، فليَكُـن ذلـك عقـب صـلاة العشـاء.

تغيـير آخـر طـرأ عـليَّ منـذ أن سـكنت المنـيرة، صـارت كل مواعيـدي مرتبطـة بمواقيـت الصلـوات، دون الحاجـة لتحديـد سـاعة مُعيَّنـة، السـت "هانـم" بعـد العـصر، عـم "هوجـان" بعـد العشـاء، وبالطبـع الشـيخ "رفعـت" قبـل الفجـر.

بعـد العـصر، طرقـت بـاب السـت "هانـم" بالـدور الأول، فلـم تـرُدَّ، تابعـت النـزول مـرورًا ببـاب الـدور الأرضي، وقفـت للحظـة أفكِّـر في طرقـه وانتظـار السـت "هانـم" بصحبـة "نجـوى"، ثـم تذكَّـرتُ كلـمات السـت "هانـم"؛ "لـئن أختـلِ بنفـسي ثلاثـين مـرة في

اليـوم خـير لي مـن أن أَمَـسَّ 'نجـوى'..."، وسـاقتني الكلـمات خـارج البيـت مُسرِعًـا، لأجـد "جوافـة" يجلـس عـلى عربـة الكوسـة، وأمامـه يقـف "غـراب" يتحـدَّث متلهِّفًـا، فعـبرت الشـارع، وسـألته:

- مالك يا "غراب"؟

- مفيش حاجة يا أستاذ...

ثم تابع مخاطِبًا "جوافة":

- إنجِز يا "جوافة"!

كان "جوافـة" بالفعـل يتحـرك بسرعـة، يغطِّـي الكوسـة بقطعـة خيـش، ثـم تـرك الفرشـة عـلى حالهـا، وراح يهـرول في إثـر "غـراب"، فناديـت عليـه وأنـا ألحـق بهـما:

- يا "جوافة".. فيه إيه!

ردَّ وهو يختفي خلف نصبة الملابس الداخلية على الناصية:

- "الراعي" معاه حوار...

نسـيت أمـر السـت "هانـم"، وحديثنـا المنتظـر عـن الأسـتاذ، وهرولـت خلـف طـلابي...

***

62

ركضوا... وركضت.

كانوا أخفَّ وأسرع وأرشق في الانسياب بين عربات الفاكهة، وتكتُّلات الزبائن المجتمعة حولها، في شارع السوق المكتظ. لم أركض منذ سنين لا أذكر عددها، ذهلت من مدى رداءة حالتي البدنية، وسعة رئتيَّ المخزية، لكني لم أفقد أثرهما على مرمى البصر، فعلى الأقل بصري ما زال بخير.

خرجنا من شارع السوق إلى ساحةٍ يتوسَّط صدرها لافتة ضخمة لمحل ملابس عملاق يُدعَى "برج إيڤل"، بناء ضخم شاهق في صورة محل، يبدو كمنارة تظهر عن بُعد، ترشد الناس لمكان النصبات الصغيرة المتمسحة برحابه، يشير إليها البرج ويحميها ويحدد محيطها، يجلب لها رزقًا جديدًا في كل يوم، حارس يطلُّ على الساحة. لا أذكر أن الساحة كانت مزدحمة لهذا الحد قبل أن أسافر، لكني لم أعُد أتعجَّب من التغيرات التي أراها منذ أن عدت.

تبدَّت الساحة أشبه بميدان قتال روماني، عربات الشرطة تقف بأركان عدة، تغلق المداخل والمخارج، وحالة من الذعر تسود الرُّوَّاد. يطوف بين النصبات المدمَّرة عِدَّةُ ضباط وعساكر، مع مجموعة من موظفي البلدية في زيٍّ ملكي. موظفون ذوو أذرع مفتولة، وزنود مهولة، يتحركون في خيلاء بين الباعة المنكوبين، ينهشون كل ما تطاله أيديهم ليضعوه فوق سيارة

من سيارات النقل الدوارة في الساحة. غربان تحصد غنائم معركة دارت منذ دقائق، لم يحُطَّ غبارها بعدُ.

فرشات عطور وبخور. نصبات ملابس وأحذية متواضعة الجودة زهيدة السعر. عربات لبيع ريموتات التليفزيونات والكشافات الصينية ومشابك الغسيل والحبال وألعاب الأطفال. طاسات لقلي العصافير تفوح منها رائحة زيت مؤكسد. وسيدات سمان يجلسن أرضًا أمام صوانٍ معدنية عليها أكوام من فتات وبواقي جاتوهات مكدَّسة في هيئة هرم وعليها ورقة تقول "وارِد جروپي".

استولت البلدية على معظم الأشياء من أصحابها. ومن بين كل خمس أو ست نصبات استسلم أصحابها، كان هناك بائع يقاوم، ويتوسَّل إلى أصحاب الزنود المفتولة، في جدالٍ خاسر ينتهي بتكسير فرشته أو نصبته، وتلف بضاعته أيًّا ما كانت.

أما "إمام الراعي"، فظهر يتوسَّط المشهد، مُمسِكًا بياقة قميص أحد موظفي البلدية العتاة، ويناوله من صائب اللكمات، وخلفه ما تبقَّى من نصبته المتهدِّمة، يجثو فوقها موظف آخر يجمع ما تبقَّى فيها من ملابس ناجية ليضعها فوق سيارة النقل الدوارة. فانقضَّ "غراب" دون تفكير لمساعدة "الراعي" على غريمه. بينما قفز "جوافة" على ما تبقَّى من بضاعة في يد الموظف الثاني، يقاومه ويستسمحه في نفس الوقت أن يتركها. وقبل أن أقرِّر لأي شجار سأنضمُّ كان كل شيء قد انتهى. وفاق عدد الموظفين والعساكر عدد طلابي الثلاثة. وانتهى "الراعي"

بين أيدي أحد الموظفين الذي ناله من لكمات "الراعي" حظًّا وفيرًا؛ فاعتبر الأمر شخصيًّا.

اقتربت بثقة، مُعتَمِدًا بشكل كامل على مقامي كمدرس، الذي لا يعلم عنه هذا الكائن شيئًا، وعلى هيئتي التي لا أدري مدى تأثيرها على كائنٍ مثل ذاك الكائن المصاب، وحاوَلتُ أن أثنيه عن قراره بالقبض على "الراعي"، ويكفيه ما خسره من بضاعة، فردَّ عليَّ الكائن مغتاظًا:

- ابعد يا ابن المتناكة بدل ما آخدك معاه!

ذهلت. لم يكن لهيئتي أي تأثير. يجب أن أتوقَّف عن سوء تقدير مكانتي التي أقع فيه دومًا. تمكَّن الغضب مني، ولم أتمالك نفسي. وناولته لكمة سمع كل من في الساحة منها طقطقة أصابعي.

***

63

في حبسٍ مميَّز بقسم الشرطة. جلست على الدِّكَّة أتحسَّس أذني الملتهبة من صفعة طالتها، كانت أقرب لصفعة نعل جلدي سميك. أحاول أن أحرِّك فَكِّي لأتخلَّص من الطنين الذي لا يتوقَّف، وأجرِّب تحريك أصابعي متألِّمًا من الأذى الذي ألحقه فكُّ الموظف الحديدي بها. بينما جلس "الراعي" عن يميني، يتحسَّس شفته المتورمة، وعيناه مغرورقتان، تضجَّان غضبًا ووعيدًا، لكنه يجاهد نفسه ألَّا يبكي.

أنقذنا كارنيه الجامعة الأوروبية الخاص بي من أن نكون نزلاء بمحبس المجرمين الخطرين، وما يمكن أن يحدث لنا فيه. كانت محاولة غير مضمونة العواقب، لكنها تستحقُّ المخاطرة، فحين أشهرته في وجه العساكر والضباط تبدَّلَت معاملتهم لنا على الفور. وتبدَّلَت معها نظرة "الراعي" لي، ازداد الفضول في عينيه، لكنه حاول إخفاءه، تمامًا مثلما فعل في اليوم الذي عرف فيه، هو وصديقاه، أني قد درستُ بأمريكا.

صمتنا لدقائق في حبسنا المميز، لكنه سألني في هدوء:

- إنت كويس؟

- كويس.. ودني بس راحت!

لاحت بين قسمات الغضب في وجهه ابتسامة مكتومة، فابتسمت وقلتُ متألِّمًا:

- أول مرة أعرف قلم الحكومة عامل إزاي!

فضحك، وضحكت:

- شكلك واصل...

- ليه يعني؟

- الكارنيه!

أخرجت الكارنيه وعرضته عليه، وقلت:

- ده كارنيه الجامعة!
- وده بيعتمدوه في القسم يعني؟

لم أُرِد أن أتبجَّح، لكني ابتسمت وقلت:

- مش أي جامعة.. ومش دايمًا بينفع!

صمت للحظات، وتفرَّس فيَّ طويلًا، وبدا عليه الاستياء، وقال:

- بس ماكنتش دخَّلت نفسك في الحوار بردو!
- يعني كنت أسيبهم ياخدوك!
- آدينا اتَّاخدنا احنا الاتنين!
- آهو اللي حصل بقى.
- طب وعليك من ده بإيه؟
- أنا المدرس بتاعك!
- المدرس بتاعي مش مُلزَم يعمل كده!
- وانت كمان مش مُلزَم تعمل كده!
- أعمل إيه!
- تنزل النزلة دي.. ولا تبقى موجود معايا هنا!
- طب ولو ما عملتهاش أنا.. مين هيعملها؟
- لازم يكون فيه حد تاني يعملها!
- ليه يعني؟ صغيَّر أنا واللَّا عويل!

- أيوه صغير.. ولازم تكون بتعمل حاجات تانية.
- حاجات تانية إيه.. الجامعة بردو؟
- أيوه الجامعة.. أو غيرها.. بس مش اللي انت بتعمله ده!
- ماهي الحاجات التانية مش هتنفع تحصل إلا لما ده يتعمل!

أطرقتُ قليلًا، وقُلتُ بقلَّة حيلة:

- لازم يكون فيه حل!
- الحل إن الواحد يبقى قد إنه يعمل ده وده...
- محدِّش يقدر!
- يبقى نعمل اللي نقدر عليه!
- ولو ما عرفتش؟
- أبقى حاولت.. ولما أموت وأقابل جدي أبقى أقول له إني كنت جدع وحاولت!
- بس أنا ممكن أساعدك!
- وأنا مارضاش.. أنا مش مسؤول من حد.. كل واحد يشيل شيلته!

لم يساعدني المنطق. "الراعي" أحكم من مائة صرصار من صراصير الحكيم. يرفض بنفسه مساعدته للخروج، حتى لو قرر البطل مساعدته.

بالقرب من منتصف الليل، انفتح باب الحبس المميز، وناداني أحد العساكر. وفي مكتب المأمور، وجدنا الست "هانم"

تجلس بعكازها ذي رأس الأسد الفضِّيِّ، وكامل أبهتها، وبعد عدة وعود بالخدمات المتبادَلة بينها وبين المأمور، وعدَّة تهديدات لـ"الراعي"، وبعض التوبيخات لي، كنَّا، نحن الثلاثة، في توكتوك عائدين إلى شارعنا.

***

64

جلست مع الست "هانم" أمام محلها، وبعد نفس طويل من شيشتها بدأت في صنع سحابتها الخاصة. لم تذكر أي أمر له علاقة بالقسم، بل سألتني على الفور عمَّا دار بيني وبين الأستاذ، فحكيت لها ما حدث. استاءت، ووبَّختني مرة أخرى. فلم أردَّ، فأنا أستحق التوبيخ على كل حال. وبعد أن هَدَأَت، قلت لها:

- المهم دلوقتي نلاقي طريقة نجيب له بيها ممرضة تانية!
- انت متأكِّد إنه طردها.. واللَّا هزَّقها بس؟
- هي مش قالت لك؟
- قالت لي إنها مش هتروح تاني بس...
- لأ طردها قدَّامي!

صمتَت طويلًا، وبعد عدة أنفاس، قالت:

- طب أنا هاتصرَّف.. بس ما تتِّصلش انت بيه خالص دلوقتي!

مرَّ أسبوع بعد واقعة "برج إيفل". لم أسمع جديدًا من الست "هانم" عن الأستاذ. أما في المدرسة فقد ظهر "جوافة" و"غراب"، لكن لم يظهر "الراعي". سألتهم عنه مرات عدة، فكانوا يقولون إنه مشغول باستعادة بضاعته، وملمة ما تبقَّى من النصبة، وبأنه سيعود حتمًا.

أسبوع هادئ تمامًا. شعرت أن لديَّ مُتَّسعًا من الوقت، ووددت أن أتخلَّص من بعض الأمور التي بدأت تتراكم فوق رأسي. فاضلت بين أن أتَّصل بعم "رجب"، وأستكمل معه رحلة جمع القرآن، وبين إنهاء علاقتي بالجامعة، فشعوري بأن المدرسة هي المكان الأمثل بات أقوى، ولا داعي للإطالة في أمر الجامعة أكثر من ذلك.

شعرت أن الشروع في خطَّة الانتقام من "أحمد عاكف" أولى من رحلة جمع القرآن. كانت الخطة شبه مرسومة في ذهني. فانتهزت فرصة يومي الشاغر في المدرسة، واتَّجهتُ إلى جامعة المنصورة، أبحث عن المعيد المدعو "أشرف نصر"...

***

65

"أشرف نصر الدين"... لن أتمكَّن من محو الاسم من ذاكرتي.

رحلت إلى المنصورة وأنا لا أدري مدى قابلية نجاح الخطة. بعد السؤال والبحث، وصلت إلى كلية الآداب، ودخلت بصفتي أحد دكاترة الجامعة الأوروبية المكلَّفين بإعداد برنامج تبادُل ثقافي بين الجامعتين، مُشهِرًا كارنيه الجامعة في وجه كلِّ مَن هبَّ ودَبَّ، الصفة التي أجدت نفعًا في كل خطوة، بداية من أمن البوابة، إلى بعض الطلبة والمعيدين وحتى الدكاترة.

وبعد عدة محاورات مُختَلَقة مُزيَّفة، مع طالب هنا، ومعيد هناك. عامل بوفيه هنا، وعاملة نظافة هناك. جمعت بعض المعلومات، منها ما يخصُّ المعيدين التي لا تهمُّني، ومعها أخرى عن وجهة بحثي، المعيد المختار، "أشرف نصر الدين"، الذي ادَّعيتُ أنه مرشَّح للفوز بمنحة لا وجود لها لبرنامج تبادُل ثقافي مزيَّف.

كان المعيد المنتظر مشغولًا في أحد الاجتماعات مع أحد الدكاترة، فانتظرته على كرسيٍّ أمام باب البوفيه المطلِّ على غرفة المعيدين، مثلما أخبرني عامل البوفيه المضياف، الذي بالغتُ في بقشيشه.

أخبرني كلُّ مَن سألتهم من زملائه، وطلابه، وعمال القسم، أن المعيد المذكور هو أحد أغرب معيدي الجامعة، فحين كان طالبًا لم يكن له أصدقاء، أو علاقات مع أي من زملاء دفعته،

كان من بين أكثر الطلاب انطوائيَّةً. غير أنه حظي ببعض الشعبية بينهم بعد أن صار معيدًا. ذلك حين اتَّضح لطلبته ولزملائه المعيدين من حوله، أنه متعاون، وودود، ولا يضنُّ بعلمه أو بوقته أبدًا.

ظهر بعد مدة قصيرة في الرواق، أشار لي العامل المضياف بوصوله، كان في هيئة تنمُّ عن مستوى متواضع اجتماعيًّا، مقارنة بباقي مَن قابلت من المعيدين زملائه، حتى طريقة سيره، وخطواته السريعة المتقاربة، وابتسامته الباهتة التي لا يتوانى عن تقديمها لكلِّ مَن يعترض طريقه، بهدف السؤال، أو السلام، أو التَّجاهُل حتى.

وقفت فور أن اقترب من باب غرفة المعيدين، وسلَّمت عليه، فقدَّم لي ابتسامته المجانية، ودعاني لغرفة المعيدين. كان هناك معيد آخر في الغرفة يلملم أغراضه استعدادًا للرحيل. سألني المعيد تعيس الحظِّ:

- أقدر أساعد حضرتك ازاي!

انتظرت حتى رحل المعيد الآخر، وأغلق باب الغرفة خلفه، وبِتنا منفرِدَيْن تمامًا، فقلت:

- دكتور "عيسى عبد السلام".. مندوب لجنة التحقيقات في الجامعة الأوروبية!

- ... تشرَّفنا!

- واللـه يـا أسـتاذ "أشرف" أنـا آسـف عـلى الزيـارة المفاجئـة دي.. بـس ده جـزء مـن شـغلنا!

- .. مفيش أزمة! أنا تحت أمرك.

- اللجنـة أوفدتنـي عشـان أحقَّـق في وقائـع متكـرِّرة حصلـت عندنـا مـع دكتـور اسـمه "أحمـد عاكـف"!

لكـم أحـبُّ تلـك اللحظـات. قـراءة ملامـح الوجـه أسـهل مـن قـراءة الصحـف. تبلَّـد وجهـه، واتَّسـعَت عينـاه، واختفت ابتسـامته. فقلـت:

- أظن حضرتك تعرفه!

- مش.. واخد بالي!

- دكتـور "أحمـد حسـن عاكـف".. رئيـس قسـم الفلسـفة في الجامعـة عندنـا!

- ... آه.... دكتور "أحمد".. أستاذنا كلنا طبعًا!

- للأسـف.. دكتـور "أحمـد" ظهـرت حواليـه شـبهات كتـير الفـترة الـلي فاتـت بخصـوص أوراق بحثيـة هـوَّ نشرهـا.. هـل حضرتـك متابـع شـغله؟

- لا بصراحة.. ماخُدش بالي!

أخرجـت ورقـة "أحمـد عاكـف" المنشـورة، مطبوعـة في أوراق واضحـة، ووضعتهـا أمامـه:

- هل حضرتك شُفت البحث ده قبل كده؟

تَوتَّـر المعيـد تعيـس الحـظ، وتعـرَّق، وبـدأ ينظـر حولـه، كأنـه يبحـث عمَّـن ينجـده مـن هـذه الورطـة. ثـم ردَّ:

- ما اظُنِّش إني...

لسبب ما شعرت بأني لا أودُّ أن أزيد من عذابه، فقاطعته:

- أسـتاذ "أشرف" حضرتـك معيـد مجتهـد.. واحنـا مـا نحبِّـش نئـذي حـد.. لـو حضرتـك تجاوبـت معانـا أوعـدك إن الأمـر مـش هيتخطَّـى التحقيـق الداخـلي في الجامعـة عندنـا.. والعقوبـة هتقـع عـلى "أحمـد عاكـف" لوحـده.. خصوصًـا إن في الملفـات الـلي زي دي.. كل المعيديـن الـلي اتاخـد منهـم أبحـاث زي حضرتـك وكل زمايلـك في الجامعـات التانيـة.. اللجنـة بتعتبرهـم ضحايـا.. مـش مدانـين!

- هو.. حضرتك اتكلِّمت مع معيدين تانيين؟

- أكيـد.. دكتـور "أحمـد عاكـف" شـخص غـير أمـين وغـير كفـؤ وكان لازم نوقـف المهزلـة دي!

- بـس أنـا عايـز أفهِّـم حضرتـك يـا دكتـور.. الموضـوع كان مجـرد ورقـة أنـا بِعتَهـا عشـان كنـت محتـاج فلـوس.. مـش أكـتر!

- صدَّقني إحنا متفهِّمين.. مش حضرتك المقصود أبدًا.

- بس أنا.. مش هينفع...

- مـا تقلقـش خالـص.. حضرتـك كل الـلي مطلـوب منَّـك إنَّـك تدِّينـا نسـخة مـن البحـث الأصـلي.. ولـو فيـه أي تواصـل

حصل بينكم ممكن ناخد منه "سكرين شوت".. ونمسح منه إسمك.

- لأ.. سكرين شوت إيه.. أنا آسف.. مش هاقدر.. أنا... أنا ما اعرفش حاجة عن الموضوع ده...

شعرت أني تساهَلتُ معه، بدَّلتُ نبرتي:

- اسمع يا أستاذ.. أنا جي أعرض عليك أقل الطرق ضررًا ليك.. عشان مش انت خصمنا أصلًا.. لو رفضت التعاون.. هنضطر نستدعيك بشكل رسمي.. ونبلغ مجلس الكلية.. والمجلس الأعلى للجامعات.. وساعتها الضرر هيبقى صعب نستدركه.

ارتعد المعيد المتردِّد، وعلت أنفاسه، وكِدتُ أرى رأسه ينبض من فرط الخوف. وقال متلجلجًا:

- طيب.. أرجوك.. أنا شخص في حالي جدًّا.. إوعِدني إن الموضوع مش أكتر من مجرد تحقيق داخلي عندكم!

- أوعدك...

عدت من الجامعة بنسخة من البحث الأصلي، وصور لعدة إيميلات بين المعيد المتعوس وبين "أحمد عاكف"، تؤكِّد تواصلهما بخصوص هذا البحث منذ عدة سنوات. لم أنم ليلتها لدقيقة واحدة من فرط التَّحفُّز، أعدُّ الدقائق حتى تبدأ ساعات العمل في الجامعة، وأجهِز على "أحمد عاكف" نهائيًّا.

***

وصلت الجامعة. وجلست في انتظار حضور رئيس الجامعة. وجاءني مرسول منه بعد ساعة أن الرئيس قد وصل وأرسل في طلبي بنفسه. فذهبت مرتابًا.

في مكتب رئيس الجامعة، كان "أحمد عاكف" يجلس هناك بالفعل منتفشًا كالعادة، بدا كلاهما بنفس الوجه، كأن هناك صداقة وطيدة تجمعهما، أو أن هناك أمرًا ما، أو حديثًا خاصًّا، قد دار بينهم قبل دخولي بدقائق. وفطنت أن خطتي الأولى لن تنجح. لكني جاريتهم على أي حال.

أخبرني الرئيس دون مقدِّمات أني محال إلى التحقيق، وموقوف عن العمل، وذلك بناء على تقرير قدَّمه "أحمد عاكف"، يفيد بأن هناك عدة وقائع قد بدرت مني تدلُّ، ممَّا لا يدع مجالًا للشك، أنني غير أهل للتدريس؛ منها غيابي المتكرر في أوقات هامة من العام الدراسي، ومظهري غير المهندم، وأشياء أخرى لم يورِدها في تقريره. عرفت على الفور أن المعيد الجبان، قد تحدَّث إليه وأخبره بما دار بيننا؛ ولذلك استبقني "عاكف" ليتخلَّص مني قبل أن أقدِّم الأوراق لرئيس الجامعة.

تابع رئيس الجامعة حديثه، الذي لم يكن يخلو من نبرة استعلاء واضحة، وقال إن تقرير "أحمد عاكف" لم يذكر أمرًا مهمًّا آخر، وهو حقيقة إخفائي سر العلاج النفسي الذي أتلقَّاه عند طبيبة نفسية تُدعى "علا وهبي".

قفز إلى ذاكرتي على الفور ذاك الحديث الذي اقترح "أحمد عاكف" عليَّ فيه زيارة الدكتورة "علا"، كنت أعلم في قرارة نفسي أنه لم يكن اقتراحًا حقيقيًّا، لم يكن مدفوعًا بالقلق على صحتي النفسية، اتَّضحَت خطته، كان الاقتراح مجرد ضمانة بأن لديه ما سيمكنه من امتلاك زمام أمري إن جَرَت الأمور على غير المراد، أو تجرَّأت عليه وفضحته. هذا بالضبط هو صميم احتقاري له؛ رئيس قسم الفلسفة يحتقر العلاج النفسي، ويرى فيه وصمةً، ويستخدمه كسلاح في وجه مَن يُقلِقه؛ ولهذا السبب أيضًا انتفش وانتشى حين وافقته على اقتراح العلاج وكأنه انتصر عليَّ.

كنت أعرف أن أمر العلاج النفسي لن يُعدَّ دليلًا ضدي، لكن بالطبع مع التقرير الذي قدَّمه "أحمد عاكف"، والوقائع المزيَّفة التي سيدَّعيها، لن تتمكَّن اللجنة من إغفال ربط تلك الوقائع مع "سر" العلاج النفسي.

بعد أن توقف الدكتور عن الحديث، ابتسمت بهدوء ونظرت إلى كليهما طويلًا، ولم أتحرك، ورأيت الثقة المفرطة في عينيهما تهتزُّ. لم يكن "أحمد عاكف" يعرف أي شيء بخصوص حياتي الشخصية، لم يكن يعرف أنه بتلك الخطوة قد أسداني خدمتين جليلتين؛ أولاهما أنه أنهى علاقتي مع الجامعة، الأمر الذي كنت أماطل فيه لوقت طويل، وأودُّ أن ينتهي من تلقاء نفسه، ثانيهما أنه قد أجهز على آخر ذرَّة شَكٍّ بداخلي تخبرني بأني قد أكون ظلمته، أو أنه لا يستحق ما أنا على وشك القيام به.

***

67

المجتمع العلمي، بل المجتمع كله بشكل عام، لا يحتاج إلى الكثير من الإثباتات للتشكيك في سمعة أفراده، و"أحمد عاكف" بالخصوص لا يملك إلا تلك الفقاعة التي يحاوط بها نفسه، سمعته ومكانته هي أقوى ما يملك، الدكتور اللامع أضعف مما يظن هو نفسه.

خرجت من مكتب الرئيس، إلى غرفة المعيدين. فتحت اللاب توب الخاص بي في هدوء، وبعثت بإيميل واحد لكل من هو ذو صلة وغير ذي صلة في الجامعة، رسالة مفصلة تحتوي على البحث الأصلي للمعيد المأفون، بعد أن ظللت اسمه شفقة به، ومعها البحث المسروق للدكتور المنفوش، وأرفقت مع البحثين صور لرسائل التواصل الذي تم بينهما بعد أن طمست عنوان بريد المعيد الالكتروني. فعلى الرغم من جُبنه لم أُرِد إيذاءه، فعلى الأقل فعله هذا كان مُبرَّرًا، مدفوعًا بسبب منطقي.

ثم لملمت أشيائي، وخرجت من الغرفة، أحمل في حقيبتي بكرة لاصق، ومئات النسخ من نفس الصور التي بعثتها على الإيميل، وطُفت في الجامعة، أعلِّق تلك النسخ في كل مراكز تجمُّعات الطلبة، وغرف المعيدين، وعلى أبواب مكاتب الدكاترة، وفي ساحات التَّسكُّع، ولوحات الأخبار، ومجلات الحائط، وعلى الأعمدة، والكافيتريات، وفي الحمَّامات، وعلى جدران الممرَّات.

لم يكـن الأمـر يتطلَّـب سـوى فضيحـة للقضـاء عـلى "أحمـد عاكـف"، لـن يحتـاج الأمـر حتـى إلى دليـل. يمكنـه أن يحتفـظ بوظيفتـه، لكنـه لـن يحتفـظ بتلـك السـمعة الجوفـاء مـرة أخـرى، مـن الآن فصاعـدًا، سـيرى العـالم كلـه لُبَّـه الأجـوف مثلـما رأيتـه أنـا منـذ اللحظـة الأولى.

***

68

عُـدت مـن الجامعـة في غايـة الانـشراح. لم أنتقـم مـن أحـدٍ مـن قبـل. أقصـد بخـلاف تلـك اللكمـة التـي لكمتهـا لموظـف البلديـة يـوم واقعـة "بـرج إيفـل"، لم أخطِّـط لانتقـام ممنهـج كـذاك مـن قبـل. حتـى في صِغَـري، لم أكـن أبـدًا ذاك الطفـل المنتقـم، إنـه شـعور رائـع، لكـم أضعـت مـن عمـري.

الأمـر يدعـو لإفطـار يليـق بـأول انتقـام لي، مـررتُ بمحـل الدمياطـي، واشـتريت بضعـة سندوتشـات الفـول والطعميـة السـاخنة، وعـدت للمنـزل في وليمـة احتفاليـة. فتحـت الراديـو، وبـدأت في الأكل، وأخـذت أشـاهد انعـكاسي في مـرآة التليفزيـون السـوداء. مبتسـمًا ابتسـامة واسـعة، فخـورًا لحـدٍّ كبـير.

دقَّ الباب.

فتحـت البـاب وتسـمَّرتُ، لأول مـرة تظهـر "نجـوى" ببـابي، تحمـل أطبـاق الطعـام. لم أرحِّـب بهـا. فدفعتنـي في دلال، ودخلـت بجـرأة غـير مريحـة، فنظـرت عـلى السُّـلَّم أتأكَّـد بـأن ليـس هنـاك مَـن يراقبهـا، ثـم أغلقـت البـاب وتبعتهـا. سـبقتني إلى الصالـون ووضعـت الأطبـاق عـلى الطاولـة بجانـب لفَّـة الدمياطـي. وقبـل حتـى أن أدعوهـا للجلـوس، جلسـت، واتَّـكأت عـلى ذراع الكنبـة في وضـع مائـل بديـع.

بعد ابتسامة صامتة ماكرة قالت:

- فول! الساعة 4 العصر!

لم أردَّ، فتابعت بذات الصوت الماكر:

- لـولاش بـس إن الـكارع وصـل تلتميـة جنيـه.. أنـا كنـت جبـت لـك كل يـوم كـوارع!
- مالوش لازمة والله كل ده.
- دي أوامر الست "هانم".. محدِّش يقدر يقول لها لأ!

بـدأت في شـدِّ جلبابهـا الأخـضر الطائـع وإحـكام زَمِّـه عـلى تفاصيـل كَسْـمها، وهـي تنظـر لي نظـرات ذئبـة ضاريـة، توتَّـرتُ وبـدأت الميـاه الراكـدة داخـلي تتحـرك. كانـت كل حركـة مـن حركاتهـا مصيبـةً، فاسـتجرت منهـا بسـؤال:

- أنـا آسـف يعنـي في السـؤال.. هـو عـم "كارم" كـده خـلاص.. مفيـش أمل؟!

تكـدَّر وجههـا، واعتدلـت مـن وضعهـا المثـير، لوضـعٍ آخـر لا يقـلُّ إثـارةً، ثـم قالـت:

- داهية تقطعه وتقطع سيرته!
- ...
- آهو جَيّ بالليل...
- جي فين؟
- تحت عند الست "هانم"...
- يصالحك؟
- .. باقول لك إيه.. ما تيجي انت كمان!
- آجي فين؟
- ما انت لازم تبقى موجود!
- طب وأنا دخلي إيه؟
- ماهو أصل.. أنا عايزاك...

أشـعلت نظـرة عينيهـا الوجـد في قفـايَ. لم أردَّ، فضحكـت مـرة أخـرى وقالـت:

- عايـزاك تبقـى موجـود يـا أخـي.. وهاقـول للسـت "هانـم" إنـك تحـضر معانـا جلسـة الصلـح!
- أيوه.. بس ليه بردو؟
- مش القعدات دي بيبقى فيها رجَّالة؟

- آه...
- وانت سيد الرجالة!
- بس أنا ما اعرفش حد!
- هُمَّا يعرفوك.. والشارع كله بيقدَّرَك.. وأنا كمان باقدَّرك.

أعادت توجيه جسدها لتجلس في أقرب نقطة من مقعدي، فرددت:

- طب والست "هانم" هتوافق؟
- لو انت مش هتتضايق أنا هاقول لها!
- بس...
- بس إيه! أنا أحب دايمًا يبقى فيه راجل في ضهري!

وضعـت سـاقًا فـوق الأخـرى، وأخـذت تهتـزُّ وتتمايـل في محاولـة للاقـتراب منـي، وهـي تتابع:

- انت ما تحبِّش تبقى في ضهري!
- لا أبدًا... العفو والله...
- لا إوعـى تقـول لأ.. نـدرٍ عليَّـا لـو جيـت لأعمـل لـك كل الـلي بتفكـر فيـه!
- إيه!
- في الأكل يعني!

كانـت فخذهـا قـد التصقـت بركبتـي تمامًـا، وبثَّـت شـذاها المسـكِر في الهـواء. لم تَكُـن بُغيتهـا، في أي لحظـة سـابقة، جليَّـةً

مثلما كانت في تلك اللحظة، وكنت متماسكًا في مواجهتها قدر الإمكان، سيحتاج الأمر لأكثر من ثلاثين خلوة مع نفسي حتى أتغلَّب على مثل هذه الاختبارات، لكن بالرغم من صعوبة هذا النوع من الاختبارات، إلا أن "نجوى" كانت صورة مثالية من صور الانغماس في تفاصيل وتحديات غير مفيدة ومُستَهلِكة للوقت والمساحة داخل رأسي. ضرب متكامل من ضروب الإلهاء.

غادرت "نجوى" بأقصى درجات ضبط النفس، على وعدٍ مني بالحضور ليلًا. فجلست بمفردي وفتحت الأطباق التي جاءت بها لأجد طبقًا مكدَّسًا بمحشي الباذنجان، والطبق الآخر به صلصة وقطعتان من اليخنة. أضعتُ وقتًا طويلًا أقارن وأُفاضِل بين المحشي والفول، فانتصر الفول؛ لإمكانية تخزين المحشي في الثلاجة، وأكله باردًا في وقت لاحق مثلما كان يفعل أبي، مع تسخين اليخنة بالصلصة بالطبع.

نِمتُ مخمورًا بالتفاصيل. وفي الثامنة مساءً استيقظت على ريقٍ خشبي يابس، وصدر ثقيل ونفس ضيق، سحبت زجاجة مياه من الثلاجة، وخرجت إلى البلكونة، في محاولة للقاء صديقي المثالي، البرص "أشرف نصر". إلا أن عم "هوجان" ظهر في الشارع، قبل أن يخرج البرص من شقِّه، كان عم "رجب" يسير في اتجاه قهوة "زيدان". لا أدري سببًا واضحًا لإحساسي المتزايد بالمسؤولية تجاه المصارع العجوز، لكني لا أملك إلا أن أسعى لمساعدته، امتناني لصنيع قرآنه بإنقاذي من نوبات القلق لم ينضب بعدُ. نظرت في ساعتي فوجدت مُتَّسعًا من الوقت قبل جلسة الصلح. وقررت النزول لأحدثه.

تجرَّعتُ نصف زجاجة المياه، وركبت أحد شباشبي القديمة، ونزلت إلى قهوة جامع "زيدان".

***

69

في القهوة، كان عم "هوجان" يجلس مع أحد أصدقائه غير المعروفين لي، وما أكثرهم. اقتربت وألقيت السلام، فردَّ صاحبه ولم يرُدَّ هو. ابتسمت وقلت بأكثر الطرق ودًّا:

- تسمح لي بكلمتين يا عم "رجب"؟

زمَّ شفتيه امتعاضًا، وبدا في غاية الاستياء، ثم نظر إلى صاحبه، ثم لي، وقال:

- طب روح اقعد وأنا جايلك!

انضم لي عم "رجب" بعد مدة طويلة، وجلس مجعوصًا، ولم ينظر لي، وقال بأكثر الطُّرق عدائيَّةً:

- أيوه يا سيدي!
- عم "رجب".. أنا جَيّ أعتذر لك.. أنا كان عندي ظروف الفترة اللي فاتت!
- ...
- صدَّقني والله.. أنا ما اقصدش!

- تقصـد ولا مـا تقصـدش.. أنـا مـا طلبتـش منـك حاجـة.. انـت الـلي جيـت لي مـن نفسـك!

- وأنا لسه عند كلامي!

- يا ابني ما تفُضَّها سيرة بقى..

- طـب.. خلِّينـي معـاك تحـت أي ظـرف.. لـو احتاجتنـي وملاقيتنيـش تـاني يبقـى ليـك حـق!

- مـا انـا لمـا احتاجتـك عملـت لي فيهـا وزيـر.. واتعكِّيـت أنـا لوحـدي!

- ظـروف وراحـت لحالهـا واللـه.. بـس قـل لي وصلـت لحاجـة جديدة؟

لم يـردَّ عـم "هوجـان"، بـل ظـلَّ ينظـر للفـراغ كأني لم أسـأل، فكـرَّرتُ السـؤال، فـردَّ باسـتعلاء:

- ربك كبير وبيسهِّلها.. لو ربنا كرم هاكلِّمَك!

هـبَّ الرجـل العنيـد واقفًـا، ولم ينتظـر ردِّي، ثـم عـاد إلى طاولتـه الأصليـة، وجلـس بجانـب صديقه.

نظـرت في سـاعتي، ثـم دفعـت الحسـاب، وعُـدتُ للبيـت كي أطـرق بـاب السـت "هانـم"، بالـدور الأول، وأنـا لا أدري مَـن ينتظـرني بالداخـل في جلسـة الصلـح.

***

70

كنـت أول الحاضريـن. فتحـت لي السـت "هانـم" البـاب بنفسـها، وقالـت بعـد الترحيب:

- لـو مـش عايـز تحـضر يـا عيـسى مـا تحـضرش.. دي بـت مـا يتوقفلهـاش في حاجـة!

- لا يا خالتي مفيش مشكلة!

ظهـرت "نجـوى" مـن غرفـة النـوم. ترتـدي عبـاءة سـوداء وطرحـة صفـراء تظهـر منهـا أطـراف شـعرها الأحمـر. متعطِّـرةً ومتأنِّقـة ومحتشـمة بقـدر كبـير، مقارنـة بمـا رأيتـه منهـا في الأيـام السـابقة. اعترضـت "نجـوى" عـلى تعليـق السـت "هانـم" قبـل أن تلقـي السـلام حتـى:

- مـا تسـيبيه يـا خالتـي.. الراجـل جَـيّ برجليـه قدَّامـك أهـو.. هـو حـد كان طلـع شـدُّه مـن دراعـه؟

- طب اتفلقي انتي وهوَّ يا اختي!

تأبَّطَـت "نجـوى" ذراعـي، وسـاقتني إلى غرفـة المعيشـة، وأجلسـتني عـل أحـد كـراسي الصالـون وهـي تُمـرِّر يدهـا في ثنايـا ذراعـي، وتتحسَّـس كل مـا يمكنهـا أن تطالـه مـن كتفـي اليمنـى، وقالـت بامتنـانٍ لا يخلـو مـن المعـاني الخبيثـة:

- والنبي لأقدَّرك زي ما قدَّرتني وجيت النهارده!

ابتسمت وجلست ولم أرد، فرحلت هي إلى المطبخ، كانت الغرفة تشبه غرفة معيشتنا بكل ما فيها. بعد ثوانٍ انضمَّت لي الست "هانم" في الصالون، فسألتها في فضول:

- هو إيه اللي بيحصل؟

- ولا حاجة.. إنت جي تشهد على الكلام بس.. وأنا اللي هاتكلِّم!

- بس!

- أيوه بس.. لو حد وجِّهلَك الكلام.. خليك دايمًا في صفِّي.. فاهم؟

- حاضر!

دخلت "نجوى" مرة أخرى بكوبين من الشاي، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، نهرتها الست "هانم" وأمرتها بالبقاء في الغرفة الأخرى لحين حضور باقي الجمع من الشهود. فانتظَرْت حتى عادت "نجوى" إلى حيث أتت وسأَلْت:

- فيه أخبار عن الأستاذ؟

- بَعَت له ممرضة تانية.

- ووافق عليها؟

دقَّ الجرس، فقالت باقتضاب:

- مش وقته.. خلينا في الحوار اللي احنا فيه وهاحكيلك بعدين!

***

71

دخل علينا المعلم "أبو عامر" صاحب محل عصير القصب القابع على الناصية المقابلة لناصية نصبة الملابس الداخلية. رجل صعيدي ضخم، حَجَريُّ الوجه، غليظ الصوت، لا يرتدي عمامة مع جلبابه الصعيدي القاتم، لكن على كتفه لاسة حريرية أنيقة مرقَّطة. رحَّبَت به الست "هانم" خير ترحيب، إذ همَّت بالوقوف بصعوبة وهي تقول:

- القومة لك يا معلم!

فما كان من الرجل إلا تناول يدها وربَّت على كتفها ليمنعها من الوقوف، وهو يقول:

- والله ما انتي قايمة.. إحنا غرب واللَّا إيه!

عادت لمجلسها ثم أشارت ناحيتي وقالت:

- أستاذ "عيسى".. ابن عم "عبد السلام" الله يرحمه.

وقفت احترامًا ومدَدتُ يدي لأسلِّم عليه، فتناولها المعلم مني وأخفاها في يده العملاقة، وقال:

- إزيك يا "عيسى" يا ابني.. الله يرحم والدك.. كان خيرة الناس.

- متشكِّر يا معلم.

تابعت الست "هانم" حديثها:

- المعلم "أبو عامر"...

قاطعتها:

- غني عن التعريف طبعًا!
- أنا وأبوك وعمَّك "فرج" ماكُنَّاش نفترق أبدًا.
- الله يرحم الجميع.

دقَّ الجرس مرة أخرى، ودخل علينا عم "كارم"، زوج "نجوى"، وبصحبته الشيخ "يحيى"، إمام جامع "زيدان". وبعد عدة سلامات وترحيبات وتعريفات غير مهمَّة، جلس الجميع. وبدأ الشيخ "يحيى" الحديث:

- يا ريت بنتنا "نجوى" تكون حاضرة!

نادت الست "هانم" على "نجوى"، فخرجت من المطبخ، وجلست على المقعد المقابل لمقعدي على أقصى يسار الغرفة. فتابع الشيخ "يحيى"، بالصلاة على رسول الله، وعدَّة آيات من القرآن، وأحاديث ليست ذات صِلَة. ثم قال بصوت أكثر وضوحًا:

- وليوفِّقنا الله لما يحب ويرضى.. عسى أن نكون كلنا ساعين للخير والصلح...

أومأ الحاضرون مُصدِّقين على كلامه، فأكمل:

- في البداية إحنا كان لينا لوم على بنتنا..
- ...

- مَكانش يِصحّ تسيب بيت جوزها بدون إذنه ومحدِّش يعرف عنها حاجة ولا كانت فين كل ده!
- اقتحمت الست "هانم" الحديث قبل أن يتمكَّن الشيخ "يحيى" من النطق بحرف إضافيٍّ:
- "نجوى" خرجت من بيتها على بيتي عِدِل يا شيخ "يحيى".. ويشهد ربنا إنها ماخرجتش منه لحد النهارده...

وددت لو أن أخبرهم أن ابنتهم "نجوى"، كانت في شقتي قبل ساعات، تحمل في صدرها نوايا لا يمكنني أن أذكرها على أي من الحضور، إن أردت أن أتابع استمتاعي بتلك الجلسة. ردَّ الشيخ "يحيى" بنبرة أكثر لُطفًا:

- كان يِصَحّ بردو تدِّيله خبر يا ست الكل!
- والله هو لو جه سألني كنت دلِّيته.. لكن "نجوى" دي بنتي.. والله أعلم هيَّ كانت جايَّة لي حالتها إيه.. وهو عارف لو كان جالي كنت هاعمل فيه إيه.. فقبل ما نقول اللي يصح واللي مايصحِّش نعرف منه هو عمل إيه!
- كلمتك سيف يا حاجة.. وحاشا لله حد يشكِّك في كلامك.. واحنا مش جايين نعيد في اللي حصل!
- لا يا شيخ "يحيى" طالما جايين في صلح يبقى لازم نخلَّص كل اللي فات عشان نبدأ على مَيَّه بيضا.. لازم

تعرفوا هو طلب منها إيه.. وانت تقول لنا اللي طلبه ده حرام واللَّا حلال!

توتَّر عم "كارم" الذي لم ينبس ببنت شفاه، واحمرَّ وجه الشيخ "يحيى" وقال:

- إن الله حليمٌ ستَّار يا حاجة.. البيوت ليها حُرمة!

ردَّت الست "هانم" بشيء من التَّبجُّح:

- طب والناس اللي جاية تشهد دي.. هتشهد عمياني كده؟

لم أتمكن من إزاحة نظري عن عم "كارم" في تلك اللحظة، ولا عن جسده المنكمش المتعرِّق. ماذا يمكن أن يكون قد طلب منها؟ ولماذا يستدعي الأمر فتوى الشيوخ فيه؟ هل كان أمرًا جنسيًّا؟ بالتأكيد أمر جنسيٌّ. هل كان فجًّا للدرجة التي تجعل امرأة مثل "نجوى" ترفضه؟ فعلى قدر معرفتي القصيرة بها لا أظنها قد تعترض على أي مطلب في هذا السياق، هذا هو ما جعل الأمر أكثر غرابة.

تذكَّرتُ لقاء شيخ الراديو الأزهري. فمهما كانت غرابة مطلب عم "كارم" من "نجوى"، بالتأكيد سنجد له مردًّا في سجلَّات الفتاوى بالأزهر. حتى وإن لم نجد، يمكننا أن نسجِّله، ونضاهي به غرابة فتاوى أكل لحم البطريق وأرجل الفراخ، ونزيد من جموح الفتاوى المسجَّلة، ونُغْني المادة البحثية لعلماء الاجتماع المستقبليين فيما سيُقرِّرونه بشأن طباع وأحوال وميول أهل بلادنا في فترة حياتنا المعتوهة. تمكَّن مني الفضول،

وسرح خيالي في أمور من أقذر ما يكون، وابتسمت وأنا أتخيَّل عم "كارم"، الخمسيني الخانع، أرنبيِّ الطابع، وهو يخدش حياء "نجوى"، الرَّبعة، الغَلِمَة، ذات الحياء المعدوم.

قطع المعلم "أبو عامر" حبل أفكاري القذرة، وارتجَّ الصالون من تحت أفخاذنا فور أن نطق:

- هدِّي خُلقك يا ست "هانم".. إحنا مش عايزين نعرف تفاصيل.. وطالما البت كانت في بيتك يبقى الدار أمان.. اللي يهمِّنا في الأول وفي الآخر رِضاكي.. هو يتعهد قدَّامك وقدَّامنا إن اللي حصل ده مايحصلش تاني!

- آه.. وكمان يعرف إن البت ليها أهل.. مش إكمنَّها يتيمة هيبهدلها ومحدِّش هيقف له!

- ماشي الكلام.. قلت إيه يا "كارم"؟

بدا عم "كارم" مستاءً، لكن أظن أن صوت المعلم وهيئته لم يدعا له مجالًا للرفض أو التردد، فرضخ الرجل وقال:

- اللي تشوفه يا معلم!

استدرك الشيخ "يحيى":

- بس أنا ليَّا عند بنتنا "نجوى" طلب صغير بعد إذن الحاجة...

- اتفضَّل يا شيخ "يحيى"!

- حـق الـسر.. وحُرمـة البيـت.. واللـين.. والكلمـة الطيبـة.. ده يتكتـب لهـا في ميـزان حسـناتها.. عمـلًا بقـول رسـولنا الكريـم: "حُـرِّمَ عـلى النَّـار كُلُّ هَـيِّن، لَـيِّن، سـهل، قريـب مـن النـاس".

التفتت الست "هانم" ووكزتها في كتفها بقوة وقالت:

- سـامعة يـا بـت يـا مرووشـة انتـي؟ تِكـبَري للرجالـة الـلي قاعـدة.

ردَّت "نجوى" بأدب مصطنع:

- حاضر يا خالتي!

فاجأني المعلم "أبو عامر" بسؤاله:

- إيه رأيك يا أستاذ "عيسى".. تشهد على الكلام ده؟

رددت مأخوذًا:

- مفيش كلام بعد كلامك يا معلم!

- على خيرة الله.. يبقى نقرا الفاتحة!

قرأنـا فاتحـة الكتـاب، وقامـت "نجـوى" لجمـع ملابسـها مـن شـقة الـدور الأرضي، لتغـادر مـع زوجهـا. ثـم غـادر الشـيخ "يحيـى"، ومـن بعـده المعلـم "أبـو عامـر". فهممـت باللحـاق بهـم، إلا أن السـت "هانـم"، اسـتوقفتني، وقالـت دون أن تدعـوني لأجلـس:

- الأسـتاذ تعـب زيـادة.. حتـى لـو مـش عايـز يشـوفك لازم تشـوف أي طريقـة تكـون جنبـه.. محـدِّش عـارف!

أومـأتُ ولم أرُدَّ. ثـم صعـدت إلى غرفتـي، وقصـدت النـوم، لا أفكِّـر إلَّا في حياتنـا بـدون عمالقـة.

***

72

بعـد ظهـيرة سـبت رائقـة، وفي جـوٍّ هـادئ، انكـسر النهـار، وأذَّن العـصر، حاولـت التفكـير مـرة أخـرى في طريقـة لدخـول بيـت الأسـتاذ بعـد أن طـردني، لكنـي لم أجـد، فذهبـت دون خطَّـة، وعـلى أي حـال.

وصلـت أمـام فنـدق شـهرزاد. إصلاحـات مـا بعـد الحريـق بدأت بالفعـل، لعـلَّ هـذا الحريـق هـو أقـوى تأثـير قُمـتُ بـه في حيـاتي. التففـت حـول الفنـدق ودخلـت شـارع الغيـث. مـررتُ مـن أمـام عـمارة الدكتـور "ثابـت"، ثـم دخلـت عـمارة الأسـتاذ "سـليمان".

فتحـت لي البـاب ممرِّضـة جديـدة. رحَّبَـت بي دون أن تعرفنـي، فعرَّفتهـا بنفـسي. ثـم أتانـا صـوت الأسـتاذ الواهـن مـن الداخـل:

- مين يا "أميرة"؟

ردَّت الممرضة بصوت ناعم طيب:

- ده.. أستاذ "عيسى"!

صمت قليلًا، وتوقَّعتُ أن يطلب منها طردي، إلا أنه ردَّ:

- خلِّيه يدخل!

دخلت. كان توقيت الزيارة هو نفس توقيت لقائنا الماضي، دون ترتيب لذلك. واقتحمت الشمس النحاسية شبَّاك الغرفة، تمامًا مثل اللقاء الماضي. إلا أن الأستاذ هذه المرة كان مُمدَّدًا على السرير، فدخلت وسحبت كرسيًّا خشبيًّا من ركن الغرفة، وجلست ملاصِقًا للسرير. فبادرني هو بالحديث:

- جلدك تخين!
- أتخن ممَّا تظن!
- تطور مفيد...
- لي أم لك؟
- لكلينا.

ارتحت لتلك الروح التي استقبلني بها، فحاولت المحافظة على ذاك اللطف:

- هل تريد أن تسمع حكاية مُسلِّية؟
- دومًا.
- بالأمس أسقطت أحد الأقزام!
- وهل استحقَّ السقوط؟
- لم أغضب من شخصٍ في سنواتي الأخيرة مثلما أغضبني ذاك القزم!

- مَن يكون؟
- رئيسي بالجامعة.
- ظننتُكَ تركت الجامعة!
- اليوم تركتُها بلا رجعة.
- وماذا فعل لك القزم؟
- لي أنا.. لا شيئ.. لو كان أخطأ في حقِّي لكنتُ سامحته.
- فيمن أخطأ إذن؟
- في العالم!
- كيف؟
- يسرق أبحاثًا من طلبة الأقاليم...
- فليَمُت!
- مات بالفعل!
- قتلته؟
- أكاديميًّا!
- والعالم؟
- ما له؟
- هل صار أفضلَ؟
- بالطبع لا..
- خسارة!

- أنـتَ مـن بـين كل البـشر تعلـم أن العـالم لـن يصـير مكانًـا أفضـل.. وإن مـات كل الأقـزام!
- عليك الاحتفال على كل حال!
- لا أظن!
- لا تُفـوِّت الفرصـة.. صدِّقنـي.. لـن تجـد أعـذارًا كثـيرة للاحتفـال!
- لديَّ ما يكفي من الوقت للاحتفال لاحقًا!
- ساذج كالعـ...

تحـشرج صوتـه، وأشـار لكـوب المـاء الرابـض عـلى الكومودينـو، فناولتـه إيَّـاه. رشـف رشـفة، ثـم قـال لاهثًـا:

- لم أتحدث منذ أيام!
- هل ينهكك الحديث؟
- الحديث هو آخر ما ينهكني!
- أنا متأكد من ذلك...
- وماذا حدث بعد أن سقط مديرك؟
- تمَّ رَفتي!
- يا له من انتصار!
- كان الرحيل لا مفرَّ منه...
- لتتفرَّغ للمدرسة؟

صمتٌ للحظة. شممت رائحة السخرية تلوح في الأفق، فتردَّدتُ:

- تقريبًا...
- ليتني أنضمُّ إليك!
- لا داعي للسخرية!
- أقسم لك أني جادٌّ!
- حقًّا! ظننتُ أنك ستتَّهمني بالعَبَط.
- بالعكـس... هـو اختيـار لـه وَجاهتـه... لكـن هـذا لا ينفـي العبـط في الأمـر...

ضحكـت مُمتنًّـا. لكـم تغـيَّر الأسـتاذ. جلسـت أنظـر إليـه وهـو يرشـف رشـفة أخـرى مـن الكـوب. ثـم لمحـت علـب الأدويـة المرصوصـة عـلى الكومودينـو، ومـن بينهـا بعـض العقاقـير التـي كانـت تتعاطاهـا أمـي كعـلاجٍ تلطيفـيٍّ في أيامهـا الأخـيرة.

انقبـض صـدري. وعـاودت النظـر للأسـتاذ بوجـه مختلـف. لم أدرِ أن حالتـه متأخِّـرة لهـذه الدرجـة، يبـدو أن القصـة قارَبَـت نهايتهـا، وبـأني سأشـهد نهايـة عهـد العمالقـة حقًّـا. مازحتـه:

- كيف تجد الألم الآن؟
- أهوَنُ بكثير... الآن يمكنني أن أفكر مرة أخرى!
- فيمَ؟
- لا.. أقصد أن قدرتي على التفكير في العموم عادت لي!
- هل كانت قد فارقتك؟

- صدِّقني.. مررت بلحظات من الألم نسيت فيها المنطق.. والعقل.. والتفكير.. لم أكن أنا.. لم أكن موجودًا من الأساس.. فاق الألم إنسانيتي في بعض الأحيان...

صمتُّ في أسًى ولم أعلِّق، فتابع مُلطِّفًا:

- هل لديك حكايات أخرى؟
- الأطفال فقط هم مَن يسمعون الحكايات.. هل نسيت أنك تِنِّين؟
- هي حكاية واحدة يودُّ أن يسمعها التِّنِّين!

ابتسمت. لا مفرَّ:

- أعرف!
- و...!
- صدِّقني.. لن تسرَّكَ تفاصيلها!
- فلتحكِ نهايتها إذن.. ونترك التفاصيل لوقت لاحق!
- كل ما يمكنني أن أخبرك من القصة.. أنني لم أحقِّق نصف ما تمنَّيناه سويًّا حتى!
- ولا حتى النصف!

هززتُ رأسي نافيًا في خذلان، فردَّ:

- حسنًا.. فلتحكِ حين تجد في نفسك الكلمات لتحكي!

وأردف مازحًا وهو يشير للأدوية:

- لكن تذكَّرْ أن الوقت ليس في صالحي.. فالتنانين أيضًا تموت!

ابتسمت مهمومًا، وسألت:

- هل غرفة المكتب شاغرة؟
- لِم؟
- أريد أن أبيت فيها لبضعة أيام!
- ولِمَ؟
- سئمتُ الست "هانم".. تتدخَّل في حياتي بشكل لا أتحمَّله.. يجب أن آخذ هدنة لبضعة أيام!

صمت قليلًا، ونظر لي في حذق. بالتأكيد يعرف أني لم أسأم، لا يمكن لأحد أن يسأم الست "هانم"، ويعرف أيضًا أن هذا لم يكن هذا سوى عُذرٍ ساذج لأبيت معه وأرعاه. لكنه لم يعترض وقال:

- هي لك من اليوم إن أردتَ!
- بل من الغد.. سأحضر ملابسي وأعود غدًا.

في طريق عودتي للمنيرة، جاءتني رسالة من الدكتورة "علا"...

أهلًا يا أستاذ عيسى..

أنا الدكتورة علا وهبي.. وده رقمي الشخصي..

حاولت أتصل بيك أكتر من مرة لكنك لم ترد..

الشـخص المدعـو «أحمـد عاكـف» تواصـل معايـا بخصـوص الـلي حصـل بينكـم

وأحـب أؤكِّـد لـك إني لم أكـن ولـن أكـون طرفًـا في مؤامراتـه الرخيصـة.. وإن علاقتنـا انتهـت تمامًـا مـن النهـارده..

وإن أي جملـة هـو قالهـا في الخـلاف بينكـم أو في التحقيـق فهـي مجـرد اسـتنتاج محـض منـه..

أتمنـى تكـون واثـق إني مـش الشـخص الـلي ممكـن يكـون طـرف في شيء وضيـع زي كـده..

وهاكـون متفهِّمـة جـدًّا لـو قـرَّرت توقِّـف زياراتـك لينـا.. لكـن وجـب التوضيـح..

وأتمنى لك الأفضل في حياتك القادمة

ابتسـمتُ ابتسـامة واسـعة، نجحـت خططـي، كشـفت "أحمـد عاكـف" وفقـأت فقَّاعتـه، ضاعـت مكانتـه لـدى "عـلا"، وبالتأكيـد لـدى كل مَـن هـم حولـه. لم تخذلنـي الدكتـورة "عـلا"، فهمـت حقيقـة الأمـر ورأت لُبَّـه، وواجَهَتـه، وأنهـت علاقتهـا بـه. هـذا إضافـة عـلى أنهـا حتـى لم تطلـب منـي أن تسـتمر زيـاراتي للعيـادة، ولم تسـأل عـن موعـد الغـد المحجـوز باسـمي بالفعـل، أو لعلَّهـا لم تكـن تعـرف جدولهـا في اليـوم التـالي مثـل باقـي الأطبـاء. عـلى كل حـال، رسـالتها أنيقـة، وتـشي ببعـض مـمَّا سـيعاني منـه "أحمـد

عاكـف" في الأيـام القادمـة بـين معارفـه وأوسـاطه العلميـة. أمَّـا موعـد الدكتـورة "عـلا"، فلـم أكُـن لأفوِّتـه، مهـما حـدث.

نِمـتُ يومهـا في سريـري كالأطفـال. لا كوابيـس. لا نوبـات. لا شـعور بالوحـدة، ولا بالملـل. سـاعات وسـاعات مـن النـوم العميـق المتصـل. وفي الصبـاح، ذهبـت إلى المدرسـة لأرى طـلابي، قبـل أن أذهـب لـ "عـلا".

***

73

دخلـت الفصـل بنيَّـة الاطمئنـان عـلى "الراعـي" والرحيـل فـور انتهـاء الحصـة، لألحـق بموعـد الدكتـورة "عـلا"، ثـم إلى بيت الأسـتاذ مبـاشرةً. مـرة أخـرى لم يحـضر "الراعـي"، لم أجـد سـوى "جوافـة" و"غـراب". سـألتهم عنـه، فـردَّ "غـراب":

- مـن سـاعة مـا خـرج معـاك مـن القسـم محـدِّش شـافه.. ومـا بـيردِّش عـلى تليفونـه!
- رحتوا له البيت؟
- محدِّش هناك!
- هو عايش لوحده؟
- آه.. من ساعة ما جده مات!

- طب مكان الفرشة بتاعته؟
- حد غيره فارش مكانه!

فكَّرتُ قليلًا:

- هو اختفى قبل كده؟
- ساعات... بس بيبقى بيجيب بضاعة أو بيخلص مصلحة...
- طب ما يمكن بيجيب بضاعة!
- لا يا أستاذ.. آخر فلوس كانت معاه هم الست آلاف اللي خدهم منك.. دفعها عربون البضاعة اللي البلدية خدتها.. وكمان هو عمره ما قفل تليفونه قبل كده عشان الشغل كله بيخلَّصه بالتليفون!

وقفت بهدوء، وقلت وأنا ألملم أشيائي:

- طب روحوا اسألوا عنه جيرانه.. والراجل اللي مأجَّر منه مكان الفرشة.. وكلِّموني.. وأنا هاحاول أتصرَّف من ناحيتي...

تفكَّرتُ قليلًا، وبدأت تتَّضح الصورة بخصوص جد "الراعي"، ثم سألت:

- باقول لك يا "جوافة"! هو جده ده مات قريب؟
- من كام شهر!
- ومين ولي أمره دلوقتي.. مين بيصرف عليه؟

- يصرف عليه إيه.. انت مستقَلّ بيه ليه كده يا أستاذ! "الراعي" مش محتاج حد يصرف عليه.. ده أقسم بالله هيبقى عَلَم الساحة بس اتقل عليه.. ده لولا الدراسة وحوارات البلدية اللي كل شوية تنطّ له دي كان زمانه في حته تانية!
- طب لو كده مكمِّل دراسة من الأول ليه؟
- جده كان شارط عليه إنه أقل واجب يكمل لحد ما ياخد الثانوي.. بس بعد جده الله يرحمه بقى.. كان بيفكَّر يصرف نظر ومايدخلش الامتحانات.
- طب ليه.. ده فاضل شهرين بس على الامتحانات!
- مش هتفرق معاه في حاجة يا أستاذ والله صدَّقني!

تدخَّل "غراب" وقال مستدركًا:

- بس ياض يا "جوافة" بقاله شوية كده بيجيب سيرة الامتحانات كتير وبيتِّصل يسألني على حاجات في المواد... شكله هيدخل!
- ما اعرفش بقى.. المهم بس نلاقيه دلوقتي!

قاطعت الفتيين:

- طب خلاص روحوا انتوا.. وبلغوني لو وصلتوا لحاجة!

صرفت الطالبين قبل نهاية الحصة بمدة كبيرة ليبحثا عن صديقهما، أظن أني سأظل أنبهر بـ "الراعي" كلما ازدادت معرفتي

بـه. لا يمكننـي أن أقـرأه مهـما بلغـت مـن الفراسـة. مـا الـذي يحرِّكـه؟ إرث جَـدِّه؟ أم عملـه؟ أم أصدقـاؤه؟ هـل سـيمتنع حقًّـا عـن دخـول الامتحانـات؟ أم أن اهتمامـه بالدراسـة عـاد بالفعـل مـرة أخـرى؟ حِـرتُ فيـه طويـلًا، لكنـي سرعـان مـا نفضـت الحـيرة، وأتممـت لملمـة أشـيائي وغـادرت إلى مهجـع الدكتـورة "عـلا".

***

74

وضعـت كروتهـا عـلى المكتـب، وأولتنـي انتباههـا الكامـل. كافأتنـي بابتسـامة امتنـان وسـعادة لحضـوري رغـم مـا حـدث. قلـت صادقًـا:

- متشكِّر.
- على إيه؟
- مش مهم.

اعتدَلَت وقالت:

- ده واجب مهني ما استحقِّش الشكر عليه!
- عارف.. ومع ذلك متشكِّر!

صمتت قليلًا ثم سألت:

- طيب.. حابب تتكلم في الموضوع؟

- لأ!
- ليه؟
- حاسـس إنـه خـد منـي طاقـة أكـتر مـن الـلازم.. كفايـة عليـه كـده قـوي!
- طب انت كده مشيت من الجامعة؟
- آه...
- وهتعمل إيه؟
- اشتغلت بالفعل!
- فين؟
- في مدرسة ثانوي.. مدرِّس فلسفة.
- ده سَدّ خانة واللَّا باختيارك؟
- مابقـاش فيـه حاجـة باختيـاري.. لكـن ده أفضـل اختيـار أسِـدّ بيـه الخانـة!

تناولت القلم وكتبت شيئًا ما في الكارت الأول، ثم قالت:

- ولا حتى أمريكا كانت باختيارك؟
- ولـو إني شـاكك لـو كنـت اخترتهـا بـإرادتي والـلَّا اتضحـك عليًّـا.. لكـن بافـتراض إني فعـلًا اخترتهـا.. فأمريـكا هـي آخـر حاجـة أنـا اخترتهـا.. بـس وأنـا هنـاك عرفـت إن حتـى ده كان مجـرَّد إيهـام إني أملـك الاختيـار في أي شيء...
- ليه؟

- عشان المنطق بيقول كده.. الاحتمالات والخطط دي مجرَّد نظريات الإنسان بيطلقها في عالم عشوائي جدًّا.. الاعتماد على الاحتمالات ده يعتبر سذاجة كبيرة.. أي خطة الإنسان بيسعى ليها في مليون خطة بتدور حواليها كفيلة بإنها تبوَّظها.. ونجاح خطة يعني فشل مليون غيرها.. مفيش قانون بيحكم أي شيء...

- بس هي دي الحياة.. هو ده العقد الإنساني!

- العقد اللي محدِّش مننا وافق عليه من البداية.. بس جينا لقيناه ولقينا إننا لازم نحتكم ليه.. على أمل إن خطتي يمكن تنجح في مرة دونًا عن مليون خطة تانية.. ونفضل طول عمرنا عايشين على الأمل ده.. فخ كبير.. الأمل ده فخ هيبلعنا كلنا!

- بس زي ما انا فهمت إنك خدت ماچيستير في أمريكا.. هل ده مكانش في خطتك؟

- طبعًا كان في خطتي.. بس في نفس الوقت كان طُعم عشان أنخرط في خطة أكبر وأسوأ.. كأني بادوق شيء عمري ما هاعرف آكله تاني.. الماچيستير ده كان سبب في عشر سنين من التراجع والانحدار...

- إزاي؟

توقَّفتُ طويلًا، تمامًا مثل المرة الأولى التي حكيت لها عن أمي، لم أكن أعرف إن كنت جاهزًا لبدء الحكاية أم لا، لكن إن

كان لا بُدَّ من الحكي فمَن أجدر من "علا" بالسماع؟ أرخيت أكتافي التي ارتفعت وتيبَّسَت، ثم نظرت للوحة البغال المعلقة عن يسار المكتب، وأطلقت العنان لذاكرتي في استحضار المحظور:

- يعني.. زي أي حكاية.. الدنيا بتتغيَّر أول ما يبقى فيها بنت.. الدنيا اختلفت فعلًا أول ما اتعرَّفت على "فيونا".. بعد ما اتعرَّفنا بأسابيع ابتدا يبقى فيه مشاعر واضحة بينَّا.. مكانش فيه علاقة بشكلها المعتاد.. بس كنَّا بنحب بعض بشكل عبيط..

- ...

- كنت باحاول كل يوم وبكل الطرق المتاحة أفهِّمها قد إيه باحبَّها وقد إيه هي مُهمَّة في حياتي.. وهي كمان كانت بتحاول تفهِّمني نفس الشيء.. عشان كده أصرِّت إنها تحكيلي عن حالتها النفسية بشكل كامل.. وده شيء مش معتاد منها.. هي أول شخص كنت أتعامل معاه عنده تاريخ مع العلاج النفسي.. كأني تلميذ باتعرَّف على وجه جديد من علم النفس.. باتعلِّم بشكل عملي مش مجرد سطور على ورق...

- ...

- شيء ملهم ومخيف.. وهي مبهرة طول الوقت.. إغراق كامل لكل المساحات والفراغات في مخِّي.. حتى في أوقات الهدوء والثبات.. كنا بنتناقش في كل شيء...

- ...

- لدرجة إن حتى الانتحار.. بالنسبة لها مكانش موضوع شائك خالص.. كل كلامها عنه كان بنفس أريحية الكلام عن الجو مثلًا.. أول مرة قالت لي إنها طول الوقت بتفكر فيه.. كانت أول مرة أسمع حد بيتكلم عنه بالسهولة والبساطة والابتسامة دي.. وأول مرة أسمع حد بيصيغه بالصياغات دي.. زي إن هيَّ مش عايزة تموت.. هيَّ نفسها تتوقف عن الحياة بس.. أو إن الحياة تنتهي من نفسها بدون تدخُّل منها.. بدل ما هيَّ تقوم بالخطوة بنفسها.. ولما كنت باناقشها كنت دايمًا حاسس إنها بتتكلم بشكل نظري.. مجرد فكرة عمرها ما هتدخل في حيز التنفيذ...

نظرت لي "علا" ولم تُبدِ أيَّ ردَّة فعل، لكنها بدت على أقصى درجات الاهتمام بحديثي. طبيبة رائعة حقًّا. إلا أني شعرت بها تبتلع سؤالًا كان في خاطرها. فتابعت مستغلًّا الزخم:

- لحد ما جت جلسة مشؤومة من جلسات "نادي الجدل"..

بدت ملامح "علا" متعجِّبة من الاسم، فأردفت:

- ده نادي للنقاشات كانت هي بتنظُّمه في جنينة الجامعة.. ساعتها واحد من أصدقاء النقاشات المعتادين فتح جدل جديد وقال بكل ثقة إن نسبة كبيرة من اللِّي بيدَّعوا الرغبة في الانتحار هُمَّ في الأساس مش عايزين

ينتحروا.. لكن ده بيبقى مجرد دعوى لطلب الاهتمام.. وده اللي بيخلِّي معظم حالات الانتحار تفشل.. عشان أصحاب المحاولات دي بيستخدموا طرق مش فعَّالة.. عقلهم الباطن بيختارها عشان تفشل.. أو عشان الناس اللي حواليهم يلحقوا ينقذوهم منها.. أو بيقرَّروا يختاروا طرق شاعرية زي إنهم يسيبوا رسالة لشخص أو للعالم.. في حين إن اللي عايز يعمل كده عادةً بيعمل كدة في صمت وبدون رسائل...

- ...

- ودار النقاش بين كل اللي قاعدين.. كل واحد بيكون مطلوب منه يقول رأيه.. هيَّ دي كانت طريقة إدارتها للحوار في النادي.. كل واحد قاعد لازم يقول رأيه.. لحد ما جه الدور عليَّا وسألوني عن رأيي.. فقلت بشكل واضح إني معنديش معلومات كفاية عن الموضوع.. وما اعرفش ده حقيقي بنسبة قد إيه.. لكن الكلام اللي قاله الولد كان ليه وجاهته.. وإني باتَّفِق معاه بشكل كبير.

- ...

- طبعًا "فيونا" خدت الكلام ده على عِلِّته.. وبشكل شخصي.. ولما جه الدور عليها اتكلِّمت وهي بتوجِّه كلامها ليَّا أنا دونًا عن كل اللي قاعدين.. وبدأت تدافع عن نفسها وعن المكتئبين في أنحاء العالم ضدي.. كانت

بتتكلم بحرقة وعصبية.. واتهمتني بالقسوة.. والعنصرية ضد الضعاف.. لإن البشر كلهم ضعاف.. ونفوسهم هشَّة جدًّا.. أكتر ممَّا أي حد يتخيل.. والتعميم أو حتى التغليب في الحالة دي يعتبر استسهال.. فبدل ما نحاول نثبت وجهة نظرنا ونشكك في مصداقية البشر وقدرتهم على التنفيذ من عدمه.. المفروض ندوَّر على حل أو طريقة للعلاج...

عَلَت أنفاسي فور أن تذكَّرتُ صوت "فيونا" وهي تهاجمني، فتقطَّع صوتي، لكني تمالكت نفسي وتابعت بصعوبة:

- بعدها "فيونا" اختفت.. وبطَّلِت تردّ على مكالماتي...

صمتُّ. ولم أتمكَّن من الكلام لثوانٍ طويلة، فسألت "علا":

- وبس كده؟

أخذت نَفَسًا عميقًا، ثم تابعت في هدوء:

- لأ طبعًا... بعدها بأيام.. أمن الجامعة لقاها في برج من الأبراج القديمة التابعة للحرم.. قرَّرِت تنهي حياتها بأكتر الطرق شاعرية.. شربت مادَّة سامَّة.. ونامت على الأرض.. وسابت جنبها رسالة موجَّهة ليَّا أنا شخصيًّا.. مش للولد صاحب وجهة النظر الأصلية يوم جلسة "نادي الجدل".. ومش للناس اللي كانوا بيجادلوا ضدها.. لأ.. رسالة ليَّا أنا بس...

TO MY NEMESIS EISSA ABDELSALAM
I HOPE THAT YOU'D FIND THIS SHOW "ROMANTIC" ENOUGH FOR YOU
TO PROVE HOW SERIOUS THINGS ARE
NEXT TIME TRY TO FIND A SOLUTION RATHER THAN TRYING TO WIN YOUR ARGUMENT [1]

شعرت بإنهاك شديد. توقَّفتُ عن الحكي قليلًا، فناولتني "علا" كوبًا من الماء، فرشفتُ رشفةً، وحدَّقتُ طويلًا في لوحة البغال. فسألتني:

- إنت كويس؟

أومأت، ثم تابعت بابتسامة:

- الرسالة دي طبعًا أنهت كل شيء.. الجامعة اتَّهِمتني بالتحريض على الانتحار وطردوني.. وكل اللي كانوا معانا في الجلسة أنكروا اشتراكهم في النقاش ده يومها.. وكنت على وشك إني أدخل السجن لولا عدم وجود دليل مادي ضدي.. وقعدت بعدها أسابيع ما باقومش من السرير.. باحاول أستوعب اللي حصل...

- ...

(1) إلى غريمي الأزلي "عيسى عبد السلام".. أتمنى أن تجد هذا العرض شاعريًّا بما يكفي بالنسبة لك.. ليُثبِت مدى جدية الأمور.. في المرة القادمة حاوِلْ أن تبحث عن حلٍّ قبل أن تحاول إثبات صحَّة حُجَّتك.

- طول الوقت مش عارف أفكَّر غير إن "فيونا" ماتت وأنا كنت السبب.. ماتت وهي بتكرهني.. وهي بتعتبرني مش خصمها بس.. ولا عدوها حتى.. دي بتعتبرني NEMESIS.. غريم أزلي.. تاريخي.. كأن صراع حياتها كله كان ضدي أنا.. للدرجة دي كنت قريب منها.. للدرجة دي خذلتها.. للدرجة دي كلامي كان ليه تأثير كبير.. ساعتها حسِّيت إن المفروض أنا كمان أموت.. هو ده العدل.. لكن مفيش شيء عادل في الحياة.. ففكَّرت إن التكفير الحقيقي إني أعيش شايل الذنب ده.. وأتعذِّب بيه...

- ...

- ولما عرفت أخرج تاني.. كل شيء كان انتهى بالفعل.. وبدأت رحلة الانهيار.. لسبب ما اعرفوش ما تقبلتش في أي جامعة تانية.. يمكن الموضوع اتعرف وبقيت غير مؤهَّل بالنسبة لكل الجامعات.. ما اعرفش.. سنين عدِّت عليَّا وأنا مش عارف أنا باعمل إيه.. كل اللي كنت عارفه إني لازم ما ارجعش مصر.. الفشل خلَّاني مش قادر أواجه حد.. ده طبعًا لحد ما جت رسالة أمي أنها تعبانة...

بدت "علا" متعاطِفةً، لكن بتحفُّظ. ثم كتبت شيئًا أخيرًا في الكارت، وقالت:

- طب لو تسمح لي.. أنا عندي كذا تعليق!

أومأت موافِقًا، فقالت:

- أول حاجة أنا عايزة أتأكِّد إن انت عارف إن اللي حصل ده في الحقيقة مش ذنبك.. صح؟

- إزَّاي يعني؟

- يا "عيسى".. النفوس البشرية فعلًا ممكن تكون ضعيفة.. لكن مش انت المسؤول عن ضعفها.. بالعكس.. إنت واحد من النفوس الضعيفة.. يعني ممكن تحاول تحمي اللي حواليك.. وممكن نتكاتف كلنا عشان نبقى أقوى ونفضل أسوياء.. لكن لو ده محصلش في لحظة.. أو حد فينا انهار.. فده بالتأكيد مش بسببك.. ممكن تكون بتقدِّم كل طرق الدعم لكن مفيش حاجة منهم تكون مفيدة.. ومجرد كلمة غير مقصودة مع شخص حسَّاس يكون ليها مفعول أقوى ألف مرة من كل الدعم اللي قدِّمته.. وده بردو مش ذنبك.. كلنا بنحاول.. ومحدِّش فينا عارف المفروض يقول إيه واللَّا يعمل إيه بالتحديد.

- بس.. إحساس الذنب ده مش بإيدي.. ده إحساس صعب التحكم فيه...

- بس مش مستحيل.. لو فكَّرت في الموضوع من الأصل بشكل مختلف.. هتلاقي ليه زوايا كتير.. جرَّب مثلًا تفكر إن مش انت المحرِّك للي حصل ده.. إن انت كمان

كنت متضرر في الواقعة دي بالذات.. إحساسك هيختلف مع الوقت.. حاول تشوف الزاوية التانية...

صمتُّ قليلًا أفكر، فتابَعَت مؤكِّدة:

- فكِّر فيها وخد وقتك.. أنا واثقة إنك هتعرف تلاقي ليها منظور مختلف... ده بس اللي أنا عايزاك تعمله المرة دي!

أومأت وأنا أنظر إليها منصاعًا، فتابعت وهي تنهي الجلسة:

- الأدوية فيها مشاكل؟
- لا.. الأعراض الجانبية المعتادة.
- تمام.. أشوفك المرة الجاية!

غادرت العيادة وأنا لا أتوقف عن التفكير، يجب أن أعيد ترتيب الأحداث مرة أخرى من منظور آخر، المنظور مرة أخرى، المنظور أهم من الحقيقة ذاتها، سيستغرق الأمر الكثير من الوقت، لديَّ كل ما أحتاج منه على أي حال.

قرَّرتُ أن أمشي من المعادي لبيت الأستاذ في العجوزة. وبالقرب من السادسة مساء اتَّصل بي "جوافة"، لم يكونا قد وصلا لأي شيء، لم يظهر "الراعي" بعدُ. وصلت إلى شارع الغيث، مشغولًا بالواجب الذي أوكَلَته لي "علا"، ومهمومًا بغياب "الراعي"، لكن على الرغم من الانشغال فإن السلوى مع الأستاذ دومًا حاضرة.

***

75

بالقياس، فالوقت مع الأستاذ مختلف، مَرِن. الليل طويل كعادته، لكنه يفقد صفة الملل. كلما قابلته، أشعر وكأنه يجلس على حافة الوجود، يرفل في فضاء خاص، يطفو على حدود هذا العالم، يرى ما هو أبعد من تلك الحافة، وينتظرني. نكون سويًّا أكثر من مجرد إنسانين، نصبح كيانين مجرَّدين، يتحدثان لغة واحدة، لغة الأشياء، ويفهم أحدهما الآخر، كيانان لا يحملان ضغينة لأحد، غير منحازَيْن لجهة عن غيرها، ولا يتحرَّكان إلَّا بطبيعة الأمور ومنطقها، تمامًا مثلما تتحرك الأشياء، دون انحياز.

بِتُّ يومها أحكي له عن سنواتي الأخيرة، بكل ما فيها، متجنِّبًا بالطبع بعض الأمور الشائكة بخصوص ما حدث في أمريكا، رغم محاولاته الحثيثة لمعرفة ما حدث هناك. سألني ماكِرًا:

- والفتيات؟
- هُنَّ على نفس مكانتهن العظيمة في نفسي.
- كم عددهن؟
- مليارات!
- لا تتثعلب!

زفرتُ مُتعَبًا:

- حسنًا.. هي واحدة فقط!

- فقط؟
- فقط!
- لكنك حين توقَّفتَ عن الرَّدِّ على رسائلي ظننتُ أنك غارق في...

أوقفته، وتجاهَلتُ ذِكرَه لأمر تجاهُلي لرسائله:

- سأحتاج لمائة عام أخرى كي أكون أقرب لصورة زير النساء الأريب التي رسمتها لي!
- ما اسمها إذن!
- "فيونا"!
- أمريكية؟!
- ألا تعلم أن أمريكا مثل القاهرة.. ليس هناك مَن هو أصله قاهري.. ولا مَن هو أصله أمريكي...
- حسنًا.. من أين أصلها أيها الخبير الإثنولوچي؟!

ابتسمتُ:

- هي من أصل أيرلندي!
- وأين هي الآن؟
- حسنًا يكفي هذا!
- ... خرِّج السؤال.. لا تُهِنه!

صمتُّ طويلًا، وخطر ببالي ماذا سيحدث إن كانت "فيونا" موجودة:

- لا يهم.. هي بحال أفضل في مكانها الآن!

قرأ عيني، وقال مفجوعًا:

- هل...؟

لم أرد، ففهم الأستاذ، ومَن غيره يمكنه أن يفهم ما تشي به ملامحي. ولشديد فطنته، صمت ولم يتابع مسعاه. فشعرت براحة، اعترانا الصمت طويلا، وجلسنا على الحافة سويًّا، نهزُّ أرجلنا فوق العالم، ويستمتع أحدنا بوجود الآخر.

بعد لحظات من الهدوء المحبَّب، زيَّنتُ فضاءه الخاص بسؤالي الأهم:

- هل فكَّرتَ يومًا في إنهاء الأمر بنفسك والرحيل؟

لحق الأستاذ بسؤالي وبدأ يرسم له إجابة:

- سأرحل قريبًا.. كل ما عليَّ فِعله هو الانتظار قليلًا!
- ولا حتى فيما مضى من سنوات؟
- لا يهم...
- بل مهم جدًّا.. هل فكرت؟

نظر من النافذة طويلًا، ثم قال بعد تفكير:

- حسنًا.. ربما بشكل نظري في بعض اللحظات.. فيما مضى.. لكن لم يتكرر الأمر كثيرًا!

- أليست فكرة لها وجاهتها؟

- لا أعتقد...

- ألا تعتقد أنه أمر حتمي؟ فحتى الجسد ذاته.. كل ذَرَّة فيه تتداعى بمرور الوقت.. تَضمُر وتتآكل وتتضاءل.. وكأن أجسادنا منذ أن دبَّت فيها الروح وهي في محاولات دائمة لإنهاء دورة حياتها.. ألا يُعدُّ هذا محاولة بطيئة للموت؟

تنهَّد ورَدَّ:

- لا أدري.. صدِّقني لا أدري.. لكن.. ثمة صوت كان دومًا يؤكِّد لي.. ليس الآن.. أمر غامض تَكرَّر وتَكرَّر.. حتى صار الأمر ممتعًا!

- حقًّا! ممتع! أهذا هو الوصف الحقيقي؟

- بلى.. أنا مُلتذٌّ.. وأستمتع!

- بمَ؟

- بالألم.. بالشجن.. بكل تفصيلة.. أعرف أن تلك الحياة لا جدوى منها.. وكان إنهاء الأمور شيئًا من البداهة.. لكني لم أستطع.. أمر غامض ما منعني.. وانتهى بي الأمر هنا...

- هنا أين؟

- في هذا الحلم.. هذا المجاز.. حيث لا حياة.. ولا قياس.. ولا قانون.. ولا حقيقة!

- وماذا عن المعنى! لا تَقُل لي إنَّكَ وجدت المعنى!

- بالطبع لا.. لا معنى في الحياة.. ولا في الموت أيضًا.. الميزان الحقيقي في الحكم هو الاحتمالات.. الأمر ببساطة أن الحياة احتمالاتها أكبر.. أما الموت فحَسمُه مُمِلٌّ!

- لكنه قد ينهي الألم!

- وقد لا ينهيه!

- هل سنحتكم لنظرية "جحيم تعرفه..."؟

- ليس بالضبط.. لكن بقياسات المنطق.. لو أن الحياة بلا معنى.. فالنجاح والفشل سواء.. وكذلك الفرح والحزن.. والسعادة والألم.. كل تلك الأحاسيس في النهاية تعتمد على منظورك لرؤية الأمور واستقبالك لها.. وإن كان النجاح لا معنى فيه.. فلا داعي للشعور بالسعادة؛ فهي بلا معنى أيضًا.. مزيَّفة.. وكذلك الألم.. أعني أنك بالطبع ستشعر به.. لكن إن كنتَ واعيًا بما يكفي.. ستعرف أنه شعور مؤقت.. ومزيف!

لم يكن منطق الكلام بغريب عن سمعي، أظن أني سمعته من قبل، لكني انفعلت:

- وموجِع.. ومؤلم.. ألم تفكر في ذلك! قد تندهش لمدى إيلام هذا الألم المزيف!

- أندهش بالفعل.. وهذا هو ما أبحث عنه...

- عمَّ تبحث!

- الدهشة.. الحركة.. أبحث عن الارتباك.. والنشوة.. عن الغموض.. عن احتمالات متساوية الحدوث لا ضمان فيها.. شيء تتكدَّر به السواكن الملولة.. وإثبات ما.. أني لم أتحوَّل إلى كائن بارد مستأنَس.. بل ما زلت كيانًا غاضبًا ناقمًا حرًّا.. أشكِّل زوبعة في نسيج الوجود...

صمتُّ للحظات، وأنا أحاول أن أسترجع أين سمعت كلامه من قبل، فتركته يتابع:

- لنفكر في الموت كفكرة مجرَّدة.. كامتياز حصلت عليه حين مُنحت الحياة!

تذكَّرتُ، واستحضرت مصدر الكلام، وقلت مندهشًا ساخرًا:

- هذا كلام "إميل سيوران".. هل تقرأ عليَّ "سيوران".. هل صِرتَ من مهاويسه الآن؟

- ربما.. وربما لا.. لكن دعنا نتحدث عن "سيوران" بموضوعية.. نناقش ممارساته وفلسفته بشيء من المنطق.. أليس الموت امتيازًا؟

- بالطبع هو امتياز!

- حسنًا إذن.. وجود الموت كبابٍ خلفي.. كاختيار أخير.. يجعلني دومًا مرتاحًا لفكرة الحياة.. فمهما حدث أنا لست محبوسًا هنا.. بإمكاني أن أرحل في أي لحظة أريد..

لولا الموت لما شعرت بالحرية المتاحة لي في الحياة.. السؤال الحقيقي ليس إذا ما كان الموت قرارًا صائبًا أم لا.. السؤال هو.. لِمَ العجلة؟

- لكن "سيوران" لم يحلَّ مشكلة الألم!

- لعلها ليست مشكلة.. أو مشكلة ليست بحاجة لحلٍّ.. أو لعل البحث عن حلِّها هو الهدف أصلًا.. وفي رحلة بحثك عن حلِّها قد تصنع أشياء جديدة.. لأن ما حدث قد حدث وانتهى بالفعل.. وما الألم سوى قصور ذاتي لرد فعل مشاعرك تجاه ما حدث.. قرار استخدام الامتياز الأكبر الذي منحتك إيَّاه الحياة يبدو قرارًا متطرِّفًا بعض الشيء...

رددت بنبرة ازدراء واستهزاء:

- أجل.. أجل.. حلٌّ دائم لمشكلة مؤقتة.. كلام التنمية البشرية الذي يدفعني لاستخدام الموت أكثر عندما أسمعه...

- ليس الأمر بهذا الشكل الساذج.. لكني أفكر دومًا.. لماذا لا أبقى لفترة أطول لأشاهد ما سيدور بعد مرور الحدث.. أشاهد مدى عبثية الأمر برُمَّته.. أبحث عن بعض الأجزاء المثيرة فيه.. أجزاء مسلِّية.. أبقى لكي أستمتع بالعبث.. والعبط.. حتى وإن كان يتخلَّله بعض الألم...

- تستمتع بالألم؟ ليس كل البشر مازوخيِّين مثلك!

- ليس بالمعنى الحرفي للمتعة.. لكن دعه يدهشك.. هَبْ أنَّكَ في حلم.. وأنت على علم كامل بأنك في حلم.. ولديك الاختيار بأن تستيقظ في أي لحظة تريد.. بل زِدْ على ذلك أن هناك قانونًا يحكم بأنك حتمًا ستصحو من هذا الحلم عاجِلًا أو آجِلًا.. لماذا تستيقظ الآن وتهدر تلك الفرصة الذهبية؟

- أي فرصة؟

- فرصة التجريب.. لماذا لا تغوص في الحلم.. تختبر الاحتمالات.. تشعر بما لم تشعر به من قبل.. وإن صادفتَ ألمًا أو حزنًا فاستخدِمْهُم.. سِرْ عبر ذلك الوادي المظلم.. لعلك تخرج متأمِّلًا.. ملهَمًا.. مندهشًا.. الدهشة توقِف الزمن.. تجعلك ترى.. وتفكر.. وتخلق أفكارًا جديدة.. الدهشة هي أصل الفلسفة!

ابتسمتُ، ونظرتُ له وأنا في غاية الدهشة، وقلت بهدوء:

- لقد تغيَّرت!

ابتسم منهكًا، ثم رد:

- مفعول الألم كان أقوى ممَّا تتصوَّر يا "عيسى".. لقد رأيت وجه الحياة الحقيقي.. كشفته لي.. وصارت مواجهتها بممارسات "سيوران" و"كامو" أهون وأمتع بكثير!

- وصرت "سيزيف" السعيد؟!

- على ما أظن!

- هل أنت متأكِّد بأن هذا ليس تأثير تلك الأدوية؟

رفع "سيزيف" السعيد قُرصًا صغيرًا من على الكومودينو، وقال:

- أترى هذا القرص الصغير.. يجب أن يُعمِّموه.. ويُطوِّروه.. ويُدعِّموه.. ويَصِفوه لكل البشر.. ستكون تلك هي وصيتي للبشر بعد أن أموت.. قبل هذا القرص.. كنتُ عالقًا في غياهب الألم.. كأنَّ ثمة شيئًا هناك لا يبدأ أبدًا.. شيء على وشك الحدوث لكنه لا يحدث مهما مرَّ الوقت.. كأن ثمة شخصًا كان يشبهني وفجأة اختفى.. حتى جاء القرص وحرَّرني.. أنا مدين لهذا القرص بأعزِّ ما أملك.. لا بحياتي.. لكن بعقلي!

***

76

بالقرب من شروق الشمس، كنت أجلس على أحد مقعدَيْ جلسة غرفة نوم الأستاذ. وفي يدي رواية "الغريب" لـ"كامو". عدت لأقرأها للمرة الثالثة. بعد أن طلب مني الأستاذ أن أبقى بصحبته ولو على المقعد البعيد حتى يأنس بوجودي إلى أن يزوره النوم.

رنَّ موبايلي. رقم غريب. سمعت صوت سيدة بالغة على الناحية الأخرى:

- أستاذ "عيسى عبد السلام"؟
- أيوه!
- تعرف شخص اسمه "إمام حنفي الراعي"؟

انتفضت واقفًا، وخفق قلبي:

- أيوه!
- هوَّ تعبان.. وساب لنا رقم تليفونك عشان نكلمك...
- تعب ازَّاي.. هو فين!
- تعالى استلمه من عند طلعة دائري المعادي من التجمع!
- أستلمه! مين معايا؟!

صمتت السيدة لثواني، ثم قالت بشكل حاسم:

- هنبعت لك لوكيشن!
- ثم أغلقت المكالمة. وأرسل لي الرقم على الواتساب موقعًا عند مطلع دائري المعادي. حاولت الاتصال بالرقم مرة أخرى لكنه كان مغلقًا. نظرت في اتجاه الأستاذ، رأيته مسالِمًا يغطُّ في نومه. فانسحبت بسرعة وطرت في اتجاه الموقع المجهول.

- وصلت إلى الموقع، في تقاطع الدائري مع شارع التسعين. وعلى الرصيف المؤدِّي للمعادي، رأيت "الراعي" مُلقًى أرضًا، يئنُّ في ألمٍ، بين الوعي والغياب. وفي حوزته كيس أسود متوسط الحجم، يحتضنه بقوة.
- خرجت من التاكسي، وجريت في اتجاهه. جثوت بجانبه أحاول أن أطمئنَّ عليه وأستفسر منه عمَّا به، وعمَّا جرى، لكنه لم يردَّ، بل ردَّد مرارًا:
- روَّحني.

نظرت حولنا في التقاطع الشاسع، لم يكن هناك فرد واحد. بمساعدة نور الشمس الأول حاولت أن أبحث حوله عن أي دليل، فلم أجد. أمسكت بذراعه، ودفعته من ظهره بلُطفٍ كي يتمكَّن من الوقوف، فصرخ يتأوَّه، وأمسك بجنبه، فتركته على حاله.

رفعت التي شيرت الذي كان يرتديه لأرى الموضع الذي يؤلمه، فوجدت الجزء السُّفلي من جذعه كاملًا ملفوفًا بشاش، شرائط عريضة ملفوفة حول بطنه بشكل كامل ومبالَغ فيه. وفي الجزء الذي تألَّم وأمسك به في جهة الخلف من جنبه، كان هناك ما يشبه بقعة دم حمراء طازجة.

ارتعدت، وصرخت فيه:

- إيه اللي حصل يا "إمام"؟!

لم يـرد. حاولـت أن أتأبَّـط ذراعـه الآخـر كي أقوِّمـه ليقـف، فوقـع منـه الكيـس الأسـود، فـترك ذراعـي وانقـضَّ عـلى الكيـس. لم أفهـم، لكنـي أشرت لسـائق التاكـسي الـذي جئـت معـه كي يسـاعدني عـلى حمله .

***

77

انطلقنا بالسيارة، وقلت للسائق:

- أقرب مستشفى لو سمحت...

أمسك "الراعي" بذراعي وفتح عينيه وقال مرعوبًا:

- مستشفى لأ يا أستاذ!

- يا ابني ما ينفعش!

- أنا هابقى كويس.. روَّحني بس والنبي!

لم أكـن أعلـم مـكان بيتـه، ولم أكـن عـلى اسـتعداد لتحمُّـل مسـاءلة جيرانـه عـمَّا قـد يبـدو وضعًـا غـير طبيعـي. فعـدت بـه إلى بيتـي في المنـيرة. كان قـد فقـد وعيـه تمامًـا، وهـو مـا زال مُمسِـكًا بالكيـس. أخـذت منـه الكيـس، وخلعـت عنـه ملابسـه وحـذاءه، وأودعتـه سريـري. ثـم أمسـكت بالكيـس وفتحتـه، فرأيـت فيـه روشـتة طبيـة، وعـدة علـب مـن الأدويـة والمطهِّـرات، وبكـرة مـن

اللاصـق الطبـي وشـاش، ومـن تحـت تلـك المسـتلزمات الطبيـة، ظهـرت نقـود، نقـود كثـيرة، أعـداد هائلـة مـن الـرُّزَم، مئـات الآلاف عـلى أقـل تقديـر.

وضعـت الكيـس جانبًـا، وعـدت إلى "الراعـي". ففككـت الشـاش الملفـوف بهـدوء، لأجـد جرحًـا متوسِّـطًا، بـه تقطيبات عديـدة، انفكَّ أحدهـا ونـزف قليـلًا. فطهَّـرتُ الجـرح، ودعَّمـتُ الشـاش، وأعـدت لفَّـه ولصقـه. وعـلى مـدار السـاعات القليلـة التاليـة، أعطيتـه بعـض المسـكِّنات، والمضـادات الحيويـة، ومضـادات الالتهـاب، مـن الكيـس، بحسـب مـا ذكرتـه الروشـتة.

في المسـاء. فتـح "الراعـي" عينيـه، وسـألني عـن الكيـس، فطمأنته أنـه في أمـان. لكنـه بـين مفعـول المسـكِّنات والإغـماء الطويـل، لم يكـن واعيًـا بشـكل كامـل، بـل كان يتنـاوب الرحـلات مـن وإلى الوعـي بشـكل غـير منتظـم. سـألته عـشرات الأسـئلة بـين ومضـات الوعـي، وكـرَّرتُ الأسـئلة عـشرات المـرات، لكنـي لم أحـظَ بإجابـة واحـدة، عـن الجـرح، أو الأمـوال، أو حتـى صاحبـة المكالمـة. حاولـت أن أخيفـه بـأني سـأبلغ الشرطـة، فأخـبرني أني سـأؤذيه إن عرفـت الشرطـة بأمـره، فتراجَعـتُ عـلى الفـور.

بالقـرب مـن منتصـف الليـل، أفـاق "الراعـي" وأيقظنـي مـن عـلى الكـرسي المجـاور للسريـر:

- يا أستاذ.. حد عرف؟

- لا.. لسه.. أنا الصبح هابلَّغ "جوافة" و"غراب".

- ما تبلَّغش حد.. أنا هاقول لهم بعدين...
- إيه اللي حصل يا "إمام"؟ ومين اللي كلِّمتني في التليفون؟
- دي الست صاحبة الڤيلَّا.. أنا اللي سِبت لها تليفونك.
- هيَّ مين دي.. ومين اللي عمل فيك كده؟
- محدِّش عمل حاجة.. أنا اللي رحت لها برجلي!
- طب فهِّمني!
- مش مهم.. المهم إني جبت الفلوس.. وهنحل كل حاجة!
- فلوس إيه!
- بعت لهم حاجة مكانتش لازماني.. وخدت تمنها!

انفجر الدم في رأسي، وتلجلجت:

- بعت إيه!

ردَّ "الراعي" وهو يفقد وعيه مرة أخرى:

- ... الجامعة.. قُل لهم يا أستاذ إن كلنا هندخل الجامعة...

ثم غاص في غيبوبة جديدة.

دارت الدنيا. قمت أدور في الشقة. أبحث عن الوعي. فارقت الحقيقة حياتي إلى الأبد. تُحلِّق في رأسي احتمالات لا حصر لها. ماذا يمكن أن يكون قد باع "الراعي" مقابل هذا المبلغ؟ ولماذا؟ أحقًّا من أجل الجامعة؟ هل كان هذا كله بسببي؟ ألهذا الحد كانت خطبتي عن الجامعة مؤثِّرة؟ لا.. لا أظنُّ أبدًا، لقد كانت

مجرد كلمات جوفاء، لا أصدق أن يتأثر بها أحد، وبالخصوص "الراعي"، بالتأكيد هناك شيء آخر.

جلست أستحضر كل كلمة قلتها له، وكل فعل أقدَمتُ عليه في حضوره. تذكَّرتُ الأموال التي دفعتها له دون تردُّد مقابل قطعة الحشيش، أتراه ظنَّ أني أملك مالًا وفيرًا لمجرَّد أنني التحقت بالجامعة؟ أم أنه الكارنيه الذي أبرزته في قسم الشرطة والمعاملة المميزة التي تلقَّيناها هناك، هل شعر أن لي سُلطة خفيَّة بسبب دراستي في الجامعة؟ أم تراها تلك المرة التي زلَّ فيها لساني وذكرت سفري لأمريكا أمامهم، هل أبهرته فكرة السفر بسبب تفوُّقي في الجامعة؟

لعلها كانت كل الأمور مجتمعة؛ الخطبة والأموال والكارنيه والسفر. عيَّنتُ نفسي مثالًا يُحتَذى به، ثم وضعته نصب عينيه، وصرت أقرب للصورة الكاملة لما يمكن أن ينتفع به من الجامعة. لعل هذا هو سبب تراجعه عن قرار انسحابه من امتحانات نهاية العام، وقرر أن يستمر في دراسته حتى بعد أن مات جده.

ما الذي فعلته! لقد أفشيت أكثر ممَّا ينبغي.

تحجَّرت أمام مرآة التليفزيون السوداء. أحدِّق في انعكاسي. مرَّت ساعات. لم أنم. لم أتحرك. لم أتنفس. كنت في أبعد نقطة عن حافة العالم التي يقيم فيها الأستاذ، أنا الآن في المنتصف، في بؤرة الكون، في مركز الأرض، حولي ملايين وملايين من الجدران،

في كل الاتجاهـات، وزني أثقـل مئـات المـرات، لا أسـمع شـيئًا، ولا أرى سـوى انعـكاسي، لـن أتمكـن مـن مغـادرة هـذا المقعـد مجـدَّدًا.

اختفـت الشـمس، وحـلَّ الظـلام، وتـاه الوقـت، وصرخ الشـيخ "رفعـت"، لكنـه لم ينقـذني هـذه المـرة، لم تتحـرك أطـرافي، نوبـة جديـدة. لـو كان لنهايـة العـالم موعِـدٌ، فـلا وقـت أنسـب مـن هـذا. ألم ينُـصَّ العَقـدُ أن يرحـل الإنسـان عـن الأرض بعـد أن يهـدم كل بنيـان أقامـه؟ لقـد هدمنـا كل شيء، ألا يكفـي هـذا؟ هـل سـنعاقَب بالبقـاء هنـا إلى الأبـد؟ توقَّفـتُ عـن التفكـير تمامًـا... صرت حجـرًا.

***

78

دقَّ البـاب، ثـم دقَّ. وصـاح الجـرس، وتحـوَّل الـدَّقُّ إلى ركل، والـركل إلى هبـد، وصرخـت السـت "هانـم" مـن الخـارج بمـلء فيهـا، فلـم أتمكَّـن مـن تجاهُـل صوتهـا المجلجـل، وقمـت. ألقيـت نظـرة عـلى "الراعـي" في سريـري. مـا زال نائمًـا. فتوجَّهـتُ للبـاب.

لم تمهلنـي السـت "هانـم" ثانيـة واحـدة. واتَّـكأت عـلى رأس الأسـد الفـضِّيِّ، وربَّتَـت عـلى كتفـي وقالـت:

- البقية في حياتك يا بني!
- ...
- أستاذ "سليمان" تعيش انت!

توقَّـف الوقـت أخـيرًا. حـلَّ بـردٌ قـارص. شـعرت بـأن الأقـزام على وشـك أن يجتاحـوا المنـيرة، ويخترقـوا البـاب، ويتَّخـذوا مـن بيتـي مقـرًّا لحُكمهـم، ويسـيطروا عـلى العـالم. مـات العمـلاق الأخـير.

جلَسْـت، وجَلَسَـتْ هـي بجانبـي، فسـألت فـور أن وجـدت الكلـمات:

- "أميرة" كانت معاه؟
- آه...
- هيَّ هناك؟!
- مستنيَّاك تروح لها.

لـن يمهلنـي الوقـت لحظـة واحـدة لألتقـط أنفـاسي. وقفـت على قدمـيَّ بمـا اسـتجمعت مـن قـوة، وحكيـت للسـت "هانـم" بأقـصر الجمـل عـن "إمـام" الراقـد في سريـري، وعـن كل مـا عرفتـه، وعـن ظنِّـي فيـما أن يكـون قـد بـاع مـن جسـده. ثـم أوصيتهـا ألَّا تبلـغ الشرطـة، وأن تـأتي لـه بطبيـب إن لم يسـتفق حـين يحـلُّ النهـار.

ثـم نزلـت في ظـلام الليـل، أواجـه الطريـق إلى شـارع الغيـث، للمـرة الأخـيرة عـلى الأرجـح.

***

79

هل تحدَّثت إلى الأستاذ بما يكفي؟

سنوات طويلة لم أتحدث إليه عامدًا. كان هذا هو العبط المحض، ولا أسباب أخرى.

بعد أن رحلت "فيونا"، اختبأت من العالم لأيام، وعدت بعدها لأجد نفسي بلا جامعة، وبلا خطة، وبلا أمل. بلا شيء. أرسل لي الأستاذ وقتها عدَّة مرات ليسأل عني، وكنت أتجاهل سؤاله، فلم يكن لديَّ رَدٌّ. كيف كان بإمكاني أن أخبره؟ كيف يعترف التلميذ لأستاذه بأمرٍ كهذا؟ وامتدَّت أيام عدم الرد لأسابيع، ثم لشهور، وصار الرد أصعب بمرور الوقت، وبدأت وتيرة رسائله تقِلُّ، وحِدَّتها تزيد. لم يكن يريد أن يبدو لحوحًا، أو مقتحمًا. تمامًا مثلما أخبرني قبل أن أرحل. قال إنه يعرف أن حياتي الجديدة في بنسلڤانيا ستكون أهمَّ من تواصلي معه؛ لذلك لن يزعجني إن شعر بأن الرد على سؤاله صار عبئًا.

قرأت رسائله كلها، متألِّمًا، لكني لم أردَّ... أبدًا. حتى توقَّفت الرسائل.

ظننت في بداية الأمر أني سأتمكَّن من إيجاد خطة بديلة، أخلقها من رماد الخطة القديمة، وأقدِّمها قربانًا للأستاذ؛ تكفيرًا عن إفسادي لخطته الأصلية. وحاوَلتُ مرارًا ومرارًا، لكن الأفق كان ضبابيًّا، والرؤية مغبشة، وكعادة عقلي، كلما تغبَّشَت الرؤية، وتعقَّدَت الأمور، كان يعود إلى أقرب نقطة واضحة،

ويلجأ لاستنتاجات المنطق، كي يرسم من تلك النقطة طريقًا أكثر ترتيبًا. فأعادني عقلي إلى نقطة بداية التفكير في السفر. اللحظة التي انفجر منها كل شيء.

ناظرت عقلي مجدَّدًا، وكالعادة لا حكم بيننا سوى المنطق.

شاهدت عقلي ينقلب عليَّ، وعلى الأستاذ، ويدَّعي بأن فكرة السفر لم تكن فكرةً سديدة، بل لم يكن لها داعٍ من الأساس. فما الداعي من أي شيء لا جدوى منه؟ وما هي جدوى أي شيء؟ واندهشت لهذا التناول الجديد. وكأنه لم يكن حاضرًا حين اتخذت أنا والأستاذ قرار السفر، ولا حين كنا نضع الخطة، ونعد لها العُدَّة. كيف يمكن أن يبدي اعتراضه على الفكرة بعد تنفيذها وفشلها؟ أين كان كل تلك السنوات؟

استغل عقلي ضعف ذاكرتي في تلك اللحظة، وسوء حالتي النفسية، وهشاشة إرادتي، ولجأ لحيلة دنيئة. إذ أخذ يردِّد هنا وهناك، وفي كل ركن من أركان رأسي، أن خطة السفر لم تكن خطتي، بل كانت خطة الأستاذ، هو الذي أقنعني بها ليحاول أن يحقِّق أمرًا خفيًّا في نفسه. فبدأ يتسلَّل الشك لقلبي. وبِتُّ أتساءل، هل تأثَّرتُ بالأستاذ حقًّا؟ هل عاد التنِّين ليؤثِّر فيَّ؟ كيف هذا وأنا الطفل؟ كنت قد تحوَّلتُ لطفل منذ سنوات، فما الذي تغيَّر؟

فكَّرتُ كثيرًا. وكان عليَّ أن أستحضر صورة الطفل مرة أخرى، وأحدد الخطوة التالية بعيدًا عن تأثير الأستاذ، لا لكي أقدِّم

لـه القربـان وأعوِّضـه عـن خطتـه فأعـود لصـورة الجمـل، ولا لـكي أبتعـد عنهـا وأرفضهـا فأقـع في معضلـة الأسـد.

إلا أن الأمـر كان صعبًـا، فنوبـات القلـق مـن بعـد رحيـل "فيونـا" كانـت عنيفـة. وكنـت قـد بـدأت رحلتـي مع العـلاج النفـسي، وتمكن منـي الاكتئـاب. صـار التفكـير الحـر في ذاتـه رفاهيـة لا أملكهـا، فلـم يـزدني التفكـير إلا سـخطًا عـلى العـالم، والجامعـة، ونفـسي... وعـلى الأسـتاذ أيضًـا. فلـولاه لمـا سـافَرتُ، ولمـا قابلـت "فيونـا"، ولمـا حـدث كل شيء. لـولا خطتـه لكنَّـا جلسـنا في غرفـة مكتبـه بشـارع الغيـث، ننعـم بعـشرة أعـوام مـن نقاشـاتنا البديعـة، حتـى يرحـل بهـدوء في إحـدى المباريـات الفلسـفية بيننـا، دون أي ضغائـن أو شـحناء.

أضعـت سـنوات مـن الاتصـال بالأسـتاذ بسـبب هـذا السـخط العالـق، وسـنوات أخـرى بسـبب الخـزي المتراكـم مـن فشـل الخطة. حتـى بعـد أن عُـدتُ للقاهـرة، أضعـت شـهورًا أخـرى مـن اللقـاء والأحاديـث المحتملـة، مـن أجـل بقايـا أحاسـيس لا أذكـر لهـا أساسًـا مـن المنطـق.

سامح الله عقلي...

غايـة الأمـر أن كل شيء قـد انتهـى. رحـل الأسـتاذ. نجـا بنفسـه. أدَّى آخـر ديونـه لـتراب الأرض وطينهـا. أمَّـا أنـا، فـكل مـا كنـت أفكـر بـه أننـي... لم أتحـدث إليـه بمـا يكفـي.

***

80

وارينا الأستاذَ الترابَ.

وفي مكالمـة سريعـة للسـت "هانـم" بُعَيْـد الدفـن، اطمأننـت منهـا أن "الراعـي" قـد تعـافى ونجـا.. هـو وأمواله. أغلقـت بعدهـا الموبايـل ولم أعـاود الاتصـال بـه مـرة أخـرى. بـل وادَّعيـتُ عـدم وجـودي بالبيـت حـين جـاء ليـزورني "جوافـة" و"غـراب" عـدة مـرات. وكنـت ممتنًّـا أن محـاولات التواصـل تلـك كانـت مـن جانـب "جوافـة" و"غـراب" فقـط، لم يصحبهـم فيهـا "الراعـي" أبـدًا. وكأننـا وقَّعنـا سـويًّا اتفاقًـا ضمنيًّـا ألَّا نحـاول أن نتواصـل مـرة أخـرى، ولا نـأتي عـلى ذِكـر الأمـر مجـدَّدًا، لـن يواجهنـي هـو كي لا أطالبـه بتبريـرٍ لمـا فعلـه، ولـن أواجهـه أنـا كي لا يسـألني عـن سـبب إقحامـي لطمـوح الجامعـة في عقلـه.

غصـت بعدهـا لأيـام في غرفتـي، أنـا وكـرة الأفـكار، والضبـاب، ونوبـات الفـزع، والأدويـة التـي قـرَّرتُ تلـك المـرة ألَّا أتوقـف عـن تناولهـا. كانـت النوبـات أخـفَّ وطـأةً بوجـود الأدويـة، أمَّـا التعاطـف، فلـم يكـن لـه رادع.

وبعـد أيـام مـن محاولـة الهـروب، دقَّ البـاب، وجاءتنـي شـحنة ضخمـة عـبر البريـد لم أكـن أعلـم عنهـا شـيئًا.

أوصى الأسـتاذ "سـليمان" بتوزيـع ثروتـه كـما يتفـق الـشرع والقانـون، فذهبـت لأبنـاء أخيـه عـلى مـا أظـنُّ. لكنـه عـلى قـدر مفاجـأتي، كان قـد أوصى لي بمكتبتـه الخاصـة كاملـةً، مـن قبـل حتـى

أن تبدأ مقابلاتنا الأخيرة، أوصى لي بها منذ أن كنت في أمريكا. أهداني إياها، وأورثني عملًا طويلًا، انخرطت فيه بشكل يومي، ولم أكن أفارق الصفحات والملاحظات المكتوبة بخطٍّ يده إلا بالقرب من الفجر، أقارن وأتأمَّل وأستمتع، أهداني إلهاءً خاصًّا، أظن أنه سيلازمني لما بقي من حياتي، حمل به عن كاهلي جزءًا كبيرًا من الوقت.

لكن بالطبع ليس كله...

ففي أوقات الفراغ، بين القراءة والتدوين، كنت أتسطَّح على سريري أراقب كرة الأفكار، وأسحب منها فكرة تلو الأخرى، وأحاول أن أحلِّلها وأَزِنَ ثقلها.

كان الدكتور "ثابت" يزورني بشكلٍ يومي عبر كرة الأفكار. وأتساءل إن كان يعرف بأمر ما حاولت أن أقوم به من أجله. هل يراه ذا أهمية؟ وهل كانت قراءتي الخاصة لما كان يقوم به، ونظرتي لما يمكن أن يكون مشابهًا لما أراده صحيحة؟ وماذا بعد أن انقلب الأمر، وتخطَّى الأمر نفع البشرية، وصارت مجهوداتي تضرهم أكثر ممَّا تنفعهم، هل صار عليَّ أن أتوقَّف؟

جاء صبي الست "هانم" بأطباق الأكل، وطرق الباب، ولما لم أردَّ، تركها على الأرض، ورحل، ففتحت الباب وأخذتها. شوربة عدس، وعيش محمَّص، وبصل. اختلف نوع الوجبات برحيل "نجوى" إلى بيتها، فأيما بيت تهجره "نجوى"، جدب وذوى، وأينما حلَّت "نجوى"، حلَّ الخير، وعمَّت البركة. هنيئًا لعم "كارم" اختيارها لبيته من بين كل بيوت الشارع.

أكلت من العدس قدر الحاجة، وشربت شايًا مقارنًا مثاليًّا. امتيازي الأوحد الذي لم يتأثر بما يدور في العالم، ثم عدت إلى السرير، أراقب كرة الأفكار. وبعد دقائق من التأمل، سحبت الفكرة الجديدة.

حقيقة لا شكَّ في صحتها؛ الخراب يحاوطني، وينال من كل مَن أقترب منهم. يا لي من خبير عتيد في رسم الخطط المدمِّرة! يجب أن أقطع الاتصال بالبشر، وأحدَّ من الضرر الذي يمكن أن أُحدِثَه في العالم من حولي، وأيقنت أنه لا سبيل من الاختباء في غرفتي وسط هذا العدد من الروابط، مع الطلاب، والمدرسة، والست "هانم"، والدكتورة "علا".

وبعد أيام من السقوط في هاوية الحقيقة، قرَّرتُ أن أهجر السبل التي تتطلَّب مني خططًا. أن أتوقف عن الفعل، وأسلم حياتي لأمر أكبر، لا يتطلب تفكيرًا، ولا مشاعر، ولا قرارات حاسمة، خطة برجماتية مُعدَّة مُسبَقًا، لا خطورة من فشلها. فاخترت أن ألجأ لزميلي في نادي مهاويس الشيخ "رفعت"، لعلي أجد عنده المهرب.

وفي المساء، خرجت من بيتنا مباشرةً، إلى بيت عم "رجب"، أسأله عن تطوُّرات رحلة البحث، وعن خطوته التالية، وبعد عتاب شديد أخبرني:

- مشيت ورا خيط "ملكة الحفناوي"!
- مين؟
- بتاعة الترميم ياد انت!

- أيوه أيوه مالها!
- طلعت ماتت.. والمدير اللي بعدها كتب في السجلات إن الشرايط باظت وهُمَّا بيرمِّموها.. بس أنا ما صدَّقتش الكلام.. وجبت اسمه ومشيت ورا الخيط ده.. وعرفت إنه خد الشرايط لنفسه عشان يبيعها.. وقبل ما يبيعها مات هو كمان.. بس مراته مكانتش تعرف حكاية الشرايط دي خالص.. وشالت كل حاجة جوزها في صناديق وفضلت سنين متخزِّنة في الأوضة.. ومن سنتين ابنها بعت ياخدها عشان تعيش معاه في الخليج.. وهي بتلملم حاجتها لقت الشرايط.. وكانت فاكراها شرايط عادية فجابت واحد بتاع روبابيكيا ياخد الصناديق كلها.. الراجل بتاع الروبابيكيا.. عرفت اسمه والجراج اللي عربيته بتبات فيه.. بس لما رحت له لقيته سافر بلده.. وبقاله شهرين ما رجعش!
- طب وبعدين؟
- ولا قبلين.. لازم حد يروح له!

لم أتردَّد للحظة:

- أنا أروح له!

ردَّ مستهزئًا:

- إنتَ!
- المرة دي بجد يا عم "رجب".

- وأرجع أدوَّر عليك ملاقيكش!
- لا.. صدَّقني والله.. أنا مش عايز أفضل هنا الفترة دي...
- بس أنا مش هاقدر أسافر معاك...
- عارف!
- هتسافر.. وهتلف...
- عارف...
- ويمكن تروح له متلاقيش عنده الحاجة.. وتحتاج تروح وراها بلد تانية!
- أروح!
- ماشي.. أمَّا نشوف.. الراجل من طما.. سوهاج...

فتح عم "رجب" الدرج المجاور له وأخرج محفظته، وسحب منها ورقة صغيرة، ووضعها في يدي. تناولتها منه وفتحتها. كان مدوَّنًا بها اسم تاجر الروبابيكيا وعنوانه في سوهاج. وقبل أن أُبدي أي ردَّة فعل، أمسك عم "رجب" بياقة قميصي بقوة، وقال بصوت حازم:

- الشيخ رماها في حِجرَك.. دورك جِه!

***

81

في صباح اليوم التالي، اتصلت بمُدرِّسة التاريخ، والفلسفة سابقًا، "نشوى حمادة"، وطلبت مقابلتها خارج المدرسة قبل أن تبدأ حصصها.

تقابلنا في شارع النادي بالقرب من موقف الميكروباص، وتحدَّثنا لمدة خمس دقائق، أخبرتها أني سأتغيب عن المدرسة لما تبقى من الترم، ولمَّا خافت أن تعود لها مَهمَّة تدريس حصص الفلسفة بغيابي، أكَّدتُ لها بأني أنهيت شرح المنهج لكل الصفوف، وليس عليَّ أي أعباء يمكن أن تخيفها، وبأني حتمًا سأعود في بداية العام الدراسي الجديد، فأنا ما زِلتُ على عهدي معها بالبقاء في المدرسة وعدم الرحيل قبل أن ترحل هي. ثم أوصيتها بأكبر قدر من اللباقة أن تولي طلابي الثلاثة اهتمامًا أكبر، دون أن أذكر لها أي أسباب لقلقي عليهم. فطمأنتني ورحلت.

عدت للبيت، وأعددت حقيبتي، ووضعت بها كل ما سأحتاجه من أدوية، وكل ما يمكنني أن أحمله من كتب الأستاذ. وفي طريق النزول، رأيت الست "هانم" تجلس هائمة في كرسيها بعد جلسة حشيش مسائية طويلة، فألقيت عليها السلام، وأخبرتها أني راحل، وأهديتها النصف الثاني من قطعة الحشيش المتبقية، وودَّعتها، فلم تجادل على غير عادتها، لعلها لن تتذكَّر أيًّا من هذا الحديث حين تستيقظ، لكن قد

تتذكرني حين تري قطعة الحشيش في حجرها، على كل حال، ودعتها بشكل لائق.

وقبل أن أبدأ الرحلة، تركتُ رسالة لـ"علا"، ألغيت فيها الجلسات المقررة بيننا لفترة غيرة معلومة، وأعتذرت لها عن هذا القرار المفاجئ. ثم رحلت. لا أملك سوى مرتب الشهر الأخير، وما تبقَّى من أموال أمي التي أعادتها لي الحكومة. وبحوزتي كرة جديدة من المشاعر المشتبكة في صورتها الخام، أحتاج إلى وقت طويل للعمل عليها.

خرجت من بيتنا، وتسلَّمتُ الطريق للجنوب. أعبر أعتاب بوابة الوجود مرة أخرى. أستسلم للحلم الكبير، وأبحث عن شيء يدعو للدهشة.

وطال السفر كما تمنَّيتُ، وكما توقَّع عم "رجب"، حملني موج البحث من سوهاج إلى ما هو أبعد منها، وتحوَّلَت الأيام لأسابيع ثم لشهور. لم آكل إلَّا للضرورة. لم أترك كتابًا من كتب الأستاذ التي صحبتها معي إلا وقرأته عدة مرات. لم أفتح موبايلي إلا في مرة واحدة أبلغت فيها عم "رجب" بآخر التَّطوُّرات، وطمأنته أني ما زلت على الطريق الصحيح في البحث. ثم أغلقت الموبايل مرة أخرى كي أستسلم للبحث، سألت مئات الأشخاص عن وجهتي، وأجابني قليلون. مشيت أكثر ممَّا ركبت، وأخذت أطالع تلك السور والآيات التي لم يسجلها الشيخ بصوته؛ لعلِّي أرى المنطق من عدم تسجيلها هي بالخصوص، بدلًا من التسليم بأن الأمر كان مجرد صدفة، أو أن

الوقـت لم يسـعفه مـن إتمـام التسـجيل. قـرأت الآيـات المفقـودة بعنايـة، مـرارًا، وبحثـت في تأويلاتهـا، وكل التفاسـير المتاحـة لهـا، تتبَّعـتُ كل مـا يمكـن أن أتتبَّعـه منهـا، ولم أصـل إلى شيء، لكنـي حفظتهـا كلهـا عـن ظهـر قلـب.

كانـت رحلـةً مثاليَّـةً، وجـدت فيهـا العُزلـة التـي كنـت أبحـث عنهـا، والوقـت الـلازم لتفنيـد أفـكاري وترتيـب مشـاعري. اختفـت كـرشي الصغـيرة، وخـفَّ وزني، واختلـف شـكلي. وكنـت أسـائل نفسي يوميًّـا، هـل أجـدت العُزلـةُ نَفعًـا؟ لا أعـرف، لا يمكننـي اختبـار ذلـك إلا إذا عـدت.

وبالفعـل كتـب لي القـدر اختبـار تأثـير العزلـة، بعـد أن كنـت قـد اعتـدت عليهـا. فسـلَّمتني خطـة البحـث إلى خيـط جديـد طرفـه الآخـر في القاهـرة، حيـث أكَّـدَت الأدِلَّـة أن تسـجيلات الشـيخ "رفعـت" بعـد جولتهـا الطويلـة في الجنـوب، قـد عـادت إلى القاهـرة في بقجـة تاجـر عمـلاق مـن تجـار سـور الأزبكيـة. فتركـت العُزلـة عـلى الفـور وعـدت مـع أدِلَّتـي في إثـر التسـجيلات، لكـن بمعلومـات أقـرب للحقيقـة هـذه المـرة.

***

82

وفي الشارع...

رأيـت أول مـا رأيـت، المدرسـة، وعربـة الكوسـة، الاختبـار الأول لمفعـول العزلـة، ففشـلت فيـه بامتيـاز، وبـدأ يعتمـل الألم في صـدري بمجـرد رؤيتهـا، تذكَّـرت "الراعـي" وكل مـا حـدث لـه، وخفـق قلبـي مـن هيئـة بوابـة المدرسـة المغلقـة وعربـة الكوسـة الخاويـة فقـط، كأن الرحلـة لم تكـن سـوى إيهـام بالعزلـة ومـدى تأثيرهـا، أمـا التعاطـف المصكـوك في قلبـي فلـن يمحـوه شيء، لا الأدويـة ولا حتـى العزلـة.

قبالـة المدرسـة كانـت السـت "هانـم" تجلـس، بشيشـتها الملكيـة وعكازهـا ذي رأس الأسـد الفضي، فتهلَّلَت فور أن رأتني، واسـتقبلتني اسـتقبال الفاتحـين، وأمـرت صبيَّهـا بحمـل حقيبتـي، وتوصيلهـا إلى شـقتي، ثـم أشـارت لي وهـي تلكمنـي في صـدري مُعاتِبـةً:

- كنت فين كل ده يا وَلَا!
- حكاية طويلة يا خالتي...
- اقعد طيب.. خد نَفَسك.
- طـب أسـتأذنك أعـدِّي عـلى عـم "رجـب" وأرجـع لـك.. معايـا ليـه أمانـة لازم أوصلهـا لـه!
- أمانة إيه يا ابني هو انت ما تعرفش؟
- إيه!

- هتعرف منين صحيح.. عمك "رجب" جات له جلطة...

هوى قلبي في ثقبه:

- مات!

- لا.. هـو تعـب ووقـع في البيـت لوحـده.. وزمايلـه في المسـجد لمـا لقـوه غـاب عليهـم راحـوا لـه البيـت.. لقـوه واقـع.. خـدوه المستشـفى.. قالـوا لهـم جلطـة وبعيـد عنـك مـا تلحقتـش بـدري...

شـعرت بالعـرق البـارد ينسـال مـن أكتـافي إلى أسـفل ظهـري، فتابعـت السـت:

- ... دخل العناية المركزة.. وفي غيبوبة من ساعتها!

- حصل إمتى ده؟

- من قيمة أسبوعين... بس بيقولوا صعب يقوم منها.

أصابني الخرس...

هـل يرحـل شـبيه المصـارع العمـلاق قبـل أن يـرى مـا جلبـت له مـن خيـوط؟ قبـل أن يسـمع النصـف الثـاني مـن سـورة "الأعـراف" بصـوت شـيخه الحبيـس؟ لعلـه حـاول الاتصـال بي قبـل أن تُصيبـه الجلطـة كي يعـرف إلى أيـن وصلـت رحلتنـا، ليعـرف أيـن انتهـى سـعيه في الدنيـا، وكنـت أنـا في عزلتـي، أنعـم بموبايـلي المغلـق، وأتغنَّـى بمزايـا العزلـة، تلـك هـي العواقـب الحقيقيـة للعزلـة، يـا لي مـن منعـزل محنَّـك.

اسـتأذنت مـن السـت هانـم وصعـدت إلى الشـقة. خلعـت ملابـسي، ودخلـت إلى الحـمام ونقعـت رأسي المتضخِّـم تحـت دش المـاء البـارد، حتـى تأكَّـدتُ أن رأسي لـن ينفجـر، ثـم خرجـت إلى الصالـة ونظـرت إلى سريـري القابـع في الغرفـة، وقـرَّرتُ ألَّا أقـترب منـه، لـن أسـمح لـه أن يبتلعنـي لأيـام مـرة أخـرى، فارتديـت ملابـس نظيفـة، ونزلـت عـلى غـير هـدى.

رأيـت السـت "هانـم" تجلـس في نفـس الوضعيـة مثلـما تركتهـا قبـل سـاعة، ألقيـت عليهـا السـلام ولم أنتظـر الـرد، ولشـديد فطنتها، وإحساسـها بمـا يعتمـل في صـدري، لم تحـاول أن تسـتوقفني، وتركتنـي أمـرُّ كمَـرِّ السـحاب. فـأنَّى لي أن أذهـب، هـي تعلـم أني سـأعود حتـمًا، مثلـما عـدت مـن قبـل.

هِمتُ بغير هدًى، فساقتني رياح التوق إلى ساحة "برج إيفل"...

***

83

تبـدَّت السـاحة أمامـي كأعتى أسـواق البندقيـة رواجًـا، واختفت آثـار المعركـة السـابقة، وعـاد كل شيء إلى نصابـه، فرشـات البخـور، ونصبـات ملابـس، وعربـات الكشَّـافات الصينيـة، وطاسـات قـلي العصافـير، وصـواني "وارد جروپـي".

وقبالة محل "برج إيڤل" العملاق، قبع محل صغير، جديد، لامع، عليه لافتة سوداء أنيقة، تحمل اسم "الراعي"، وتحتها عنوان آخر بخط رفيع "زارا القادم". وقفت على الجانب الآخر من الساحة، أراقب المحل، والأعداد الغفيرة المتكدِّسة أمامه، كان أكثر المحلات ازدحامًا في الساحة. وبين تلك الجماهير المتشوِّقة للشراء، وقف طلابي الثلاثة، يديرون الجموع، وعمليات الشراء، كأعظم تجار المنطقة، وقفت لدقائق طويلة أراقب في سعادة وفخر.

وفي لحظة، انسلَّ "جوافة" من بين الزبائن وبدأ في عبور الساحة قادِمًا في اتجاهي، فعرفت أنه قد رآني وحاولت أن أخفي وجهي وأختبئ في الزحام، لكنه تمكَّن مني ولحق بي وأمسك بذراعي:

- أستاذ عيسى...
- جوافة.. عامل إيه؟!
- فينك يا أستاذ.. ده احنا دُخنا عليك!
- معلش كنت مسافر.. ولسه راجع!
- أنا جيت لك أنا و"غراب" كذا مرة..
- اه.. الست "هانم" قالت لي.. كنتوا عايزين حاجة؟
- كنا عايزين نبشَّرك إننا نجحنا.. وجت لنا تجارة حلوان.. وهنبتدي كمان أسبوع!

دقَّ قلبي من السعادة، ونظرت له، ودمعت عيناي رغمًا عني، وسألت:

- ألف مبروك.. بس.. هتعملوا إيه في الشغل!
- "الراعي" حلها يا أستاذ.. قلت لك ده الراعي بتاعنا.. جاب المحل ودخَّلنا معاه شُرَكا.. لعبتك قلبت جد يا أستاذ!

لم أجد الكلمات، واتَّسعَت ابتسامتي، ورفعت رأسي أنظر في اتجاه المحل هربًا من أن يرى "جوافة" الدموع في عيني، فتابع كلامه وهو يجذبني من ذراعي:

- تعالى يا أستاذ أفرَّجك المحل وأشرَّبك شاي.. وتسلِّم على "الراعي"!

سحبت ذراعي من يده بشكل مفاجئ فور أن ذكر الحديث إلى "الراعي":

- معلش شكلكم مشغولين دلوقتي.. وأنا عندي مشوار.. هاعدِّي عليكم بالليل!

ابتسم وبدأ في التراجع استعدادًا للعودة للمحل:

- ماشي يا أستاذ.. هاستناك بالليل!

عاد "جوافة" للمحل، وغاص في الزحام، فغمرته أمواج الزبائن الوافدين. وقفت في مكاني لدقائق أخرى أتأمَّل بديع المشهد عن بعد، وأحاول أن أطمئنَّ على "الراعي" الذي بدا

في أتـمٍّ صحـة، وكأن لـه جسـدًا كامـلًا ليـس بـه أي عطـب. يديـر تجارتـه في غايـة المهـارة والحنكـة.

توقَّـف "الراعـي" عـن انشـغاله لثـوانٍ، وكأنـه شـعر بوجـودي في طاقـة المحيـط مـن حولـه، ثـم وقـف ببـاب المحـل، ورفـع رأسـه يـداول النظـر عـبر السـاحة، حتـى رآني، والتقـت عينانـا، وظـلَّ نظـره مُعلَّقًـا بي لفـترة، ثـم ابتسـم وأومـأ لي في امتنـان، فابتسـمت بـدوري وأومـأت. وبعـد ثـوانٍ عـاد إلى داخـل المحـل، منهمـكًا. فاسـتدرت عائـدًا إلى البيـت مبتسـمًا.

عـلى غـير مـا توقَّعـتُ، أو تصـوَّرتُ، في أكـثر تصـوُّراتي جموحًـا، نجحـت خطـة "الراعـي"، وانتشـل نفسـه ومَـن معـه، ليدخلـوا العـالم الـذي وعدتهـم بـه في لحظـة سـذاجة؛ عـالم الجامعـة. كان الأمـر يحتـاج لمعجـزة كي ينجحـوا، فـكان "الراعـي" هـو صاحـب المعجـزة، نبيًّـا مخلِّصًـا. معجزتـه هـي مـا باعـه مـن جسـده، كتاجـر البندقيـة. بـاع كي يسـتقيم الميـزان.

تغـيَّر كل شيء. غـيَّر "الراعـي" كل شيء. صـار عملاقًـا أمـام عينـي. لم يَعُـد العالَـم أقزامًـا فقـط.

***

84

قدَّمـتُ أوراق تطوُّعـي مـرة أخـرى، وصرت جاهـزًا لعـام دراسي جديـد...

لمـاذا أتطـوَّع مـرة أخـرى؟ لا أدري. ربمـا بسـبب الوعـد الـذي قطعتـه لـ"نشـوى" ألَّا أتـرك المدرسـة قبـل أن تتركهـا هـي. أو ربمـا لأني لا أعـرف أي خطـط بديلـة. عـلى كل حـال تقدَّمـتُ بشـكل ميكانيـكي. وتطوَّعـتُ لمسـاعدة طـلاب جـدد.

مـا زالـت نفـسي تحمـل شـكًّا عميقًـا وارتيابًـا مثقـلًا مـن كل كلمـة سـأقولها. كل الاحتـمالات يمكـن أن تحـدث، وبنفـس القـدر. لا يمكننـي أن أعـرف أي شيء ممَّا يـدور في عقـول الطـلاب، ولا عـمَّا يمكـن أن يقومـوا بـه بنـاءً عـلى كلـماتي. لا أظـن الحـذر سـيجدي نفعًـا، فقـد كنـت حَـذِرًا في تعامـلي مـع "الراعـي" قـدر الإمـكان، لكنـه كان يسـبقني بعـدة خطـوات وسـنوات.

بعـد أيـام مـن بـدء الدراسـة، وعـدة محـاولات للقيـام بزيـارة لعـم "رجـب" في العنايـة المركـزة، بـاءت كلهـا بالفشـل بنـاءً عـلى أوامـر الأطبـاء، أيقنـتُ أنـه لا مفـرَّ مـن متابعـة البحـث بمفـردي. فاخـترت أحـد الأيـام التـي لم يَكُـن لي فيهـا حصـص مخصَّصـة، وخرجـت مـن المدرسـة أحمـل في يـدي الورقـة التـي كنـتُ أودُّ أن أهديهـا لعـم "رجـب" فـور أن عـدت مـن رحلـة العزلـة، ورقـة بخـطٍّ سـيئ، بهـا عنـوان أحـد أباطـرة سـور الأزبكيـة.

بعد مسافات سير طويلة، بشوارع مزدحمة، في حَرٍّ مُهلِك، كنت أطوف إحدى الحارات المتاخمة لدرب البرابرة. وفي ردهة متهدِّمة قديمة، لعمارة عملاقة، يحمل كل طابق منها ما يفوق العشر شقق، وجدت شقة التاجر المقصود، وكان بابها مفتوحًا.

وفي الداخل، وقف رجل عجوز بدين بين مجموعة من الصناديق القديمة، وبجانبه شاب صغير، قوي البنيان، ينضح وجهه ببلاهة متناهية، وحولهم مجموعة لا بأس بها من الزبائن الذين تبدو عليهم الأناقة اللافتة، حيث يفتح الشاب القوي صندوقًا تلو الآخر، فيذكر الرجل الضخم ذو الصوت الأجش، والمزاج المنزعج، محتواه، ويبدأ في عرضه أمامهم، ويبدأ الناس من حوله في المزايدة على سعره ليبيعه في نهاية الجولة بآلاف عديدة.

مذكِّرات الأميرة فلانة، ورسائل السجين عِلَّان، وتحقيقات جهاز الأمن مع اللاجئ ترتان، وأفلام مهترئة، وصور مرمَّمة، ونيجاتيف أفلام، وأشياء نادرة لا حصر لها. فدخلت وسط الزحام، وسألت الشاب القوي عدة مرات عمَّا كنت أبحث، لكنه أخبرني في كل مرة، بذات البلاهة، أنه لا يعرف شيئًا عن التسجيلات التي أبحث عنها، فأخذت أفحص الصناديق الملقاة أرضًا بنفسي، وأقرأ الملصقات عليها، لكني لم أجد شيئًا يمتُّ بصِلةٍ للقرآن. وانتهت الصناديق، وبدأ الزبائن بتحميل مشترياتهم النادرة والرحيل. قبعت لساعتين أخريين في الشقة في انتظار أي صناديق جديدة قد تَرِد له، لكن الليل كان قد

هبط، وأبدى التاجر امتعاضه من وجودي دون سبب، فانتابني الإحباط وآثرت الرحيل.

خرجت من الشقة مُنهكًا، أجرُّ أذيال الخيبة. أصابني دوار بسيط، فجلست على درجات السلم بجانب الباب. وأخرجت عبوة بسكويت "نواعم" من جيبي، ووضعت واحدة منها في فمي، وترتكها تذبل وتذوب من تلقاء نفسها. وأخذت أفكر...

حاولت جاهِدًا أن أتمَّ مسعى عم "رجب هوجان"، وأجمع له القرآن، فأين وصلت؟

وأن أقدِّم النفع للعالم مثلما كان يأمل الدكتور "ثابت"، شريكي السخيف، فلم أفلح.

وأن أكون تلميذًا نجيبًا للأستاذ "سليمان"، فأجد الدهشة، والغموض، فلم أنجح.

سعيت أن ألتَقِم الطُّعم بكل ما أوتيت من قوة، طائعًا هذه المرة، لكني لم ألقم شيئًا.

تذكَّرتُ لحظتها أني ما زلت لا أعلم اسم الصحابي الذي كلَّفه "أبو بكر" بجمع القرآن، فأخرجت الموبايل، وبحثت عنه، فظهر لي الاسم؛ "زيد بن ثابت"... لم أكن بربع مهارة "زيد" حتى.

طأطأت رأسي، وبعد تفكير بسيط، بحثت عن رقم عيادة الدكتورة "علا"، واتَّصلتُ، وأخبرت مساعدتها أني عُدتُ من

سـفري، فحجـزت لي موعـدًا جديـدًا، وكان كالعـادة أقـرب مـمَّا تصـوَّرت.

اسـتعدت اتـزاني وهـدوئي، ووقفـت مـرة أخـرى، وأثنـاء مغـادرتي مـن الردهـة الطويلـة بـين الشـقق، وقبـل أن أخـرج مـن بـاب العـمارة العمـلاق، سـمعت صـوت الشـيخ "رفعـت" قادِمًـا مـن شـقة التاجـر العجـوز خلفـي، يشـدو بآيـات الجـزء الثـاني مـن سـورة "الأعـراف" المفقـودة مـن تسـجيلات العـالم.

تمَّت

أغسطس 2023

شكر خاص

للأستاذ "إبراهيم الهضيبي" على التناول الملهِم لمسألة "أصل الفتوى"

جزيل الشكر لكلٍّ من

- أحمد خير
- أحمد عبد الوهاب
- إيريني فضل الله
- جنة عادل
- سماء عبد الله
- سميرة محي
- عبد الله سامي
- رضوى بشير
- مجد زهران
- مخلوف
- همسة عبد الله
- وسام عبد الله

صـدرت هـذه الروايـة بعـد نيـف مـن أحـداث
"طوفـان الأقـصى"

طوبى لمن علمنا العزة.. فلسطين المجد

وتحت سماء فلسطين مستقلة

في زمن قريب جدًا

سيقرأ أطفالها ألف ألف كتاب

نبذة عن الكاتب

محمد عبد الله سامي،

كاتب وروائي مصري. من مواليد القاهرة. صدرت روايته الأولى «درب الإمبابي» في عام 2019، وترشحت للقائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب، وفازت بالمركز الثاني لجائزة «ساويرس» للأدب من نفس العام. ثم صدر بعدها ثاني أعماله الأدبية، المجموعة القصصية «نابليون والقرد»، وأولي محاولاته في مجال القصة القصيرة، والتي نشرت في عام 2020،وفازت بالمركز الثاني لجائزة «ساويرس» للأدب من نفس العام. أما آخر أعماله المنشورة، فهو رواية «الآن تأمن الملائكة»، التي صدرت في عام 2022.